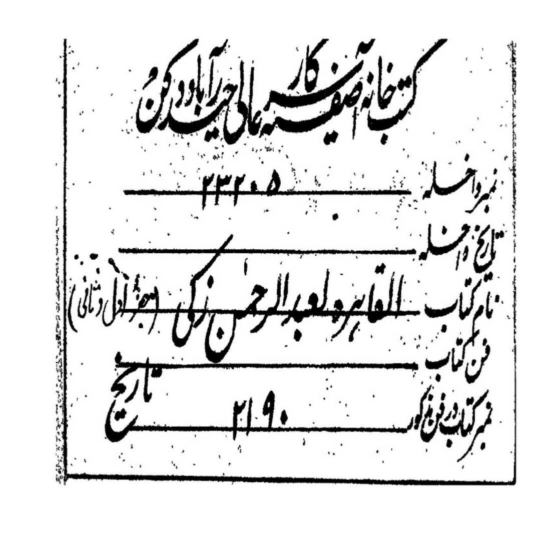


ملازم أول

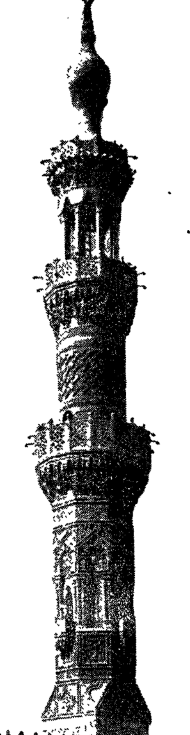
عبد الرحمن زكى

من ضباط الأشغال العسكرية

القاهرة

باب زويلة (المتولي)

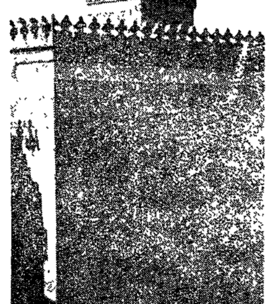
الطبعة الأولى [illegible]





ملازم اول
عبد الرحمن زكي

[الجزء الأول]



مأذنة الامام الشافعي

أهدى كتابى إلى كل من يحب •
القــاهرة



المقدمة

من بواعث الأسف الشديد أن لا يكون فى العربية كتاب عن القاهرة فى حين أن فى اللغات الأفرنكية عشرات الكتب عنها وعندى أنه مهما حاولنا أن نلتمس لأنفسنا من أعذار لانجد ما يسوغ إهمالنا وتقصيرنا فى هذا الصدد

ويخيل إلىّ أنه كان لاحجامنا عن خوض هذا الموضوع حتى الآن سببان : الأول صعوبة الموضوع نفسه ودقته وتعدد نواحيه وتفرعها والآخر قلة ما ينتظر أن يدره كتاب يؤلف فى هذا الموضوع على صاحبه وذلك فى عصر نرى فيه سوق الكتب « الخفيفة » تكاد تقضى على سوق الكتب التى اقتضى تأليفها بحثاً ودرساً طويلين .

ولكن هذا كله لا يبرر إغفالنا موضوع القاهرة حتى الآن وتوانينا فى التأليف عنها وخصوصاً بعد ظهور كتابين عن باريس ولندن

وكأنه شق على صديقى القديم الملازم أول عبد الرحمن زكى أن ينقضى ألف سنة على إنشاء القاهرة وأن لا يكون فى مكاتبنا كتاب عنها باللغة العربية فشمر عن ساعد العزيمة وعقد النية على سد هذا النقص متذرعاً لتحقيق هذه الأمنية بما حباه الله به من صبر على المطالعة وجلد فى البحث ورغبة فى التدقيق والتمحيص يعزز ذلك فيه حب موروث للأدب وللوطن

وكاتب هذه السطور أول من يعلم أن المؤلف أقدم على تأليف هذا الكتاب وهو محيط بصعوبة موضوعه ولكنه ضابط قبل كل شيء والضابط ككل جندى يلبى النداء بصرف النظر عن الصعاب والأخطار التى تكتنفه و« عبد الرحمن زكى » باقدامه على تأليف هذا الكتاب لم يكن الا ملبياً لنداء ضميره حينما أهاب به أن يسد الفراغ الموجود فى مكاتبنا بعدم وجود كتاب عن القاهرة فيها باللغة العربية

وقد أتاحت لى صداقتى القديمة لعبد الرحمن زكى أن أتتبع سير الجهود التى بذلها فى أعداد هذا الكتاب وطبعه يوماً فيوما . وطالما قال لى أنه موقن من أن كتابه هذا لن يجيء وافيا بالغرض منه من جميع النواحى . إذ أن موضوعا كموضوع القاهرة خليق بعشرات الكتب لا بكتاب واحد أو بكتابين لأنه مهما وسع كتاب أو كتابان فانهما لا يسعان تاريخ القاهرة بأسهاب فى عشرة قرون . غير أن صديقى الملتهب حبا لبلاده كان يقول لى دائما « إذا لم يكن لكتابى حسنة بعد ظهوره إلا حث الذين يرون فيه تقصيرا ونقصا على تأليف كتب أحسن منه فكفانى ذلك مكافأة »

ولا أخالنى فى حاجة إلى وصف ما عاناه صديقى من تعب ونصب فى جمع معلومات كتابه وبياناته فان الكتاب نفسه كفيل بأن يصف ذلك أبلغ وصف وأظن أن رجال دار الكتب والجمعية الجغرافية والمعهد المصرى مستعدون دائما أن يشهدوا بأن عبد الرحمن زكى أقلق راحتهم من مدة طويلة فى أوقات كان معظم الناس لا يعملون فيها أكثر من توفير أسباب الراحة لأنفسهم

وفى الختام لا يسعنى إلا أن أهنىء جيشنا بضابطه المقدام فان هذا الكتاب مفخرة له قبل أن يكون مفخرة لمؤلفه وهو دليل ناطق آخر على أن فى صفوف رجاله ضباطاً يعرفون كيف يمضون أوقات فراغهم فى ما ينفع وطنهم وقومهم

لقد تعب صديقى عبد الرحمن زكى كثيرا فى إنجاز هذا الكتاب وطبعه ولا أعلم اذا كان الناس سيقدرون جهوده حق قدرها ولكننى واثق من شىء واحد منذ الآن وهو أنه سيستطيع أن يفخر دائما بأنه أول من أخرج لمواطنيه كتابا عن القاهرة بالعربية وبأنه ذكر الباحثين منهم بأن هناك موضوعا اسمه تاريخ القاهرة هو جدير بعنايتهم وحسب صديقى ذلك مكافأة وتقديرا ...

كريم ثابت

تمهيد

للقاهرة مكانتها العظيمة بين عواصم العالم فهى مدينة ولدت وعاشت فيما يسمونه القرون الوسطى وهي اليوم تتحول بسرعة إلى مدينة حديثة كزميلاتها لندن و باريز و برلين وروما . ولا أدر إذا كان هذا التحول هولنا أوعلينا . إنما هى على كل حال تبتعد يوميا عن الشرق بقدر ما تقترب من الغرب

مرت على القاهرة أدوارها التاريخية المتتابعة ولقد شيدت وأعيد تكرار تشييدها خلال مامرّ بها من العصور . سواء أكانت عصور نور أم عصور ظلام ومع كل هذا لانزال نرى فيها كثيرا من تلك المخلفات العزيزة التى تجعلنا نتصور ما كانت عليه القاهرة منذ سمائة عام . فان الشوارع المزدحمة التى تضيق بالناس فى أحياء القاهرة القديمة وطابع ما بقى من قصورها و بيوتها ذات الطراز الشرقى اللطيف و بعض أسواقها المسقوفة وإلى جانبها تلك الآثار التاريخية النادرة . . كل هذه المخلفات تحملنا الى الوراء فنرى أمامنا قاهرة العصور الوسطى

وليس الغرض من هذا الكتاب درس القاهرة من ناحية جغرافية فقط أو تاريخية أوطبوغرافية أو اجتماعية . بل الغرض منه دراسة عامة شملت شيئا من كل هذه النواحى بأيجاز والباس تلك المظاهر العمرانية والمادية للقاهرة الأولى بما اكتنفها من حوادث التاريخ لكى تكسب صفحات الكتاب شيئا من لذة المطالعة

وكثير من مبانى القاهرة وعلى الأخص ما شيد من المساجد أثناء العصر المملوكى كلها أمثلة ناطقة بجمال العمارة و برشاقة الفن وهذا بصرف النظر عن الناحية التاريخية ولا تزال فى القاهرة بعض القصور الخربة والعقودات المتهدمة ومخلفات من الأسوار الضخمة والكتابات المنقوشة وهذه إن كان يعجب بها و يتذوقها الاركيولوجى فان فيلسوف الفنون لا يهتم بها ولاشك أنها تكون جوفاء لا تحمل معنى اذا كنا لا نهتم بسرد سيرتها . ولقد حاولت أثناء تتبع نمو القاهرة أن أحيط مخلفاتها الأثرية بجو من تاريخها المعاصر لكى أعطى صورة ناطقة لقاهرة ذلك الحين . فان ذكر الخطط لا يحثه

الا الطبوغرافى الذى يقدره تمام التقدير والنمو المادى لمدينة مايجبُ أن يمتزج مع حياة شعبها وأخلاق حكامها وفى هذه الحال يستطيع القارىء أن يجد فى البحث الطبوغرافى التاريخى مادة مقبولة سهلة التناول

وأحيانا كنت أخرج عن موضوع القاهرة الأساسى بتأثير التاريخ الممتع . لذلك كان من الضرورى أن أكسى القاهرة بشيء من ذكرياتها التاريخيــة وأرجو أن لا يفهم من ذلك أن كتابى « تاريخ عام لمصر » فكثير ماأهملت حوادث هامــة فى تاريخنا لأنها لم تكن ذات صلة تربطها بتقدم المدينة

سيعرف القارىء كيف خط القائد جوهر أساس المدينة فى ليلة حالكة السواد ثم كيف طرح السلطان صلاح الدين جلال القصور الفاطمية وشيد القاهرة لتكون عاصمة جديرة بامبراطوريته وكيف استقبلت الملكة شجرة الدر أمراء الدولة من خلف ستار وكيف تسلم بيبرس العظيم خلعة توليته من الخليفة وكيف افتتح قلاوون مارستانه الخالد على يد خطيب غير مخلص وكيف زينت القاهرة فرحا وابتهاجا لما سقطت القسطنطينية من يد الدولة البيزنطية وربحها العثمانيون ويسدل الستار مؤقتا فينقلب ابتهاجها حزنا لما دخلها السلطان سليم من باب زويلة غالبا منصورا وأخيرا يصل إليها بونابرت مصحوبا بعلمائه علاوة على قواده وجنده . ويعبث المماليك فى أحيائها فسادا حتى يبيدهم مؤسس مصر الحديثة محمد على باشا الكبير فيستسلموا له فى جامع البرقوقية ومن بعده يصل حفيده العظيم اسماعيل فينقلها دفعة واحدة من الشرق ليضعها فى المكان اللائق بها بين عواصم الغرب ثم يهبنا الله ملكا عظيما فيعمل على تثقيفها وتزويدها بالمعاهد والمؤسسات ويصدر أوامره الكريمة بتجديد آثارها لتسترد سالف رونقها ودارس بهائها

والمراجع التى اعتمدت عليها فى هذا الجزء من كتاب القاهرة يجدها القارىء فى ذيل الكتاب وطبعى كان أفضل مصدر استفدت منه خطط العلامة المؤرخ المقريزى فقد كتبها فى أوائل القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ولا أعتقد أنها فى حاجة إلى تقريظ إذ هى أنفس مصادر لتاريخ خطط القاهرة وتعد موسوعة كاملة لتاريخنا إلى القرن المذكور وهى بلا شك أثر خالد سيعمر على مر الأجيال وإنى لأذكر بعد العلامة المقريزى العلماء والمؤرخين المسعودي وناصر خسرو وعبد اللطيف البغدادي وابن جبير وابن دقماق وابن سعيد والسيوطى وأبو المحاسن والجبرتى وجورجى زيدان وستانلى لين پول ووليم لين وعلى باشا مبارك وماكس فان برشم (Max van Berchem) ورافيس (Ravaisse) وكازانوفا (Casanova)

والكابتن كريسويل (Capt. Creswell)والسيدةديفونشير (Mrs Devonshire) ومرجليوث (Margolioth) والدكتور حسن ابراهيم حسن وغيرهم من أفاضل العلماء والباحثين الذين اهتديت على نور كتبهم ومقالاتهم إلى مايجده القارىء في هذه الصفحات وبالرغم من وجود إسمي على غلاف الكتاب كشأن كل المؤلفين إلا أن كل الفضل كان لهؤلاء الأفاضل العلماء الأجلاء الأحياء منهم والأموات

أما وقد ذكرت أصحاب الفضل وأثر أبحاثهم في اخراج كتاب القاهرة فانني أرى من الواجب ذكر طائفة أخرى من السادة الأفاضل الذين ساهموا معي في انجاز هذا الكتاب وهم حضرات الأساتذة أحمد أفندي رامي والسيد أفندي عمر وعلي أفندي امام من دار الكتب المصرية والاستاذ حسن أفندي الهواري الأمين المساعد لدار الآثار العربية والاستاذ العالم المسيو مونييه (M. Munier) سكرتير الجمعية الجغرافية الملكية والأستاذ جوهان مارشان (M. Johann Marchand) أمين مكتبة المجمع المصري والأستاذ الباحث يوسف افندي احمد وكذلك الأستاذ الفاضل حسن افندي عبدالوهاب وآثار عملهما واضحة في الكتاب والهر لاندروك (Herr Landrock) صاحب مجموعة الصور المصرية الذي سمح بنشر تلك الصور التي زينت بها صفحات القاهرة وأخيرا صديقي الاستاذ كريم ثابت الذي كان أكبر المشجعين بل وأولهم بحثه الدائم على اخراج القاهرة

هذا هو الجزء الأول من كتاب القاهرة وسأحاول اخراج الجزئين التاليين في القريب العاجل بعونه تعالى . والقاهرة وان كان من حقها أن يصدر عنها عشرات الكتب بالعربية منذ أعوام كما قال صديقي الاستاذ كريم على انني أحمد الله على توفيقي إلى اخراج هذا الجزء ولو أنه ليس على الصورة التي كنت أرغب فيها فالقاهرة في حاجة إلى سفر عظيم تقوم به هيئة علمية قوية وعلى كل حال فان الخير إذا جاء متأخراً فليس ذلك بناقص من قدره

وأرجو أن يجد النقاد والباحثون في تدوين ملاحظاتهم على هذا الجزء ففي ذلك خدمة للعلم وهذا ما ننشده جميعا . وعلى كل حال أعود فأقول انه كان لزاما أن يصدر كتاب عن القاهرة .....

هدانا الله سواء السبيل في ظل جلالة ملكنا المعظم ؟

المؤلف

١٤ ذي الحجة ١٣٥٢

فسطاط عمرو

أحن الى الفسطاط شوقا وأننى ... لأدعو لها الا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها ... وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

[الشريف العقيلى]

فى سفح المقطم ومن قلعة الجبل يخيل للناظر أنه أمام مدينة من مدن القرون الوسطى لكنه لايرى بين جميع المبانى العربية بناية واحدة باقية على الحالة التى وجدت عليها منذ فتح العرب مصر ونعلم انه قبل غزو المسلمين لمصر (عام ٢٠ هـ - ٦٤٠ م) لم تكن توجد القاهرة التى لم تؤسس الا بعد مرور ثلاثة قرون على هذا الفتح لما وضع القائد جوهر أساس المدينة والقصر لأسياده الفاطميين فاخذت القاهرة اسمها الذى تعرف به اليوم . ولقد أوجد الفتح العربى عاصمة إسلامية لم تسم بالقاهرة فى بادىء الأمر الا انها كانت مجاورة لقاهرة اليوم ثم أصبحت فى الواقع امتدادا للمدينة الأصلية وسيظهر تاريخ نموها كلما درسنا أدوارها المختلفة وآثارها المتعاقبة . والآن سنستعرض سريعا تطورها المتوالى على ممر العصور

مقياس الروضة

قامت الفسطاط لما فتح العرب مصر وجاء بعد عمرو بن العاص الوالى صالح بن على العباسى عام ٧٥١ فأسس الى شمالها الشرقى ضاحيته المسماة العسكر ثم اعقبه احمد بن طولون حوالى عام ٨٦٠ فأسس «القطائع» وكانت مدينة صغيرة تقع أيضا فى الشمال

الشرقى من الضاحية السابقة ثم جاء حين من الوقت اندمجت فيه العواصم الثلاثة بعد أن كانت العسكر أو القطائع بمثابة (شيلزيا) و (سنت جيمس) لحى ال سيتي بلندن القديمة أو بمعنى آخر ضاحيتى للعاصمة التجارية الفسطاط إذ ذاك

وكان التطور الرابع للمدينة يقع أيضا ناحية الشمال الشرقى بعد ترك فراغ بين الموقع الجديد و بين خرائب القطائع وذلك للمحافظة على ضمان حياة الخلفاء الطاهرين الذين من أجلهم أسست القاهرة الجديدة فى عام ٩٦٩ ولما بنيت لم تتخذ عاصمة البلاد التجارية بل لم تكن أكثر من زميلتيها السابقتين العسكر والقطائع فقد كانت الفسطاط لاتزال تتكىء على ضفة النيل ولم تكن قد تنازلت بعد عن حقها كوسط تجارى أو كمهد للتثقيف الاسلامى كما ان القاهرة الجديدة لم تكن غير قصر محصن فيه الثكنات وأحياء الجند والدواوين الحكومية . ولما كتب مؤرخو العصور الوسطى أمثال (وليام اوف تيره) ذكروا ماصر (Macer) وهو الاسم الذى يطلق إجمالا على كل البلاد المصرية ولم يقصدوا به القاهرة بل فى الواقع قصدوا الفسطاط كما كانت تسمى اذ ذاك . فقد كان الأمير أو الخليفة أو السلطان يسكن أو يحكم اين يشاء فى احدى تلك الضواحى التي يرغبها بينما بقيت العاصمة القديمة وهى الفسطاط المركز الحقيقى للبلاد . ففيها جلس القضاة يحكمون فى المسجد العتيق (مسجد عمرو) وفيها ضربت نقود الدولة . وفيها سكن معظم السكان الذين لم يتصلوا بمهام القصر . من تجار واساتذة وطلبة علم وصناع وارباب حرف . ولم تتنازل الفسطاط عن مكانتها إلا مرغمة لما أحرقها الوزير شاور عام ١١٦٨ لكى تستر هجوم الصليبيين على القاهره . فأخذت القاهرة منذ تلك الساعة مكانتها كعاصمة الدولة الرسمية ومحور الحركة التجارية للديار

ويعتبر صلاح الدين المؤسس الأول للقاهرة التى نعرفها اليوم فهو الذى وضع تصميم سورها القديم الذى أحاط القاهرة ومعها القلعة وما تبقى من القطائع والفسطاط . ومنذ عصره بدأ العمران يغطى تلك المساحة الواسعة التى تتوسطها القلعة وقصر القاهرة التى ابتدأت تمتلىء رويدا كما نرى

ومما تقدم يتبين أن نمو المدينة هو فى الواقع نتيجة لثلاثة أدوار متتابعة كلها امتدت نحو الشمال الشرقى وقد كانت هذه الأدوار مصحوبة باضمحلال الضواحى القديمة المهجورة ثم انتهت باندماج النواحى الآهلة بالسكان فى القاهرة الجديدة . ومنذ أيام صلاح الدين اضمحلت الفسطاط ولم يبق من آثارها الا اكوام من الرماد والمواد المحترقة و بقيت قرية هزيلة

عرفت بمصر العتيقة كما نعرفها اليوم

ومما يسترعى النظر أن موضوع فتح العرب لمصر من بين الموضوعات التاريخية المهمة التى ما برح الظلام الدامس يتخللها فى نقط كثيرة وقد يلوح قولنا هذا كأن فيه مبالغة ومغالاة ولكنه الحق لاشك فيه كما يؤيده الدكتور (الفرد بتلر) فى مقدمة كتابه (فتح العرب لمصر) والسبب فى ذلك ان العرب لم يبدأوا كتابة التاريخ الا بعد قرنين من هذا الفتح وقد يكون أهم مصدر لتاريخ هذا العصر ما كتبه (حنا النيقوسى) الاسقف القبطى الذى كتب عن مصر فى أواخر القرن السابع ولعله ولد حوالى زمن الفتح وكتابه عبارة عن مؤلف فى تاريخ العالم وقد كتب جزأ منه فى الأصل باللغة القبطية وجزأ آخر باللغة اليونانية

وقد دخل العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص فى عهد خلافة سيدنا عمر بن الخطاب على رأس قوة تعدادها أربعة آلاف مقاتل وكان ذلك فى ديسمبر عام ٦٣٩ فاستولى على الفرما و بلبيس بعد حصار ثم التحم بالجيش الرومانى فى أم دنين وكانت احدى الضواحى التى يقع بالقرب منها اليوم (قصر عابدين) ثم هجم على بابليون أو مدينة مصر وكانت هذه المدينة عبارة عن الامتداد الشمالي للعاصمة القديمة ممفيس التى كانت تبعد عن قاهرة اليوم حوالي ١٢ ميلا وقد احتمت مدة طويلة أثناء الاحتلال الرومانى تحت كنف قلعة بابليون ولمناعة هذا الحصن واستبسال حاميته فى الدفاع عنه طلب عمرو أن يمده الخليفة بامداد من الجند قبل ان يقوم بالهجوم النهائى

ويكاد المؤرخون يتفقون على أن عمرو قسم قواته الى ثلاث فرق فاحتلت الفرقة الأولى الجزء الشمالى لبابليون والثانية احتلت (تندونياس) وهى أم دنين وانسحبت الأخرى الى الشمال حيث عسكرت فى منطقة (هليوبوليس) وأمل عمرو بن العاص من هذه الخطة أن يسلم الروم الحصن وينزل على فلولهم المتقهقرة من مؤخرتها واجنابها فيقضى عليها ونجحت الخطة وكان ان خرج الروم من قلعتهم وهاجموا العرب فى هليوبوليس ولكن غاب عنهم وجود فرقتى العرب من خلفهم فأحاطتهم الجنود الاسلامية من كل جهة وحصروهم عند شاطىء النيل فقصدوا النهر وفروا هاربين وكانت النتيجة أن استولى المسلمون على أم دنين بعد فناء حاميتها الرومية التى لم يبق منها سوى ٣٠٠ جندى احتموا فى قلعتها حتى حملهم الخوف على أن يتركوا الحصن فساروا فى الليل الى نيقوس ثم كان الاستيلاء على أم دنين ممهدا للاستيلاء على مصر ماعدا قلعتها التى كانت

لاتزال محاصرة بجنود عمرو . وان عمدتنا (حنا النيقوسى) وتاريخه هو المصدر الثقة لذلك العصر والذى يستمد منه المؤرخون ما كتبوه عن فتح العرب لمصر لم يذكر حصارا آخر أو غارة أخرى على مدينة مصر ولم يذكر بعد ذلك الا تسليم حصن بابليون . ومهما كان من شأن هذه المدينة المصرية أم دنين فقد اختفت من التاريخ بمجرد انتهائها من الفتح وآخر ما نسمعه عنها ذكرها فى معاهدة الصلح الخاصة بالأمتيازات التى منحها عمرو والتي يذكرها كتاب الطبرى ويسميها شروط صلح عين شمس بدل ان يسميه صلح الاسكندرية وهذا هو نصها كما جاء فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولاينتقص ولاتساكنهم النوبة وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليهم ماجنى لصوصهم فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة . وان نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا عليهم ماعليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم . على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين) وشهد عليه الزبير وأبناء عبد الله ومحمد وكتبه وردان .

وليس هناك أدنى شك فى كرم هذه الشروط التى فرضها الفاتح عمرو بن العاص على أهل البلاد وقد يوجد تحريف فى نصها باختلاف المصادر التاريخية ولكن المؤلف يعتقد أنه بعد توقيع هذه المعاهدة أضحت مصر ولاية اسلامية يحكمها عمرو بن العاص وبفتح مصر واجلاء الروم عنها أحب عمرو بن العاص أن يتخذ الاسكندرية مقرا له وكانت قاعدة لهذه البلاد منذ أيام الاسكندر الأكبر (سنة ٣٣٠ ق م) فأرسل بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسأل الخليفة رسول عمرو هل يحول بينى وبين المسلمين ماء — قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل » . فكتب إلى عمرو يقول « إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير مدينة الاسكندرية لتكون عاصمة مصر المستقبلة

وكان عمر بعيد النظر فالعرب لم يكونوا أمة بحرية ومن هنا لم تعد الاسكندرية صالحة لأن تكون حاضرة للديار المصرية . فلم يكن بد إذا من أن تتخذ العاصمة الجديدة إما على البحر الأحمر وإما فى مكان تسهل منه المواصلات البرية مع بلاد العرب ، ولما كان موضع الفسطاط يقع على الطريق إلى بلاد العرب وفى مكان يسهل منه الاشراف على قسمى البلاد المصرية اتخذه عمرو حاضرة لولايته

وكانت الفسطاط تقع فى ذلك الفضاء المتسع الذى نزل فيه عمرو بجنده عند حصاره حصن بابليون والذي لايبعد كثيرا عن منف عاصمة مصر القديمة . ويقول المقريزى فى خططه « اعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فى ما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع بالقلعة ينزل به شحنة (حامية) المتولى ل مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ويقيم فيه مايشاء ثم يعود إلى دار الأمارة

وقد حدد الاستاذ يوسف أفندى أحمد فى كتابه (الفسطاط) موضع هذه الحاضرة بالضبط فقال انها تقع فى المنطقة التى حول جامع عمرو والتى تمتد شرقا حول قرب سفح جبل المقطم وشمالا حتى جهة فم الخليج وقناطر السباع وجبل يشكر وغربا حتي النيل وجنوبا حتى ساحل أثر النبي

من ذلك نرى أن عمرو قد راعى فى اختياره موضع الفسطاط لتأسيس عاصمة ولايته الجديدة الاعتبارات الطبيعية التى يجب توفرها فى عواصم البلاد فقد كانت فى موضع يجعلها فى مأمن من هجمات العدو و بسهل وصول المؤن والأقوات اليها لما كان يخوطها من المزارع إذ كان النيل يحدها غربا وجبل المقطم شرقا كما كانت واقعة بين هذا الجبل من جهة وجبل يشكر من جهة أخرى أضف إلى ذلك وقوعها على رأس الدلتا مما يسهل الاشراف على الوجهين البحرى والقبلى ولاشك فى أن العرب قد وفقوا فى اختيار موضع الفسطاط أكثر من توفيقهم فى اختيار بعض العواصم الأخرى التى أسسوها كالبصرة والكوفة والقيروان

ومما زاد فى أهمية موقع الفسطاط أنه كانت تصل بابليون والبحر الأحمر عند السويس قناة قديمة اسمها (أمينس تراجانوس) وكانت تمر بمدينة بلبيس وبحيرة التمساح لكنها أهملت فى وقت ما فأعاد حفرها عمرو بن العاص و رجعت لها أهميتها

السابقة فكانت ترسل بواسطتها القمح والشعير إلى بلاد العرب وسهلت بذلك المواصلات بين الخليفة وتابعه

وانتهى عمرو من اختيار موقع العاصمة التى أرادها وعزم على بنائها مدينة جديدة فى السهل الذى يلى حصن بابليون بينه وبين جبل المقطم . وقد روى البلاذرى أن الزبير هو الذى اختط المدينة واتخذ لنفسه دارا وجعل فيها السلم الذى صعد عليه إلى سور الحصن وبقى فيها ذلك السلم حتى احترق فى حريق شاور وأما ياقوت فانه يذكر فى معجم البلدان أربعة أشخاص أمرهم عمرو أن يقوموا بتخطيط المدينة وتقسيمها بين أحياء العرب وقبائلها وهؤلاء الأربعة هم معاوية بن جديج وشريك بن سمى وعمر ابن قحزم وجبريل بن ناشرة ويحتمل أن الذين اختطوا المدينة الجديدة وبنوها كانوا من القبط إذ لم يكن العرب قد تقدموا بعد لبناء المدن الكبيرة كالتى رأوها فى مصر عند الفتح

ومن الجلى أن اسم الفسطاط الذى سميت به المدينة أعجمى وقد اختلف فيه مؤرخو العرب فهم يقولون اجمالا أن معناه (الخيمة) تتخذ من الأدم أو من الجلد وكان عمرو يتخذ لنفسه خيمة منها ويشك أبو صالح مؤلف (تاريخ أبى صالح الأرمني) فى هذا التأويل ويقول إنها سميت بالفسطاط وهو مجتمع الناس ولم يقم العرب خيمة إذ لم يكن لهم عهد بذلك وجاء فى رواية أن كل مدينة فسطاط ويقول ابن الفقيه ان البصره كان يطلق عليها اسم الفسطاط . وقال الجوهرى الفسطاط بيت من شعر وقد أورد ياقوت ستة أوزان بذلك اللفظ وهى الفُسطاط والفِسطاط والفُسّاط والفِسّاط والفُستاط والفَستاط ولعل العرب سمعوا هذا اللفظ البيزنطى فى الشام كما سمعوه عند حصن بابليون وأكثر ما يطلق على ما يتصل بالمدن المحصنة

ويوجد رأى آخر لطيف لسبب تسمية مصر بالفسطاط وذلك أن عمرو بن العاص لما تحول عن الفسطاط إلى الاسكندرية لقتال من بها من الروم أمر بنزع فسطاطه فاذا فيها يمام قد فرخ فقال عمرو . « لقد تتحرم منا بمتحرم فامر به فاقر كما هو وأوصى به صاحب القصر فلما قفل المسلمون من الاسكندرية قالوا أين ننزل ؟ قال الفسطاط لفسطاط عمرو الذى كان خلفه وكان مضروبا فى موضع الدار التى عرفت بدار الحصار عند دار عمرو الصغيرة بمصر

وتاريخ انشاء الفسطاط مختلف فيه فالبلاذرى يقول إنه كان بعد فتح بابليون فى حين

أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الاسكندرية عند ماأبى عمر أن يبيح لعمرو المقام فى الاسكندرية ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية وانها زادت فيما بعد حتي صارت مدينة وعاصمة ذات شأن كبير وقد قال أبو المحاسن إن عمرا بنى الفسطاط فى سنة ٢١ هجرية بعد فتح الاسكندرية إذ نزل موضع فسطاطه وتنافست القبائل بعضها مع بعض فى المواضع فولى عمرو بن العاص معاوية بن جديج التجيبي وشريك بن سمى وعمرو بن قحزم الخوالانى وجبريل بن ناشرة المعافرى على الخطط وكانوا هم الذين نزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك فى سنة إحدى وعشرين من الهجرة وانه لمن البعيد أن تكون مدينة الفسطاط قد جعلت عند اختطاطها مدينة عظيمة أو قصد منها أن تكون عاصمة للسلمين ولكن مع ذلك فالمدينة وان ابتدأت صغيرة فقد نمت نموا سريعا بعد سنة من انشائها فاتسعت عندذلك فسطاط مصر وكانت تسمى بالاسمين معا حتي عمت الفضاء الفسيح الذى نرى به اليوم تلك الأكوام من الأقذارفى جنوب القاهرة ومنذ ذلك الوقت صارت عاصمة مصر وكان يطلق عليها مختصرا اسم مصر واختط عمرو داره فى موضع الفسطاط ثم انضمت القبائل بعضها إلى بعض واتخذ كل منها خطة (حارة) وكانت بيوت الصحابة فى بادىء الأمر طبقة واحدة وقيل إن أول من بنى طنفا بالفسطاط هو خارجة بن حذافة فبلغ عمر ابن الخطاب أمرها فكتب إلى عمرو « أن ادخل غرفة خارجة وانصب سريرا وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من (كواها) شرفاتها على عورات جيرانه فاهدمها ففعل عمرو ولما وجدها غير ضارة أقرها فأخذت البيوت تسع . كما أخذت عمارة المدينة تزدهر وتزداد حتى فاقت مدينتى البصرة والكوفة وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال كما قال المقريزى فى خططه وذكر مؤرخو العرب أنه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و٨٠٠ شارع مسلوك و١٧٠ حماما

ولا نعرف إلا قليلا عن وصف البناء الذى بناه الناس فى الفسطاط فقد كانت أكثر المنازل من اللبن ثم علا فيها البناء حتى صار إلى طبقات أربع أو خمس وقد أظهرت الحفريات التى قامت بها دار الآثار العربية فى أوائل هذا القرن بعض أنواع هندسة المبانى التى شاعت فى ذلك العصر ويمكننا أن نطلع منها أو نتصورها قطعا عظيمة من البناء قائمة على غير استواء ولا نظام تدعمها اعمدة رومانية لاشىء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق شبه كل الشبه ماهو موجود أو ما كان موجودا فى مدينة رشيد من البناء منذ عشرين عاما وقيل إن بعض هذه المنازل الكبرى كان يسكن فيه نحو مائتى فرد وكانت الطبقة السفلى مما يلى الأرض لايسكنها أحد إلا قليلا

جامع عمرو

وإنا نرى إلى اليوم جامعا عتيقا فى شمال الحصن الرومانى المتهدم ويبعد عنه قليلا وهو أقدم مسجد فى مصر يؤدى فيه فريضة الجمعة اليتيمة من شهر رمضان مولانا جلالة الملك ووزراء الدوله ورجالاتها ونظن أن انشاءه كان فى ذلك الشتاء من سنتى ٦٤١ و٦٤٢ م وقد اختار عمرو لبنائه الموضع الذى كان فيه لواؤه وصار يعرف باسم مسجد أهل الراية وكان ذلك الموضع بين بساتين وكروم تلى شاطىء النهر وقد حل فيه قبل بناء الجامع أبو عبد الرحمن بن كلثوم فلما طلبه عمرو منه نزل عنه صدقة للمسلمين وكان المسجد من أول ما يجب على المسلمين اتخاذه . ولقد كان جامع عمرو فى الأصل مسجدا بسيطا وكانت مساحته ٥٠ ذراعا فى ٣٠ أو ٢٠٠ قدما فى ٥٦ وسقفه مطأطأ وكان أمامه فضاء ولم يجعل له صحن ومد الطريق حوله وجعلت له ستة أبواب ثم ظهر ضيقه بالمصلين اذ كان الناس يصطفون للصلاة فى الفضاء الذى أمامه . ولما تم بناؤه وضع فيه منبر وكان عمرو يقوم عليه فى خطبته حتى تقدم اليه الخليفة عمر يعزم عليه فى كسره ولامه على أن يطأ رءوس المؤمنين اذ يقوم عليه والمسلمون جلوس تحت عقبيه وقد زيدت فى الجامع زيادات كان أولها ما زاده مسلمة بن مخلد فى سنة ٥٣ — ٥٤ للهجرة (٦٧٣م) فانه مده الى جهة الشمال وأخذ جزأ من بيت عمرو وفرشه بالحصر بدل الحصباء وبنى فيه صومعة عند كل ركن من أركانه وجعل فيه منائر نقش عليها اسمه ولم تكن فيه منارة من قبل وزاد عدد المؤذنين فيه وأمر ألا يضرب فيه ناقوس عند الفجر. وفى حوالى سنة ٦٩٦ م أمر عبد العزيز بن مروان بهدم جزء منه وأعاد بناءه ثم أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد ذلك فى سنة ٧١١م واليه قرة بن شريك أن يهدم المسجد كله ويعيد بناءه . وما نراه اليوم هو فى الواقع المسجد الذى جدد بناءه عبد الله ابن طاهر سنة ٨٢٧ م وفى سنة ١٧٩٨ م (١٢١٢) جدده المغفور له مراد بك الكبير وأصلح سقفه وبنى فيه منارتين وميضة جميلة فتم على أجمل ما يكون لكن باحتلال الحملة الفرنسية على مصر أعيد الخراب الى الجامع حتى عنى البيت العلوى بتجديده النهائى وكان مسموعا اعادة بنائه من جديد

وانتهى عمرو بن العاص من بناء مدينة الفسطاط وأقام مسجد الفتح أو تاج المساجد ثم كثرت منازل الفسطاط وحماماتها وخصص لها مقبرة وشيد أيضا بيت المال وظل الجامع القديم كما كان يسمونه الطوبوغرافيون القدماء مقرأ لرئيس القضاة ومجلساً



خريطة الفسطاط نقلا عن كتاب وصف مصر الذى وضعته الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨

ويجمعا العلماء تحت أروقته وكان أيضا مركزا مناهضا للشيعة إبان قيامها فى مصر ولما أحرقت الفسطاط فى سنة ١١٦٨ نجا الجامع من نارها لكنه أصيب بأضرار تذكر أصلحها السلطان صلاح الدين فيما بعد ويقول المؤرخون عن هذا التجديد « حيث وجد السلطان خشبا وحجارة ترك رخاما » ولكن لم تكن هناك ذرة أمل للمحافظة على مكانته لما تحولت الفسطاط إلى أكوام من الهشيم فتحولت عنه مجالس التعليم وأصابه البؤس

قال ابن سعيد الرحالة المراكشى الذى زار مصر فى القرن الثالث عشر فى رسائله « .... ثم دخلت اليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء غير مزخرف ولامحتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والحلوى والناس يأكلون منها فى أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان والصبيان يلعبون فى صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة » .... حتى إذا ماأقبل القرن الثامن عشر ذكر الجبرتى فى تاريخه « وانتشر الموسيقيون فى فنائه والقرداتية والراقصات فذهب بهاؤه القديم حتى هجره هؤلاء أيضا ولولا اقدام مراد بك على إعادة تجديده لاندثر تاج الجوامع منذ قرنين » .... وكان منظر الجامع من الخارج خالياً من كل أثر من الجمال أوالفن ومأذنتاه مجردتين من بسائط فن العمارة وإذا كان الجامع الأصلى الذى شيده عمرو قد ذهب لحاله ففى مكانه اليوم نرى خليفته تقام فيه شعائر الاسلام وهو رمز للعاصمة الاسلامية الأولى التى أوجدها الفتح العربى منذ قرون بعيدة . وأن مابقى من آثار تلك المدينة العظيمة التى ظلت العاصمة والميناء النهرية لمصر الاسلامية مدة خمسة قرون تغطيها الآن رمال الصحراء وعند هبوب ريح عاصفة فى ذلك المكان يمكن أن تلتقط بعض قطع من الزجاج والآنية الخزفية والمصابيح الرومانية والعملة والزجاجات والنقوش المكتوب عليها أسماء ولاة القرن الثامن وما إلى ذلك مما كان فى الفسطاط مما نراه اليوم معروضا فى دار الآثار العربية أما منازلها وقصور حكامها وحماماتها ومدارسها فقد أصبحت أثرا بعد عين . ونقرأ عنها كثيراً فيما كتبه المؤرخون والرحالون المراكشيون أوالفارسيون الذين زاروا مصر من الشرق إلى الغرب ولكن مع كل ماوصفوه فاننا لانستطيع أن نقف على حقيقة المدنية العربية البائدة وربما نجد من نتائج الحفريات الأخيرة وأبحاث

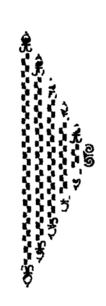
علمائها ما يتيح لنا وصف المدينة وصفاً دقيقاً فى الأعوام المقبلة وإن كان قد أتيح لابن دقماق وصفها وقد اقتبس عنه «كازانوفا» لما وضع كتابه «طبوغرافية الفسطاط» ولم يتخلف من آثار الفسطاط إلا جامع عمرو الذى أتينا على وصفه باختصار وهناك أثر آخر من بقايا المدينة الرومانية وهو حصن بابليون أو قصر الشمع فهو فى الواقع ليس بأثر عربى يقوم اليوم فى نفس مكانه الأول الذى أشرف فيه على الخيام الاسلامية للجيش العربى الفاتح وقد رأى تحت قدميه مدينة الفسطاط تنمو وتتسع

وأول من بنى هذا الحصن الامبراطور الرومانى « تراجان » فى العام المتمم للمائة من الميلاد وإن يكن هناك رأى آخر فقد جاء «أسترابو» إلى مصر قبل عهد تراجان بنحو مائة وثلاثين عاما وذكر انه رأى حصنا قويا على نهد من الصخر واتفق مع «ديودورس» أن السبب فى تسميته أن جماعة من أسرى بابل كانت مقيمة فيه وقال المؤرخ « يوسيفوس » ان الحصن لم يبن إلا فى أيام غزوة العرس فى حكم الملك قمبيز

والحصن إذا تأملت جدرانه الباقية من الخارج رأيتها على نمط البناء الرومانى وترى أحدها وهو الجنوبى لايزال عبارة عن برجين كبيرين فى أحدهما كنيسة العذراء المعروفة بالمعلقة ويوجد بين البرجين باب مسدود وقد طمرت الأتربة جزأه الأسفل ويشاهد فى جدران أخرى آثار شبيهة بهذين البرجين وكل هذه الأبراج تبين ما كان عليه هذا الحصن من المناعة فلا غرو إذا امتنع على العرب سبعة أشهر . ويمكن تمييز الجزء الأكبر من هيكله الخارجى الذى يشاهد منه لليوم خمسة أبراج وبرجان مستديران على شارع مارى جرجس وجدران الحصن مبنية على الطراز الرومانى العادى خمسة مداميك من الحجارة تتخللها ثلاثة مداميك من الطوب الأحمر وعلى العموم فان ما تخلف من مبانى الحصن الأصلية توضح ما كان عليه فى قديم الزمن

ويشتمل حصن بابليون على ست كنائس منها ثلاث ذات أهمية دينية عظمى والأولى كنيسة القديس جورجيوس أو أبو سرجا وهى مزار أغلب القوم على اعتبار الاعتقاد السائد إن قبوها كان محط رحال العائلة المقدسة أثناء رحلتها فى ديار مصر . ومن المحقق أن القبو أقدم بقرون كثيرة من الكنيسة التى يحتويها فهو من مخلفات القرن العاشر والكنيسة تحتوى على مجموعة قيمة من السور المنقوشة بطابع الفن القبطى وأغلبها يمثل صور القديسين المحاربين وهناك مثال آخر للنقش المحفور فى بعض ارجاء كنيسة القديسة بربارا

وبجانب كنيستى أبوسرجا والقديسة بربارا تقوم الكنيسة الزاهرة الأخرى المسماة



جامع عمرو بن العاص من الداخل (٢١٢ هـ — ٨٢٧ م)   [تصوير لينرت ولاندروك]

بالمعلقة وهى ترتكز فوق برجى السور الرومانى وعلى بوابة ذات كورنيش كلاسيكى ونسر منقوش . وهذه الكنيسة أقدم كنائس الحصن وتمتاز عن بقية الكنائس بانعدام القباب التى تعلو الكنائس الأخرى وليس لها مكان للترتيل غير انه لها ممشى مزدوج من ناحيتها البحرية مغطى باللوحات الأبنوسية الرفيعة التى تنعكس عليها أضواء المصابيح فينبعث منها نور وردى لطيف ومنصة الخطابة تعد من القطع الفنية الجميلة التى أخرجها العصر القبطى فى مصر ويرتفع على خمسة عشر عاموداً عربيا مرتبة فى سبعة أزواج فى طليعتها عامود وللكنيسة المعلقة حديقتها المعلقة الغناء بنخيلها ذى القوام البديع

أمراء الفسطاط :

ومنذ تأسست الفسطاط إلى أن بني العسكر وليها تسعة وعشرون أميراً فى مدة مائة وثلاثة عشر سنة وسبعة أشهر أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجره النبوية وهو يوم فتح مصر كما ورد فى المقريزى وأول من وليها كان عمرو بن العاص وكان آخر أمرائها صالح بن على بن عبد الله بن عباس من قبل أمير المؤمنين أبى العباس عبد الله فاستقبل بولايته المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومائة هجرية ومن بعد صالح بن على سكن أمراء مصر العسكر وكان أول من سكنها أبا عون عبد الملك بن يزيد

ونذكر من بين الولاة قيس بن سعد والأشتر مالك بن الحارث وولى الأثنان من قبل سيدنا على رضى الله عنه ووليها للمرة الثانية عمرو بن العاص من قبل معاوية

حال الفسطاط المتغير :

ولم تدم الفسطاط عاصمة سامية بل مرت عليها أدوار كثيرة فبينما كانت فى زمن من الأزمان « ذات أسواق عظام ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومتنزهات خضرة » كما يصفها «ابن حوقل» نراها وقد تغيرت أحوالها وانقلبت محاسنها إلى أضدادها وفى ذلك يقول الرحالة بن سعيد المراكشى :

لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفى مكار يفوق الرياح لايعرف الرفق بمهمى استطار
أناديه مهلا فلا يرعوى إلى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقى رواق الثرى والحـ فيه ضياء النهار

وقدر ابن سعيد مسافة الطريق إذ ذاك بين القاهرة والفسطاط بنحو ميلين وقد قال فى مكان آخر :

« ولما أقبلت الفسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق مفض الى خراب معمور بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال الى أن سرت في أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق و . . . . إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع . . . . . ثم انصرفنا من هنالك إلى ساحل النيل فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ولامتسع المساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض الا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار الأرض والنيل ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرت على ذلك الساحل فانى أقول حقا والنيل هنالك ضيق لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل »

ووصف ابن حوقل ذلك المنظر فى شعره :

نزلنا من الفسطاط أحسن منزل ... بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة ... كسرب قطى أضحى يرف على ورد
وأصبح يطغى الموج فيه ويرتمى ... ويطغو حنانا وهو يلعب بالنرد
غدا ماؤه كالريق ممن أحبه ... فمدت عليه حلية من حلى الخد
وقد كان مثل الزهر من قبل مده ... فأصبح لما زاده المد كالورد

خاتمة الفسطاط :

وجاء الدور النهائى للفسطاط فحل بها الخراب وكان له سببان اولهما الشدة العظمى التى منيت بها البلاد فى عهد خلافة المستنصر بالله الفاطمى وثانيهما حريق مصر فى عهد وزارة شاور بن مجير السعدى

وسبب الشدة العظمى ارتفاع الأسعار بمصر فى سنة ست وأربعين وأربعمائة ونبع الغلاء وباء مكث سبع سنين ونقصير النيل مدة خمس سنوات متواليات فامتد الجوع إلى سنة ٤٦٤ هـ وكان معظمه سنة ٤٦٢ هـ ثم توالت القلاقل التى اقتضت الاسراف بالحبوب ووافق كل ذلك انصراف الحكومة بسياستها الداخلية عن الزراعة . كل هذه الأسباب جعلت الحنطة نادرة جدا فبلغ ثمن الأردب الواحد مائة دينار وشمل الخوف من فى

العسكر ووافق ذلك ثورة العبيد فانقطعت الطرقات براً وبحراً الا بالخفارة الكثيرة ولما استفحل أمر الجوع جاء المستنصر إلى والى القاهرة وأنذره مقسما برأسه أنه إذا كان لا يتخذ طريقة لتخفيف هذه النازلة قطع عنقه وكان الوالى عالما بمخابىء كثيرة من الحنطة ولكنه لم يكن يعلم مقرها فأخرج بعض المحكوم عليهم بالاعدام وألبسهم ملابس الأغنياء وأوقفهم فى رحبة عمومية وأمر بقطع رءوسهم بدعوى أنه لم ير سبيلا لتخفيف وطأة الجوع إلا بقتل الأغنياء فخاف الذين كانوا قد أخفوا الحنطة وفتحوا مخابئهم وفرقوا الزاد على الناس

وقيل إن أحد الرسل ذهب لمقابلة الخليفة فى مقره فرآه جالسا على حصر بال وليس عنده من الفراش غيره وقد أصبح لاحاشية عنده الا ثلاثة خدم نصف عراة

وأخيرا التجأ المستنصر إلى بدر الجمالى حاكم سوريا فكتب اليه سرا يستقدمه بجيش إلى مصر ليوليه عليها فقبل بدر مشترطا أن يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من أهل الشام

وبتسلم بدر لمقاليد الأمور فى مصر سعى جهده فى اسعاد المصريين لينسيهم ماقاسوه طويلا فنشط الزراعة وأباح الأرض للزارعين ثلاث سنين حتى تحسنت حال الفلاحين واغتنوا وسهل سبل التجارة وأمر بانشاء البنايات العظيمة فى القاهرة وشاد المساجد فى الأسكندرية وفى القاهرة وفى جزيرة الروضة وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية بعد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى بغداد

وبقدوم بدر الجمالى إلى مصر أعاد العمارة إلى مدينة القاهرة فكانت نتائج عمله زيادة خراب الفسطاط فانه أباح للعسكر بين والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ماشاء فى القاهرة وغيرها فعمرت المدينة وسكنها الناس وأخذ بعضهم فى نقل ما كان بالقطائع والعسكر من أنقاض المساكن حتى أنى على معظم ماهنالك وخرب مابين القاهرة ومصر من المساكن باستثناء بعض البساتين ولم يبق من العسكر شىء عامر سوى جبل يشكر الذى بنى عليه جامع ابن طولون ولايمكن الأخذ برأى المقريزى لما أكد أن مدينة الفسطاط ظلت زاهية كما كانت عليه من قبل الشدة العظمى وقد استنتج المقريزى نفسه فى مكان آخر أن مساحة الفسطاط أصبحت وقتئذ أصغر مما كانت عليه من قبل

أما السبب الثانى وهو حريق الفسطاط الهائل فان الذى أمر باضرامه شاور وزير الخليفة الفاطمى العاضد فى التاسع والعشرين من صفر سنة ٥٦٥ هـ لما غزا القائد الصليبي

« آموری » مصر ونزل بلبيس وذلك خوفا من وقوعها فى أيدى الصليبيين

نادى «شاور» بأهل مصر أن لايقيم بها أحد فانتقلوا منها تاركين أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وقد هاج الناس واضطربوا و بلغ أجر الدابة من مصر إلى القاهرة بضعة عشر دينارا وكراء الجمل ثلاثين دينارا ونزلوا بالقاهرة فى المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات فانطرحوا عليها مع أولادهم وقد سلبوا بقية أموالهم وهم ينتظرون هجوم العدو على القاهرة ثم بعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار وفرق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فكان منظرا مهولا واستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر حتى أتمت أربعة وخمسين يوما . ولما انتهى الحريق رحل آمورى من بركة الحبش ونزل بظاهر القاهرة مما يلى باب البرقية وقاتل أهلها قتالا عنيفا

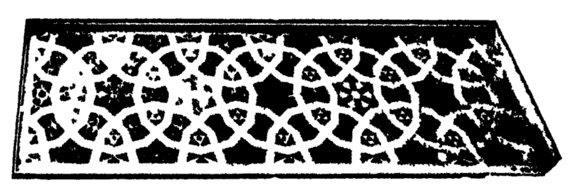
ولما خربت مصر الفسطاط وافتقر أهلها وتقلد شيركوه الحكم أمر باحضار أعيان المدينة الذين تخلوا عن ديارهم وأمرهم بالعودة اليها فشكوا اليه مابهم من الفقر والفاقة وخراب المنازل وقالوا إلى أى مكان نرجع وقد صارت كما ترى و بكوا وأبكوا فوعدهم خيراً وترفق بهم وأمر فنودى فى الناس بالرجوع إلى مصر فرجع الناس اليها قليلا قليلا وعمروا ماحول الجامع إلى أن كانت المحنة من الغلاء والوباء فى سلطنة الملك العادل أبى بكر ابن أيوب لسنتى خمس وست وخمسمائة فخرب من مصر جانب كبير ولما جاء صلاح الدين الى مصر صمم على أن يجمع بين القاهرة وما بقى من الفسطاط بسور واحد ومن ثم انتقلت حركة التجارة والصناعة إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو المراكب وتكثر المخازن والمصانع التي حفظت للفسطاط بعض عمارها إلى درجة ما . قال ابن سعيد (سنة ٦١٠ — ٦٧٣ ﻫ = ١٢١٣ — ١٢٧٤ م) : «وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة و بنى جماعة منهم على سورها مناظر تبهج الناظر »

كما أنه فى أيام الناصر قلاوون امتدت المبانى الجديدة بين الفسطاط والقاهرة حتى غدت المدينتان مدينة واحدة . قال المقريزى « وفى أيام الناصر اتصلت عمائر مصر والقاهرة فصارتا بلدا واحدا يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والرباع والقياسر والأسواق والفنادق والخانات »

وقد ترك لنا ابن دقماق والمقريزى والقلقشندى معلومات دقيقة عن مدينة الفسطاط فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر المسيحى) كلها تتفق فى ان تدهور

المدينة إنما كان يزداد قرنا بعد قرن وفى الجملة الآتية لخص القلقشندى المحن التي نزلت بالفسطاط . قال « ولم يزل الفسطاط زاهي البنيان نامي السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية وعمرت القاهرة فتقهقر حاله وتناقص وأخذ الناس فى الانتقال إلى القاهرة وماحولها فخلا من أكثر سكانه وتتابع الخراب فى بنيانه إلى أن بلغ الفرنج على أطراف الديار المصرية فى أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين »

وقال فى مكان آخر « و بعد حريق شاور تزايد الخراب فيه ولم يزل الأمر على ذلك فى تقهقر أمره إلى أن كانت دولة الظاهر بيبرس أحد ملوك الترك بالديار المصرية فصرف الناس همتهم إلى هدم ماخلا من أخطاطه والبناء بنقضه بساحل النيل وماجاوره الى مايلى الجامع العتيق وماداني ذلك ودثرت أكثر الخطط القديمة وعفى رسمها واضمحل مابقى منها وتغيرت معالمه » وعلى هذه الحال تحولت العاصمة الاسلامية الأولى الى أكوام من التراب وتلال من القاذورات وظـل تاريخ تلك الحقبة من الزمان مجهولا حتى كشف العالم الأثرى الجليل المرحوم على بك بهجت فيما بين سنة ١٩١٢ وسنة ١٩١٣ جزءا عظيما من هذه المدينة البائدة مما شرحه فى مؤلفه الثمين (حفريات الفسطاط) فظهر ماخفى عنا من خطط الفسطاط وهندسـة دورها ومميزاتها وصناعاتها ونظام توزيع مياهها . . . الخ . و بعمله العظيم هـذا أخرج لعلماء الحفريات والتاريخ ماظل غامضا عصوراً طويلة



نموذج لصناعة أرضية بجامع الأشرف بارسباى (٨٢٦ هـ)   نقلا عن مجموعة لجنة الآثار العربية

عسكر بنى العباس

عرض سريع

كثر منازعو مروان بن محمد الأموى على الخلافة وكان فى مقدمة منازعيه أبو العباس الهاشمى أول خلفاء الدولة العباسية . فطارد نفوذه فى كل الولايات العربية فى خراسان والعراق والكوفة وحمص والشام فلما رأى كل البلدان مجمعة على عصيانه لجأ إلى مصر لأنها كانت لا تزال على بيعته بينما أقيمت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية فى دمشق جاء مروان إلى مصر فأرسل عبد الله عم أبى العباس أخاه صالح بن على بن عبد الله ابن عباس وأبا عون عبد الملك بن يزيد ليقتفيا أثر مروان وأمرهما بالقبض عليه

ونحن الآن فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة هـ (سنة ٧٥٠ م) .... يرفع الستار عن مدينة الفسطاط لتمثل دورا هاما فى الكفاح كعاصمة لمصر العربيــة . فان مروان هذا آخر خلفاء بنى أمية بعـد فراره إلى مصر واشعاله النار فى الفسطاط وفى القنطرة التى تصلها بجزيرة الروضة فرّ الى ضفة النيل الغربية . ولـكن ذهبت احتياطاته عبثا لأن القائد العباسى ورجال خراسان عثروا بسرعة على وسائل العبور حتى أدركوه فى قرية بوصير من أعمــال الجيزة فقتلوه فى ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ وسنه سبعون سنة وحملوا رأسه وطافوا بها المدن لـكى يرى الناس أن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموى إلى البيت العباسى ثم أخذوا رأسه إلى أبى العباس السفاح

عسكر بنى العباس

وكأن رجال العباسيين العابثين (١٣٣ هـ — ٧٥٠ م) لم يرضوا أن يسكنوا بيوت الفسطاط بعد أن لعبت أيدى النهب والفتك بساكنيها وأرادوا أن ينشئوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم الناشئة فى مصر كما ترك الخليفة عاصمة الأمويين فى دمشق وجعــل عاصمته الجديدة فى بغداد . فصدر الأمر إلى الوالى الجديد بالتخلى عن دار الامارة بالفسطاط . وشرع صالح بن على وأبو عون ببنيان الحاضرة الجديدة وكانت بالنسبة إلى

الفسطاط أشبه بفرساى بالنسبة إلى باريس . أقامها حيث نصب معسكره إلى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط فى مكان عرف فى صدر الاسلام باسم الحمراء القصوى وقد نزلت فيه ثلاث قبائل من العرب عقب الفتح الاسلامى وهى بنو الأزرق و بنو رو بيل و بنو يشكر بن جزيلة ثم دثرت خطط هذه القبائل بعد العمارة وصارت صحراء وأصبح مكانها قفرا . فى ذلك المكان الذى ملأ فضاؤه جنود أبى عون وصالح بن على بنيت العاصمة الجديدة وكانت تمتد من الفسطاط إلى جبل يشكر وهو الذى بنى عليه جامع ابن طولون وكان ذلك فى عام ثلاث وثلاثين ومائة

وقيل إن أصل العسكر (المعسكر) كما جاء فى تاريخ ابن عبد الحكم وكان يمتد على ضفة النيل والنيل وقتئذ أقرب إلى الشرق من موضعه الحالى لأنه كان يجرى بجانب المرتفع الذى عليه جامع عمرو بن العاص ثم ابتعد عنه على توالى الزمان نحو خمسمائة متر

وكان العسكر يحده جنوبا كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر المجرى (العيون) وشمالا شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبى وغربا بين شارع السد والديوره وشرقا خط مفروض يمتد من مصطبة فرعون بجوار مسجد الجاولى بشارع مراسينا إلى باب السيدة نفيسة المعروف قديما بباب المخدم

فى ذلك المكان أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم و بنى صالح بن على دار الامارة وثكنات الجنود فى وسط هذه العاصمة ثم بنى مسجد العساكر الفضل بن صالح ابن على بن عبد الله كما جاء فى المقريزى وعملت الشرطة وقيل لها الشرطة العليا و بكثرة تشييد العمارات اتصلت العسكر بالفسطاط بعد زمن قصير وأصبحت مدينة كبيرة فيها الشوارع والمساجد والدور والبساتين والأسواق . وفيه أيضا بنى الأمير أحمد بن طولون بيمارستانه الذى كان بالقرب من بركة قارون وقد صارت كيمانا و بعضها بركة وهى التى بنى عليها كافور الاخشيدى دارا صرف عليها مائة ألف دينار وسكنها

وقد قال أحد الشعراء عن ذلك البيمارستان :

ولا تنس مارستانه واتساعه ... وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
ومافيه من قوامه وكفاته ... ورفقتهم بالمعتفين ذوى الفقر

وأزهر العسكر بكثرة ماشيد فيه من الأحياء العامرة وسكنها الخمسة وستون واليا الذين حكموا مصر بالنيابة عن الخلفاء العباسيين لمدة ١١٨ سنة . وقال الناس من يومئذ

كنا بالعسكر وخرجنا إلى العسكر وركبت من العسكر ومن بين هؤلاء الولاة حاتم بن هرثمة وقد تولى شئون مصر سنة أربع وتسعين ومائة عن الخليفة الأمين محمد وابتنى بها القبة المعروفة بقبة الهواء وفى المكان الذى شيد عليه صلاح الدين قلعته العظيمة وتحت هذه القبة كان يلجأ الأمراء للترويح عن نفوسهم وبالاجمال صار العسكر حياً زاهراً بالموظفين والقضاة وان لم يقلل من شأن الفسطاط كمقر هام للتجارة أو كعاصمة نامية لمصر

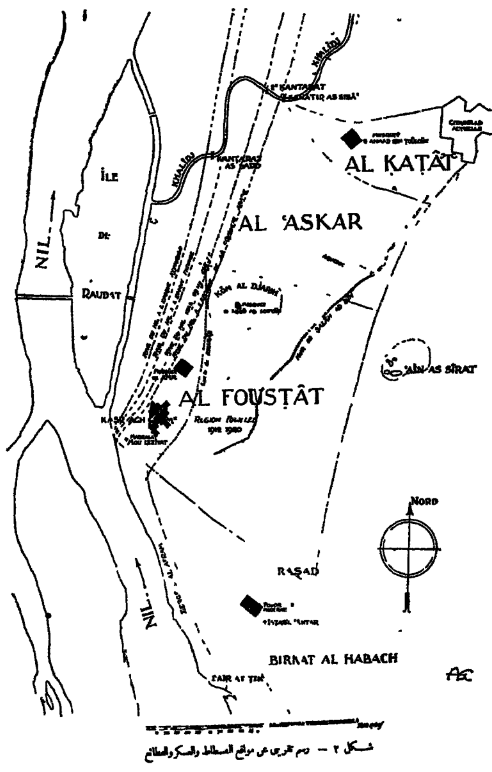
وبتوالى السنين عظمت العمارة فى العسكر إلى أن قدم أحمد بن طولون من العراق إلى مصر فنزل بدار الامارة من العسكر وكان لها باب إلى جامع العسكر ينزلها الأمراء منذ بناها صالح بن على ومازال أحمد بن طولون فيها الى أن بنى القصر والميدان بالقطائع فتحول عن العسكر وسكن قصره بالقطائع فلما ولي أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بعد أبيه جعل دار الامارة ديوان الخراج ثم فرقت حجراً حجراً بعد دخول محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر وزوال الدولة الطولونية فسكن محمد بن سليمان بدار الامارة فى العسكر عند المصلى القديم

وليس هناك اليوم أثر صغير لهذه الضاحية ولم يحتفظ المؤرخون بتاريخ واف عن حكامها . فقد ساد عصرهم نوع من سوء الادارة وفساد الحكم ولقوا صعابا كثيرة عرقلت أعمالهم أشد مما عاناه ولاة بنى أمية فى مصر وكان لزاما عليهم أن يخمدوا الفتن التى أثارها الخارجون عن الاسلام أصحاب بعض المذاهب أو يقاوموا الثورات التى شبت بين القبائل العربية أو سكان البلاد الأصليين وهم القبط وشاهدت الفسطاط الكثير من مناظر العسف والتعذيب إذا كان منظر الرءوس المفصولة من أجساد أصحابها الزعماء من المشاهد العادية كل يوم

وكان الكثير منها يعلق على جدران جامع عمرو . وتاريخ قرن كامل يبدأ من عام سبعمائة وخمسين إلى عام ثمانمائة وستين يمكن أن يصفه المؤرخ فى سطر صغير أنه شغب ومؤامرات وثورات وعقائد فاسدة وهرطقة وضلال دينى وخروج عن قواعده الأصلية ومع قيام تلك الفتن الداخلية لم تعرقل رفاهية العاصمة وكثيراً ماأدى هوى الحكام ونزق بعضهم إلى تعكير صفو أهالى البلاد

ففى سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) ولى الامارة أبو صالح يحيى بن داود بن ممدود وكان رجلا متمسكا بالتقاليد الرسمية والمحافظة على قوانين البلاد فأظهر نشاطا عظيما وهمة تذكر له فى القضاء على اللصوصية فى أنحاء المدن كما اهتم بتوفير أسباب السعادة والأمن والضرب على حوادث السرقة . وكان من أشد الناس وأعظمهم هيبة وأشدهم عقوبة فمنع اغلاق الدروب بالليل وغلق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب ومنع

حراس الحمامات من أن يجلسوا فيها وقال «من ضاع له شيء فعليّ أداؤه» وكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه و يقول « ياأباصالح أحرسها » وكانت الأمور على هذه الحال مدة ولايته ولكن تدخله فى تقاليد الملابس وارغام الناس على الأخذ بها جعلهم يتحولون عنه وانقلبت شدته شراً عليه



شــكل ٢ — رسم تقريبي عن مواقع الفسطاط والعسكر والقطائع

ونحكى حكاية عن الخليفة المشهور هارون الرشيد يتضح لنا منها كيف كانت علاقته بولاة البلاد وكان أحد حكام عصره على مصر موسى بن مصعب بن الربيع اشتهر بشدته على

الناس فى استخراج الخراج وكان محنكا مسالما للأقباط فسمح لهم باعادة بناء كنائسهم المخربة . ولما بلغ الخليفة أنه يدبر ضده قال فى مجلسه «والله لأعزلنه ولأولين مكانه أحقر مخلوق فى بلاطى» . وفى تلك اللحظة قدم عسامة بن عمرو راكبا بغلة فسأله جعفر البرمكى «هل تكون والى مصر؟ فأجابه هذا «نعم» . وفى الحال نفذ الأمر وركب عمرو وابنه إلى الفسطاط وخلفه عبده يتبعه يحمل متاعه . فلما وصل الى الفسطاط دخل دار الامارة فى العسكر وأخذ مكانه فى الصف الخلفى بين الجالسين . ولما كان مجهولا عن موسى بن مصعب سأله «من تكون أنت» فأخرج عسامة أمر الخليفة بتعيينه فتناوله وقرأه وقال «لعن الله فرعون الذى قال ألم أك ملك مصر» وسلم أعمال الحكومة إلى مخلوق ضعيف وكان ذلك فى سنة ثمان وستين ومائة

ومن جهة أخرى فقد ولى أمور مصر نفر من الولاة الأكفاء يذكر فى طليعتهم عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب وكان حاكم خراسان فى شمال فارس (حيث أسس فيما بعد أسرة) وكان قد أرسله خليفة بغداد لكي يطرد طائفة من مغاربة الأندلس نزلوا بالاسكندرية من مراكبهم وعليهم رجل كنيته أبو حفص فتوجه إليهم وقاتلهم حتى أجلاهم عن الاسكندرية . وقد اضطر عبد الله فى أثناء هذه المهمة لمقاتلة الوالى السابق عبيد الله بن السرى فأذعن هذا له فى النهاية وكانت الفسطاط قد حصرت سنة (٨٢٦ م) وحدث فى احدى ليالى الحصار أن وصل إلى معسكر عبدالله ألف عبد وألف محظية فى يد كل منهم كيس بألف دينار . فرفض عبدالله أن يتسلم تلك الرشوة «وفضل أن تموت تلك الحامية جوعا» ولسوء حظ مصر أن دعاه المأمون إلى العودة إلى فارس بعد تأدية مهمته فى مصر ففقدت البلاد مثلا نادراً للولاة الذين اشتهروا بالعدل والانصاف والعلم وكان يقرب له الشعراء والأدباء

قال أبو بكر الخطيب «دخل عوف بن محلم على عبدالله بن طاهر فسلم . فرد عبدالله عليه وفى أذن عوف ثقل . فأنشد عوف المذكور :

يابن الذى دان له المشرقان   طرا وقد دان له المغربان

ان الثمانين وبلغتها   قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ثم ولى الحكم من بعده طائفة من الولاة ظلموا الناس وزادوا الخراج عليهم فثاروا عليهم قبائل قبائل ونذكر منها قبائل أهل الحوف وقام قبط مصر لما حل بهم من عسف . ومن أشهر حوادث تلك الفترة قدوم أمير المؤمنين عبد الله المأمون لعشر خلون

من المحرم سنة سبع عشر ومائتين (٨٣٢ م) وكان الوالى إذ ذاك عيسى بن منصور ابن موسى . وكان سبب قدوم الخليفة إلى مصر أنه كان عائدا من محاربة الروم فرأى أن يمر بمصر لمراقبة شئونها وكان قلقا عليها لما بلغه من تمرد أهلها فدخلها وجعل يمر بقراها متفقدا أحوالها ويقال إنه كان يبنى له فى كل قريه دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر حوله.. وكان يقيم فى القرية يوما وليلة . وبلغ الفسطاط فى ذلك التاريخ وما زال يتحرى أصول الفساد إلى أن برح مصر لثمان عشرة خلت من صفر من سنة ٢١٧ﻫ قاصدا دمشق بعد أن أقام بمصر وأعمالها مثل سخا وحلوان وغيرهما تسعة وأربعين يوما

وكان المأمون إذ ذاك قد سخط على عيسى بن منصور فحل لواءه وعزله وسب له كل ماوقع بمصر ثم جهز العساكر لقتال أهل الفساد وأحضر بين يديه عبدوس الفهرى فضربت عنقه لأنه كان أيضا ممن تغلب على مصر ثم سار عسكره لقتال أهل الغربية والحوف وأوقع بهم وسبوا القبط وقفل مقاتلتهم ووضع حدا نهائيا لعنتهم وولى على مصر (كيدر) وعلى الشرطة أحمد بن بسطام الأزدى من أهل بخارا وكان قد أصدر أمره بترميم مقياس النيل الذى بناه أسامة فى الروضة وأعاد بناء جسر الجزيرة تجاه الفسطاط

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يفد فيها الخليفة العباسى على وادى النيل وقد قال الشعراء وأطنبوا فى وصف زيارته مما تحفظه دواوين الشعر والأدب

ولا نحتاج إلى الافاضة فى الكلام عن هذه الفترة من حكم العرب فى الفسطاط أو العسكر فان الولاة لم يتركوا أثرا لهم نستدل منه على أعمال الاصلاح التى عملوها وليس أمامنا الآن نموذج واحد من مبانيهم لكي نعجب بالفن العربى فى ذلك العصر

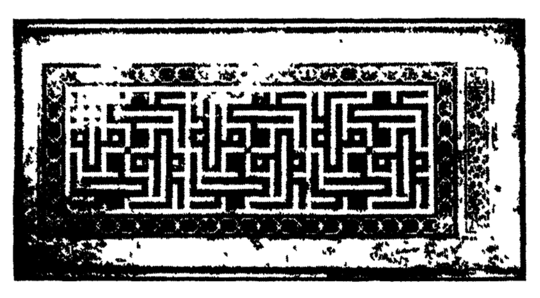
واذا فرض أن أحدهم قد بنى فيها فنصيبه منا الفتور إن لم يكن الاهمال لأن بناءه يكون خاليا من مسحة الفن العربى الجميل . فاذا تركنا الأندلس والهند والبوسفور وبطرنا إلى مصر نجدها خالية من كل أثر جميل يهز المشاعر الفنية حتى عام ٢٤٢ ﻫ (٨٥٦م) باستثناء جامع عمرو وبابتداء السنة المذكورة برى وادى النيل وقد ولى أموره الحكام الأتراك فنبحث عن أثر نعتز به فلا نجده حتى يمر عشرون عاما على قدوم أول حاكم تركى هو أحمد بن طولون . فنشاهد أمامنا مسجده الخالد العظيم (٢٦٣ — ٢٦٥ ﻫ) وهو أول الآثار المشهورة التى خلدت الفن العربى فى مصر

واذا بدأت الحديث عن وصول الترك الى عرش مصر خرجت مضطرا عن حديث تاريخ القاهرة وقد بدأت أهمية العسكر تقل تدريجيا منذ مابنى أحمد بن طولون ضاحية

القطائع فصار يذكر اسم الفسطاط والقطائع وترك اسم العسكر فأصبحت هذه المدينة الضاحية كان لم تبن بالأمس . وان كان قد شيد فيها أحمد بن طولون مارستانا ما عظيما كما ذكرنا . وظل أمراء مصر يقيمون فى دار الأمارة فى العسكر حتى بنى جوهر الصقلى قائد جيوش المعز مدينة القاهرة وتخرب العسكر فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى على أثر المجاعة التى حدثت فى ذلك الحين ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى فى آخر الشدة العظمى وشرع يعمر إقليم مصر أخذ الناس فى نقل ما كان بالقطائع و ما لعسكر من أنقاض المبانى حتى أتى على معظم ما فيهما وصار مكانها تين الصاحيتين موحشا مقفرا ولم يبق إلى الآن من العسكر سوى جبل يشكر الذى بنى عليه جامع ابن طولون

وتناول المقريزى وصف ما آلت اليه العسكر بعد أن بادت وذكر ما كان هناك من الدور والمنازل والمساجد والأسواق والحمامات والبساتين والبركة العجيبة والمارستان العجيب فقال :

وبادوا فلا مخبر عنهم ... وماتوا جميعا وهذا الخبر
فمن كان ذا خبرة فليكن ... فطينا ففى من مضى معتبر
وكان لهم أثر صالح ... فأين هم ثم أين الأثر ؟



وزرة قبة قلاون وبها لفظة محمد مكرر

قطائع ابن طولون

يامنزلا لبنى طولون قد دثرا سقاك صوب الغوادى القطر والمطرا
يامنزلا صرت أجفوه وأهجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحبتنا أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا ؟

نحن الآن فى خاتمة أيام الدولة العباسية وقد ترك خلفاؤهم حكم البلاد ومعالجة سياستها لوزراء وقواد أجانب حلوا محل الوزراء والقواد العرب . وقد كانوا من أجناس مختلفة قذفت بهم تجارة الرقيق إلى بغداد فنشأوا فى قصور الخلفاء والأمراء نشأة عربية ولكن نفسياتهم وعواطفهم ظلت أجنبية عن نفسية أهل البلاد وعواطفهم وكانوا حاقدين على العرب لعلمهم أنهم سبب بلائهم فيما أصابهم من رق واستعباد وزوال ملك فعملوا على ارهاق العرب وابعادهم عن حكم البلاد باحلال أبناء جنسهم القادمين يوميا مع قوافل الرق . وبدأوا يسعون للتقليل من نفوذ الخليفة شيئا فشيئا حتى أتى يوم كانت أوامر الخليفة تكاد لاتتعدى باب قصره

[مأذنة مسجد ابن طولون]

تلك كانت حالة الدولة العباسية لما بدأ نجم البدر الكامل أحمد بن طولون يظهر فى الأفق

ننتقل بعد ذلك إلى سنة ٢٥٤ هجرية لما عين الخليفة المعتز بن المتوكل «باكباك» أحد كبار الأتراك ليكون نائبا على مصر وكان هؤلاء النواب يتولون الامارات العربية اسما بلارسم لأنهم كانوا لايبرحون بلاط الخليفة . أما الأحكام فى الامارات فكانت موكولة إلى نواب بالنيابة عنهم وكان عدد هؤلاء النواب فى مصر يكثر أحيانا فقد يكون منهم نائب فى الفسطاط وآخر فى الاسكندرية وآخر فى الصعيد الخ . وكان يستأثر أحدهم بالأعمال العسكرية والثانى بالأعمال الادارية وآخر بالقضاء وهكذا . ونظرا لما كان لأحمد بن طولون من السمعة الحسنة انتخبه باكباك المتقدم ذكره وجعله قائدا للقوة العسكرية فى الفسطاط أما الادارة المالية فعهد بها إلى « أحمد بن الدبر »

وقدم أحمد بن طولون الفسطاط وعمره لايتجاوز الثلاثة والثلاثين ربيعا لتسلم زمام القوة العسكرية وسرعان ماظهر نبوغه فى الشؤون الادارية والحربية وتجلى نشاطه وعم عدله بين الجميع وكان متصفا بقوة أخلاقه وتفوقه فى اختيار مساعديه وباختصار كان أحمد بن طولون عادلا قويا نزيها وكريما . وكان يقول « أعط لكل من يمد يده لك » وكان يخصص ألف دينار شهريا للاحسان . أتى إلى مصر معوزا يحمل سلفة من أحد أصدقائه ولما مات ترك عشرة ملايين من الدنانير فى الخزينة وعبيدا وخيلا وسفن حربية . اتبع سياسة الاقتصاد فى البلاد بدون أن يزيد الضرائب الشديدة على الأهالى وللمرة الأولى فى تاريخ مصر منذ الفتح العربى أصبحت مصر دولة قوية مستقلة

وكانت نفسية أحمد بن طولون كبيرة طامحة إلى المجد فعمل على استخلاص ملك مصر لنفسه من أول يوم وطأت فيه قدماه أرض مصر واستأثر بالحكم بأن أبعد أحمد بن المدبر أمير المال عن منصبه ولم يمض زمن طويل على قدومه إلى مصر حتى نال غايته لما أرسل الخليفة المعتمد بن المتوكل يستحثه فى جمع الخراج فأجابه « لست أطيق ذلك والخراج فى يد غيرى » فأحيل الخراج اليه وأصبحت جميع أعمال مصر الادارية والعسكرية بيده وعزل ابن المدبر الذى خرج لسوريا

وتغلب أحمد بن طولون على مثيرى الفتن فى البلاد وأخضع ثلاث ثورات شبت فى أنحاء مصر ثم سار الى الشام واحتل كل أجزائها ووصل بجيوشه الى طرسوس والفرات وحارب جنود الخليفة والرومان ووحد تحت سلطته امبراطورية مترامية الأطراف تمتد من برقة فى صحراء ليبيا إلى حدود الامبراطورية الرومانية فى آسيا الصغرى ومن نهر الفرات إلى شلالات النيل الأولى

وسار أحمد بن طولون فى تنفيذ سياسته الداخلية بنفس الخطوات التى اتبعها فى تنفيذ سياسته الخارجية وهى سياسة الاصلاح والانشاء والعمران

نعود إلى وصول ابن طولون إلى الفسطاط من العراق فنقول أنه شرع فى بناء الاستحكامات وتحصين البلاد وكان إلى ذلك الوقت يسكن القصر الذى كان يشغله أسلافه من ولاة الأحكام ولم يكن هذا القصر داخل سور الفسطاط بل كان فى ضاحية العسكر . وكان العسكر أشبه بمدينة فيها الأسواق والشوارع والبنايات الجميلة وكان كافيا لسكنى رؤساء الجيوش وولاة الأمور أما فى أيام ابن طولون فلم يسع مهماته وعبيده وتحفه فأخذ يبحث عن محل آخر يفى بالمقصود مع قربه من الفسطاط فصعد إلى المقطم ونظر إلى ماحوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الأرض مساحتها نحو ميل مربع لاشيء

فيها من العمارة الا بعض المدافن للمسيحيين واليهود فاختارها للبناء فأمر بحرث المدافن وهدمها واختط في موضعها مدينته الجديدة « القطائع »

وهنا ننقل ما كتبه العلامة المقريزى فى خططه :

« زالت آثار القطائع ولم يبق لها رسم يعرف وكان موضعها من قبة الهواء التى صار مكانها قلعة الجبل الى جامع ابن طولون وهذا أشبه أن يكون طول القطائع وأما عرضها فانه من أول الرميلة تحت القلعة الى الموضع الذى يعرف اليوم بالأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذى يقال له الآن زين العابدين وكانت مساحة القطائع ميلا فى ميل وقبة الهواء كانت فى سطح الجرف الذى عليه قلعة الجبل وتحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون وموضع هذا القصر الميدان السلطانى الآن الذى تحت القلعة وبالرميلة وكان موضع سوق الخيل والحمير والبغال والجمال بستانا ويجاورها الميدان الذى يعرف اليوم بالقبيبات . فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذى أنشأه أحمد بن طولون وبحذاء الجامع دار الامارة فى جهته القبلية ولها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير إلى جوار المحراب وهناك أيضا دار الحرم» . والقطائع عدة قطع يسكن فيها عبيد الأمير أحمد بن طولون وعساكره وغلمانه .

ويذكر الأمير جمال الدين أبى المحاسن يوسف أن القطائع كانت بمعنى الأطباق التى للمماليك السلطانية الآن وكانت كل قطيعة لطائفة تسمى بها . فكانت قطيعة تسمى قطيعة السودان وأخرى قطيعة الروم وثالثة قطيعة الفراشين ونحو ذلك . وكانت كل قطيعة مخصصة لسكن جماعة ممن ذكرنا وهي بمنزلة الحارات اليوم

وبعد أن اختط الأمير قصره وميدانه أمر أصحابه وغلمانه أن يختطوا لأنفسهم بيوتا . فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط التى بمصر القديمة . قال القضاعى : « وكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطيعة تعرف بهم ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم . وبنى القواد مواضع متفرقة وعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع وسميت أسواقها فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين وسوق العاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين »

ونعود إلى قصر ابن طولون الذى سمى كله الميدان وعمل له أبوابا لكل باب اسم وهى باب الميدان ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش وباب الصوالجة وباب الخاصة

ولاتدخل منه إلاخاصة ابن طولون وباب الجبل لأنه مما يلي جبل المقطم وباب الحرم ولا يدخل منه إلا خادم خصى أو سيدة وباب الدرمون لأنه كان يجلس عنده حاجب أسود عظيم الخلقة وباب دعناج لأنه كان يجلس عنده حاجب يقال له دعناج وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج وباب الصلاة لأنه كان فى الشارع الأعظم ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون وعرف هذا الباب أيضا باب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من جبس وكان الطريق الذى يخرج منه ابن طولون وهو الذى يعرج منه على القصر طريقا واسعا فقطعه بحائط أنشأ فيه ثلاثة أبواب كأكبر مايكون من الأبواب كأقواس النصر وكانت متصلة بعضها ببعض واحدا بجانب الآخر وكان ابن طولون إذا ركب يخرج معه جيشه بشكل متكاثف على ترتيب حسن ثم يخرج ابن طولون من الباب الأوسط بمفرده من غير أن يختلط به أحد من الناس وكانت الأبواب المذكورة تفتح كلها فى يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة وماعداها لاتفتح إلا بترتيب ونظام خاصين فى أوقات معينة وكان للقصر نوافذ تشرف على الأبواب

ولما بنى هذا القصر والميدان وعظم أمره زادت صدقاته ورواتبه حتى بلغت صدقاته المرتبة فى الشهر ألفى دينار وهذا غير ما كان يزاد عليه وكان يقول : هذه صدقات الشكر على تجديد النعم . ثم جعل مطابخ للفقراء والمساكين فى كل يوم وكان يذبح فيها البقر والغنم ويفرق للناس فى القدور والفخار والقصع ولكل قصعة أوقدر أربعة أرغفة وكان فى الغالب يعمل سماط عظيم وينادى فى مصر : من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر . ويجلس هو بأعلى القصر ينظر إلى ذلك ويأمر بفتح جميع أبواب الميدان ينظرهم وهم يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته . وكان السلطان يستطيع أن يرى من قصره العظيم باب الفسطاط والنيل وكان مقره المحبوب

وكانت مياه القصر تستمد من عين طبيعية فى الصحراء القبلية بواسطة ساقية وقناطر خارج المغافر عرفت بقناطر ابن طولون أشرف على بنائها مهندس مسيحى ماهر ولاتزال آثارها باقية . واشتبه الناس فى بادىء الأمر فى مياهها وسرعان ما بلغ السلطان تلك الاشاعة فكلف العالم الطبيعى محمد بن عبد الحكم الوقوف على حقيقة هذه الاشاعة من عدمها وأخيرا أثبت نقاوتها وأن لاضرر مطلقا من استعمالها

ولاشك أن مدينة القطائع كانت أول مدينة بحق شيدت بوادى النيل فى العهد الاسلامى روعى فى تخطيطها القواعد المتبعة فى تشييد المدن التى كان رسمها يشبه مدينة رومانية لوجود الميدان فى وسطها ولاشغال ضلعى الميدان الشرقى والغربى بقصر الأمير

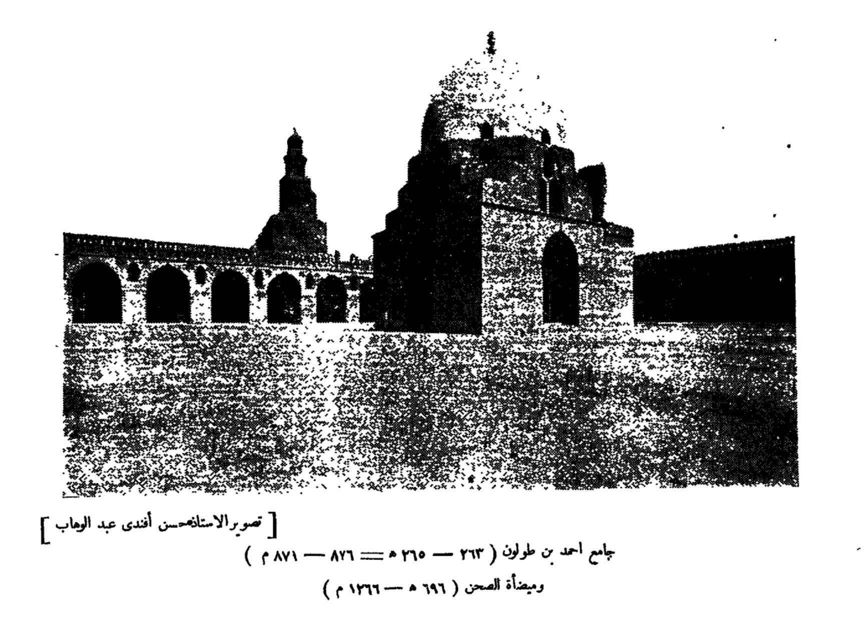
.والمسجد الجامع أما ضلعا الميدان البحرى والقبلى فكانا يتقاطعان مع شوارع ذات اتجاهات مستقيمة وعمودية عليهما وكانت هذه الشوارع تتقاطع بدورها بشوارع أخرى اتجاهاتها شرقية وغربية وعمودية عليها فى كلتى جهة الميدان البحرية والقبلية

وأول جامع شاده ابن طولون جامع التنور بناه على قمة جبل المقطم فى مكان كان يدعى تنور فرعون يقال إنه سمى كذلك لأنه على مرتفع فكانوا يضرمون فيه النار ليلا فظن بعض المشايخ أن فى ذلك المكان كنزا فأخذ يحفرون فيه فلم يظفروا بشىء فعلم ابن طولون بذلك فأمر بالحفر لحسابه فعثر على مال كثير وعند ذلك أمر ببناء الجامع هناك ودعاه جامع التنور

ولما كثر أتباع ابن طولون ورجال حاشيته وجنده حتى ضاق بهم جامع العسكر التمسوا أن يشيد لهم جامعا آخر أوسع من الأول فأجابهم إلى التماسهم على أن يشيد الجامع على جبل يشكر . وعقد أحمد النية على أن يجعل ذلك الجامع أعظم ما بنى من الجوامع حتى ذلك العهد وأن يشيده على ثلاثمائة عمود من الرخام فقيل له ان مثل هذا العدد لا يتيسر الحصول عليه وأنه إذا أصر على عزمه لا يترك للمسيحيين ما يقوم ببناء معابدهم . وكان بين مهندسي ذلك العصر المهندس المسيحى «ابن الكاتب الفرغانى» وكان من ذوى الاطلاع والمعرفة بفن الهندسة وفن البناء وقد أودع السجن لتهمة وجهت نحوه بغير الحق . فلما بلغه ما كان من عزم ابن طولون وتردده، كتب اليه من السجن أنه قادر على اتمام مشروعه وأنه لا يحتاج فى ذلك إلى أكثر من عمودين يجعلهما عمودى القبلة . فاستحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه وطلب اليه أن يشرح له ذلك فرسم الجامع على الكيفية التى كانت فى ذهنه فجاء كثير الشبه بجامع « سامرا » فاعجب ابن طولون وامر باطلاقه وخلع عليه وجعل تحت أمره مائة ألف دينار وقال له : «انفق وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك » . وأمر ابن طولون أن يكون بناء الجامع من القرميد والجير ونهى عن ادخال أية مادة كانت مما يقبل الاشتعال قائلا : «ورغبتى من ذلك أنه إذا طرأ على الفسطاط دمار بالماء أم بالنار فلا يكون على جامعى بأس فيبقى ولو دمرت جميعها »

وقد قيل إنه أنفق عليه مائة الف دينار وعشرين الف دينار أو حوالي ٦٣٠٠٠ جنيه وقال الصناع لأحمد بن طولون : « على أى مثال نعمل المنارة ؟ » وما كان يعبث قط فى مجلسه فأخذ درجا من الجلد وجعل يعبث به فخرج بعضه وبقى بعضه فى يده فعجب الحاضرون فقال : « إصنعوا المنارة على هذا المثال فصنعوها »

والجامع هو الأثر الوحيد الذى خلد اسم ابن طولون على ممر العصور حتى اليوم . وهو يعد فى مقدمة أجمل الآثار الاسلامية فى مصر ويعتبر علما ظاهرا فى تاريخ العمارة



[تصوير الاستاذ حسن أفندى عبد الوهاب]

جامع احمد بن طولون (٢٦٣ — ٢٦٥ ﻫ = ٨٧٦ — ٨٧١ م)

وميضأة الصحن (٦٩٦ ﻫ — ١٢٦٦ م)

ويمتاز بشيئين واضحين فقد بني من مواد جديدة ليست من الكنائس أو المعابد القديمة كما أنه أقدم مثل لاتخاذ العقود المحدبة فى المبانى

وقد احتفل بوضع أساسه عام ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) وانتهى بعد سنتين فى رمضان سنة ٢٦٥هـ (٧٧٨ م) فأذن ابن طولون بالصلاة فيه . وقد غالى ابن طولون فى زخرفته الداخلية فبيضه وعلق فيه القناديل الجميلة بسلاسل نحاسية طويلة ونقش على أفاريزه آيات من القرآن الكريم لا يزال معظمها ظاهرا الى اليوم وفرش الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ورتب له القراء والفقهاء

ولا يتسع فى هذا الكتاب وصف « الجامع الجديد » وصفا دقيقا ويمكن أن يرجع الباحث إلي كتاب أفرده الأستاذ محمود عكوش عليه ولمقالات الأستاذ المعمارى احمد أفندى يوسف أو لمؤلفات الأستاذ « الكبتن كريسويل » وغيرهم من المؤلفين عن الآثار الاسلامية

وأمر ابن طولون ببناء المستشفى (المارستان) فى العسكر وبلغت نفقاته ستين الف دينار . وكانت الفسطاط قبله مجردة من بناء مثله . وكان يأتى بنفسه لزيارته ونفقد سير العمل فيه وعيادة المرضى والمجاذيب واتفق ذات يوم أن أحد المجاذيب فى المستشفى هم بقتله ولولا القضاء لذهب بحياته

ومات أحمد بن طولون بعد حكم دام ست عشرة سنة قبل أن يصل الخمسين وكانت وفاته عام ٢٧٠ هجرية (مايو ٨٨٤م) فرثاه كثيرون من الشعراء ومن ذلك ما قاله أحد المصريين :

يا غرة الدنيا الذي أفعاله غرر بها كل الورى تتعلق
أنت الأمير على الشآم وثغره والرقتين وما حواه المشرق
واليك مصر وبرقة وحجازها كل اليك مع المدى يتشوق

وخلف ابن طولون ثلاثة وثلاثين ولدا منهم سبعة عشر ذكرا ولى العرش منهم خمارويه أحمد بن طولون الذى بويع فى يوم الأحد العاشر من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين وكان أول أوامره أن أصدر أمرا بقتل أخيه العباس الذى كان محبوسا لامتناعه عن مبايعة أخيه خمارويه هذا فقتل

وجاء خمارويه فلم يشأ أن يجعل مركز حكومته فى الفسطاط كما فعل أبوه فجعلها فى القطائع التى كان قد بناها أبوه مقرا لرجاله ثم أقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه محاسن كثيرة وأخذ الميدان المجاور للجامع الذى كان لأبيه وحوله إلى بستان وزرع

فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا دقيق الصنع وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فينحدر إلى فساقى ويفيض الماء منها إلى مجار تسقى سائر البستان وغرس فى أرض البستان من الريحان المزروع فى زى نقوش وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وجلب النخل إلى هذا البستان من خراسان وغيرها ثم بنى فى البستان برجا من الخشب الساج المنقوش بالنقر النافذ وطعّمه ليقوم هذا البرج مقام الأقفاص وبلّط أرضه وجعل فيه أنهارا لطافا يجرى فيها الماء المدبر من السواقى وسرّح فى البرج من أصناف الطيور ما تستحسن أصواتها وأطلقها بالبرج المذكور فكانت تشرب وتغتسل من تلك الأنهار وجعل فى البرج أوكاراً فى قواديس لطيفة ممكنة فى جوف الحيطان ليفرخ الطيور فيها ووضع لها فيه عيدانا ممكنة فى جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضها بالصياح وسرّح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحو ذلك شيئا كثيرا وأقام فيه مجلسا له سماه دار الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش وجعل فى حيطانه مقدار قامة ونصف صورا بارزة من خشب معمول على صورته وصور محظياته ومغنياته وعقد على رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة وحلّى آذانهن بالاقراط الثقال ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة فكان هذا القصر من أعجب ما بنى فى الدنيا

وأنشأ فى وسط هذا القصر فسقية ملأها زئبقا . وسبب ذلك أنه اشتكي إلى طبيبه الأرق وعدم النوم فأشار عليه بالتكبيس فأنف من ذلك وقال : «لا أقدر على وضع يد أحد على» . فقال له الطبيب : «تأمر بعمل بركة من زئبق» فعمل البركة المذكورة وطولها خمسون ذراعا فى خمسين ذراعا عرضاً وملأها من الزئبق فأنفق فى ذلك أموالا عظيمة وجعل فى أركان البركة سككا من فضة وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة وعمل فرشا من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزنانير الحرير التى فى حلق الفضة المقدم ذكرها وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه بينما يحرسه أسده الأزرق العينين « زريق »

وكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب اذا تألف نور القمر بنور الزئبق وبنى خمارويه فى القصر أيضا قبة تضاهى قبة الهواء سماها « الدكة » وجعل لها الستر الذى

يقى الحر والبرد فينسدل حيث شاء و يرفع متى أحب . وكان كثيرا ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره من البستان والصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة ثم بنى ميدانا آخر أكبر من ميدان أبيه . وفى جوسق آخر شيده أبوه كان يرتل القرآن رجال ذوو أصوات شجية ويؤذنون بالفجر وينشدون الأغانى الدينية البهيجة والحزينة تباعا بينما الأمير جالس إلى المائدة مع حريمه يحيط به الموسيقيون

و بنى أيضا فى داره المذكورة دارا للسباع وأنشأ فيها بيوتا تفتح من أعلاها بحركات لادخال الطعام وتنظيفها وقد أفرد المقريزى فى خططه عدة صفحات تناول فيها وصف تلك الحدائق الغناء التى جمع فيها خمارويه كل أصناف الحيوان من أسود ولبوات وفهود وزرافات وفيلة ونمورة . أما اسطبلاته فحدث عنها ولا حرج وقد بنى عدة منها تحتوى أنواع الجياد بأكلها وقال القضاعى : وكان عرض الخيل من عجائب الاسلام الأربع والأربع العجائب منها كان عرض الخيل بمصر ورمضان بمكة والعيد بطرسوس والجمعة ببغداد . ثم قال وقد ذهب اثنان من الأربع هما عرض الخيل بمصر والعيد بطرسوس . وكانت اسطبلاته منتشرة فى الجيزة ونهيا ووسيم وسفط وطهرمس . وكانت لها ضياع لا تزرع إلا القرطم لأجل الدواب

وكان مطبخه عنوانا للبذخ إذ كان يكلفه إثنى عشر ألف دينار كل شهر وكان الخدم يفضل لكل منهم مع كثرة عددهم الشىء الكثير من الدجاج ولحم الضأن والحلوى والقطع الكبار من الفالوذج والقطائف والهبرات . . . الخ

وقد زالت كل هذه المظاهر العظيمة التى أوجدها خمارويه ولم يبق من بعد موته بسنين قلائل سوى فضلات من بركة الزئبق ومما نذكره هنا أن الخليفة المعتضد تزوج من ابنة خمارويه قطر الندى . وكان جهازها مالم ير مثله ولم يسمع به وكان مهرها من عجائب المهور فمن جملته مائة هاون من الذهب وذكر آخر ألف هاون . و بنى لها أبوها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصراً فيما بين مصر و بغداد

وكأن زر بق وحرسه الأقوياء من شبان العرب لم ينقذوا خمارويه من اعتداء حاشيته وسيدات الحرم إذ قتل على فراشه عام ٢٨٢ هـ (٨٩٦ م) أثناء إقامته بدمشق بعد حكم دام اثنى عشرة سنة وثمانية عشر يوما وحملت جثته فى صندوق إلى مصر واحتفل بدفنها احتفالا عظيما

وبوفاته أخذت الدولة الطولونية فى الانحلال فلم تعش أسرته فى الحكم طويلا وقد خلفه

اثنان من أبنائه أولهما أبو العساكر جيش فلم يرض الجند عن توليته فخلعوه وسجنوه حتى مات . وولي بعده أبو موسى هارون وهو فى الرابعة عشرة من العمر فلم يكن يصلح للولاية وفى عهده خرج عليه القرامطة (سنة ۲۹۰ ﻫ) بالشام وكانت تابعة لمصر فعجز عن قمع ثورتهم وتلتها الولايات الشامية الأخرى فى الخروج على نفوذه . فتفرق عنه كثير من أصحابه وبقى فى نفر يسير وهو متشاغل باللهو حتى اتفق عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون على قتله فدخلا عليه وهو ثمل فقتلاه ليلة الأحد لاحدى عشرة بقيت من صفر سنة (۲۹۲ ﻫ)

ثم ولى « شيبان بن أحمد بن طولون » فرجع إلى الفسطاط وبلغ طغج وغيره من القواد قتل هارون فأنكروه . وهنا ظهر ضعف الطولونيين واضحا أمام العباسيين . فتجددت رغبتهم فى إعادة مصر إلى سلطانهم المطلق من جديد وساعد على ذلك التجاء نفر من القواد إلى محمد بن سليمان القائد العباسى للاستيلاء على البلاد . ووفاة الخليفة المعتضد زوج قطر الندى واعتلاء المكتفى عرش الخلافة العباسية . وكان محمد ابن سليمان قد بلغ حدود الديار المصرية وهزم الأسطول المصرى قبل تولية شيبان بقليل

وفى سنة ۲۹۲ ﻫ (۹۰٤ م) دخل محمد بن سليمان القطائع فألقى النار فيها ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا الحريم وذبح رجال الفرقة السوداء ودمرت مبانى الضاحية الجميلة . وأصبحت العسكر مرة ثانية مقر الحكومة بعد زوال القطائع وبيوتها التى قدرها بعض المؤرخين بمائة ألف بيت ثم جاءت مجاعة المستنصر فقضت على البقية الباقية من مخلفاتها الخربة

زالت الدولة الطولونية وكانت من غرر الدول وأيامها من محاسن الأيام وخرب الميدان والقصور التى مدحها الشعراء . قال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » : « رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى كان لأحمد بن طولون . قال : فاذا كان اسم الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة كم يكون شعرهم ؟ » ومما قيل فى وصف هذا الميدان :

قف وقفة بفناء باب الساج ... والقصر ذى الشرفات والأبراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم ... بعد الاقامة أيما ازعاج
كانوا مصابيحا لدى ظلم الدجى ... يسرى بها السارون فى الأدلاج

وقد أتى الخراب على الضاحيتين العسكر والقطائع عام ٤٦٣ ﻫ (۱۰۷۰ م) حتى اضطر الحال لبناء سور يبدأ من القصر الجديد فى القاهرة وينتهى عند الفسطاط أو بعبارة

أخري من باب زويلة تقريبا إلى جامع عمرو . وكان الغرض من بناء هذا السور أن يستر خلفه آكام الخرائب عند ما كان الخليفة يمر قاطعا هذه المسافة حتى لا يتأذى بمشاهدة مناظر الضاحيتين الخربتين . وكان الناس الذين يرغبون فى البناء يقصدون تلك الخرائب لأخذ مايلزمهم من مخلفاتها لاستعمالها فى شئون أخرى وتحولت المساحة الواسعة بين القاهرة والفسطاط تدريجاً إلى صحراء جرداء باستثناء بعض البساتين والحدائق القليلة المبعثرة أو البيوت الخلوية وعادت السطوة ثانية للفسطاط فزادت مبانيها وظلت الحال على ذلك حتى تأسست القاهرة

لقد بنى الناس منذ سنة ١١١٥ بعض المنازل خارج باب زويلة ولكن مع ذلك فقد بقى معظم منطقة الضاحيتين غير مشغول إلا بجامع ابن طولون





ديار مصر هى الدنيا وساكنها هم الأنام فقابلها بتقبيل
يا من يباهى ببغدادٍ ودجلتها مصر مقدمةٌ والشرح للنيل

[زين الدين عمر بن الوردى]

عادت مصر إلى حضن الخليفة العباسى وأصبحت إحدى ولاياته التى يشرف عليها أحد أمرائه وزال بيت آل طولون بعد استقلالهم بالبلاد مدة ليست قصيرة ولم يحفل الأمراء الجدد بالقطائع فتحولوا عنها وأقاموا فى العسكر. وسرعان مازال اسمها واندمج فى اسم الفسطاط أو مصر الفسطاط ومنذ ذلك الحين أطلق على مجموع المدن الثلاث الفسطاط والعسكر والقطائع اسم مصر أو الفسطاط

وفى أثناء ازدهار الضاحيتين العسكر والقطائع أو انحطاطهما كانت مصر العاصمة الحقيقية للبلاد تزهو وتنمو ويرتفع شأنها وكان تجمع الجند والقواد وكبار الموظفين فى الضاحيتين منعشا لها على قدر تأثيره فى الحط من الحركة التجارية فى المدينة. ومع ذلك فقد كان ذلك خيرا لهم من فتن الجنود السود وظلم الحكام الذين ظهرت أعمالهم السيئة فى الضاحيتين فتركت الأهالى أحرارا فى متاجرهم إلى حد ما وكان جزء كبير من الصادرات الهندية والعربية الذاهبة إلى أوروبا تمر بمصر وكانت سواحلها دائما مشحونة ببضائع البلاد الأجنبية المختلفة. ولاشك أن مصر وعاصمتها عانت كثيراً من وطأة الأزمة الاقتصادية مدة لا تقل عن ثلاثين سنة بعد زوال الحكم الطولونى. هذا إلى تعسف الطبقة العسكرية الجديدة وضعف الولاة الذين أوفدهم خليفة بغداد. كانت أياما عصيبة تلك التي مرت بمصر لما قام شاب من أتباع الطولونيين المصريين اسمه محمد بن على الخلنجى فأظهر النصرة لآل طولون وأعلن القيام بدولتهم وإخراج العباسيين من البلاد. فبايعه

فريق من المصريين وعضدوه على عصيانه ودارت بينه و بين الوالى عيسى النوشرى معارك عديدة انتهت بأن دخل الخلنجى مصر فى اليوم السادس والعشرين من ذى القعدة من عام ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) وهزم أمدادا جديداً لجيش خليفة بغداد . ولما دخلها طاف بها وقصد الجامع وصلى فيه يوم الجمعة ودعا له الامام على المنبر بعد الخليفة وابراهيم بن خمارويه ففرح به أهل مصر وانتصروا له واستمر أمره يستفحل فى أنحاء البلاد حتى أفسد أحوالها وعمت مظالمه . وانتهى أمره بانتصار عيسى النوشرى عليه فقبض عليه وأرسله إلى الخليفة الذى وبخه ونكل به . ثم قتله شر قتلة (٢٩٤ هـ — ٩٠٦ م) ويظهر أن تلك المصائب لم تكف مصر فقد أرسل خلفاء الفاطميين فى قيروان جيشا افريقيا اخترق البلاد المصرية وعسكرت جنوده أمام شاطىء النيل فى الجيزة حيث حفر جيش الخليفة خنادقهم تحت قيادة قائدهم « ذكا الرومى » . وانتهى القتال بانتصار المصريين وطرد الافريقيين عام ٩٢٠ م ومع هذا النصر لم تتحسن أحوال البلاد . واضطر الوالى التركى إلى الاحتفاظ بجنوده فى قصره لحمايته و بموته أهين ابنه على يد الجند المطالبين بالمتأخر من رواتبهم واختفى محمد بن الحسين المادرائى أمين الخزينة . وتنافس الحكام فيما بينهم وصار كل منهم يجمع جنده للسلب والنهب وغضبت الطبيعة فزلزلت أرضها وهدمت البيوت والقرى وسقطت النيازك والصواعق وكانت حياة كلها ذعرا و رعبا

والذين استطاعوا أن يخرجوا رابحين من ذلك العصر كانوا أمناء الخزائن فقد سيطروا بأموالهم على البلاد برمتها وتولى ثلاثة من أسرة المادرائى المذكور منصب أمين الخزينة وجباية الأموال والضرائب

وكان دخل المادرائى فى السنة لايقل عن ٢٠٠,٠٠٠ جنيه غير ريع ايجاراته وكان مع ثروته الطائلة سخى اليد كريما يوزع العطايا شهريا ما لايقل عن مائة ألف رطل من اللحم على الفقراء وأخلى سبيل آلاف العبيد وشمل هباته المؤسسات الدينية والخيرية . و باختصار كان المادرائى والقاضى الكبير ابن حربويه مثالين صالحين فى بيئة من الأوغاد الظالمين

وأخيرا تولى الحكم تركى هو أبو بكر محمد بن طغج أمير مصر من قبل الخليفة الراضى بالله الذى لقبه بالاخشيد (عام ٣٢٧ هـ) وكان ذلك لقب ملوك فرغانة وهو من سلالتهم وتعنى هذه اللفظة فى لغتهم ملك الملوك . ولئن كان الاخشيد لم يترك أثرا عظيما فى مصر كما خلف ابن طولون قبله الا أنه استطاع أن يعيد الأمن إلى نصابه فى مصر وصد المغيرين الافريقيين

واستعاد جامع عمرو (العتيق) أهميته الاولى وجلب له الاخشيد مجموعة كبيرة من السجاد الثمين والمصابيح الجميلة والعطور النفيسة وكان يحضر للصلاة فى موكب فخم فى الليلة الأخيرة من شهر رمضان مرتديا ثوبا أبيض يتبعه خمسمائة جندى يحملون الصوالجة والمشاعل . وفى صباح اليوم التالى أول أيام العيد الصغير كان يستعرض جيوشه على طريقة ابن طولون . وكان عدد رجال جيوشه لا يقل عن أربعمائة ألف يستغرقون اليوم كله فى العرض يتبعهم حرسه الخاص المكون من ثمانية آلاف من المماليك بملابسهم الزاهية الجميلة وأسلحتهم اللامعة . وقد قيل انه لما أرسل الخليفة إلى محمد الاخشيدى كسوة الشرف مع قلادتها وسوارها اكتظت الشوارع والأسواق بالأقمشة الثمينة والسجاجيد الفاخرة وكنت ترى أبواب المسجد العتيق مزدانة بالأقمشة الحريرية المشجرة بالذهب وشوهد الأمير نفسه قد ارتدى كسوة الخليفة المهداة اليه راكبا جواده فى طليعة الموكب الحافل برجال الدولة والعظماء يسير فى مقدمتهم إلى الصلاة

وقد كانت تلك الأيام أيام عز وسعادة لمصر ولأهلها الذين نسوا ماقاسوه وتحملوه من أنواع المظالم التى تحملوها قبل أيام الاخشيد . وبدأ الأدب العربى ينضر فى العاصمة على ضفاف النيل ولو أنه كان لا يجسر على منافسة سيادة الثقافة التى انتشرت على ضفاف الدجلة حيث كانت آثار الفرس قد انتجت دراساتها المتنوعة — تلك الدراسات التى استغرقت وقتا طويلا للوصول إلى مصر . وكان تعلم العربية لا يزال فى مهده أثناء عصر الاخشيد . والشعر وان لم يمت لكنه كان مقلدا خاليا من قوة الابتكار والتجديد — انما بدأت كتابة التاريخ كما درست بحوث العلم إلا ماتعلق بالفلك وبدأ العلماء يكتبون تاريخ سيدنا محمد واشتهر من المؤرخين فى عصر الاخشيد الطبرى والمسعودى اللذان عاصراه . وقد زار المسعودى مصر (عام ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م) وللأسف لم يصف مصر العاصمة كما شاهدها إنما اقتصر على وصف « ليلة الحمام » وهو العيد المسيحى الذى اتخذه المسلمون عيداً لهم أيضا وقد وصف لنا كيف كان ابتهاج أهل مصر وعلى أية صورة مرحوا وطربوا — وهو يقول : ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لاينام الناس فيها وهى ليلة احدى عشر من طوبة ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة « بالمختار » فى الجزيرة الراكبة على النيل . وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ماأسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو ألوف من الناس من المسلمين والنصارى منهم فى الزواربق ومنهم فى الدور الدانية من النيل

ومنهم على الشطوط والجميع متهالكون فى الفرح وقد تزينوا بأنواع الذهب والفضة والجواهر ومنهم من يعزف ويقصف ويغنى وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ولاتغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم فىالنيل ويزعمون أنفى ذلك أماناً من المرض ودرءاً للداء

وقد ذكر المسعودى أيضافى تاريخه «مروج الذهب» مقياس النيل فىجزيرةالروضة تحت اسم «جزيرة صناع السفن» وقد شيدالأول « أسامة » وجدد الثانى ابن طولون وقد شاهد أيضا القناطر التى كانت تصل مصر بالجزيرة وهذه بالجيزة على الشاطىء الغربى . وقابل لفيفا من تجار الاستانة فىمصر لكنه مع كل ماذكره فى تاريخه لم يصف لنا مصر . ومن « ابن سعيد » وآخرين نعلم أن الاخشيد بني ترسانة لصنع السفن فى مصر بدلا عن التى كانت فى جزيرةالروضة حيث أقام فيهامنزلا للنزهة وحديقة وأخذت مصر مكانة الروضة كما أخذت المقس فيما بعد منزلتها كميناء مهم . وبموت الاخشيد فقدت حدائق الروضة أهميتها ثم اندثرت حتى تولى الأيوبون العرش وأسسوا منشآتهم فيها

وبموت محمد الاخشيد تولى ابنه أبوالقسم محمد الملقب بأنوجور (٣٣٤ - ٣٤٩ ﻫ) ولصغر سنه عهد بتدبير الأحكام إلى « كافور » الخصى وزير أبيه وبعده أخوه أبوالحسن مدة خمس سنين وشهرين ويومين وكان كافورمعه كما كان مع أخيه أنوجور. وفى سنة ٣٥١ ﻫ لم يرتفع ماء النيل الارتفاع اللازم للرى وكان فى السنة التالية أقل ارتفاعا ثم هبطه بغتة ولم ترتو الأرض فحصل فىمصر جوع شديد تعاقب القحط بعده ٥ سنوات رافقه شقاق بين أبى الحسن وكافور

وبوفاة أبى الحسن عام ٣٥٥ﻫ خلفه كافور وتلقب بالاخشيد وطلب من الخليفة المطيع لله أن يثبته فىمصر ففعل وهكذا عادت سلطة العباسيين إلى مصر

وفىأيام حكم كافور أينعت الآداب مرة أخرى بفضل مجالس بلاطه الذى حاول أن يجمع فيه نخبة من أئمة الأدب والشعر والعلوم والنقد . وكان يستمع إلى أحدهم وهو يقرأ له ديوان شعر أوصفحة من تاريخ الخلفاء أو فصلا من الدين أو الحديث . أو يصغي إلىمناقشاتهم وجدلهم وقصائدهم . فكنت ترى العلامة الكندى صاحب فضائل مصر الذى اعتمد عليه المؤرخ المقريزى فى كتاباته والبحترى أستاذ النحو وابن العاصم والمتنبي آخر شعراء العرب الأقدمين الذى امتدحه ثم هجاه لما رأى قلة نصيبه مما يستحقه من الجزاء .

وكان كافورميالا إلى الموسيقى يبتهج عند سماع نغمها . سخى اليد يبعثر ذات اليمين وذات اليسار على متملقيه من أصدقائه الأدباء الذين أجزل إليهم العطاء وكانت مائدته مثال الكرم والأبهة . فقد قيل إن مرتب مطبخه اليومى كان لايقل عن مائة رأس من الضأن ومائة خروف صغير و ٢٥٠ أوزة وخمسمائة دجاجة وألف حمامة وطيور أخرى ومائة قدر من الحلوى ـ هذا بجانب ما كان يخص الخدم والاتباع من أصناف اللحوم وأنواع الطعام والحلوى

وخيم السلم على مصر وجميع أنحاء دولته التى امتدت إلى الحدود الشمالية من سوريا والحجاز ومدنه المقدسة بفضل رجاله السياسيين والعسكريين . فقد كانت الأحوال هادئة كل الهدوء بالرغم عما أصاب البلاد من جراء مصائب الزلازل وانخفاض النيل والقحط الشديد والنيران التى أهلكت فى مصر وحدها مالا يقل عن ١٧٠٠ منزلا فى عام ٩٤٥ م

لقد عرف الخصى الأسود كيف يسود مصر ويحكمها بجبروته ومات ولم يخلف نجيبا يرثه على العرش

كان ضعف حكومة الأمير الصغير « أبوا الفوارس أحمد » مؤديا إلى اضمحلال البلاد وممهدا لاستيلاء الفاطميين على بعض الأنحاء وأخيرا نزعوا القطر من أيدى الاخشيديين ودخلوا البلاد ظافرين فاتحين

وليس عندى وصف دقيق لمدينة مصر أثناء تلك الفترة الزاهرة . ولقد ترك لنا الرحالة ابن حوقل فيما بعد (٩٧٨م) وصفا مجملا لما كانت عليه المدينة إذ قدر مساحتها بثلث حجم مسافة بغداد . وقد ذكر أسواقها الجميلة وشوارعها الضيقة ومنازلها المشيدة بالطوب الأحمر التى تتألف من خمسة إلى سبعة طوابق وكان الواحد منها يسع مائتى ساكن وكذلك وصف شيئا من بساتينها ومنتزهاتها التى كانت تحيط بالمدينة . وفى وسطها كان جامع عمرو يعد من أعلام المدينة ولم يكن هناك بجانبه أو بالقرب منه أى مبان حكومية أو قصور لحكامها . وكان قصر كافور فى خارج المدينة ومن المحتمل أنه كان مشيدا فى وسط بساتين كافور على حافة بركة قارون بالقرب من جامع ابن طولون وقد كلفه مائة ألف دينار . لكن سرعان ما تخلى عنه بسبب كثرة الناموس الذى توالد فى المياه الراكدة ولا شك أن موقع العاصمة كان يختلف كل الاختلاف عن موقع القاهرة الحالى . فلم يكن النيل قد تحول فى تغيير مجراه نحو الغرب . ذلك التحول الذى نشأ عنه تكوين جزيرة بولاق أو الجزيرة وكان نهر النيل فى عصر الاخشيديين يمر تحت أسوار قلعة بابليون ويحيط بالعسكر ويلمس بعض النقط التى تعرف الآن بباب اللوق

وباب الحديد أما احياء مصر العتيقة وقصر العينى وقصر الدوبارة وبولاق فكانت تغمرها المياه وهي تحتها وكانت العاصمة تمتد على ضفاف النيل والى الداخل كان جامع ابن طولون يشرف على مياهه

ومن المراجع التى أخذ عنها المقريزى عند كتابة خططه المشهورة والتى هى مرجعنا الأساسى « كتاب ايقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل تأليف القاضى الرئيس تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج الزبيرى » رحمه الله . فقد ذكر من الأخطاط المشهورة لعهده اثنين وخمسين خطا ومن الحارات اثنى عشرة حارة ومن الأزقة المشهورة ستة وثمانين زقاقا ومن الأسواق المشهورة تسع عشرة سوقا ومن الشوارع ستة شوارع ومن الجوامع الكبيرة أربعة عشر جامعا ومن المساجد أربعمائة وثمانين مسجدا ومن المدارس سبع عشرة مدرسة ومن الحمامات بضعا وسبعين حماما ومن الكنائس والأديرة ثلاثين

وكانت مدينة مصر اذ ذاك محدودة بأربعة مواقع . حدها الشرقى يمتد من قلعة الجبل الى باب القرافة الى كوم الجارح حتى تنتهى الى الرصد حيث أول بركة الحبش وحدها الغربي من قناطر السباع خارج القاهرة الى موردة الحلفاء وتأخذ على شاطىء النيل الى دير الطين . وحدها القبلى من شاطىء النيل بدير الطين حيث ينتهى الحد الغربى الى بركة الحبش تحت الرصد حيث ينتهى الحد الشرقى . وحدها البحرى من قناطر السباع حيث ابتداء الحد الغربى الى قلعة الجبل حيث ابتداء الحد الشرقى . وما بين هذه الجهات الأربع أطلق عليه اسم مصر

وكان لمصر أبواب كثيرة أهمها باب الصفاء الذى كان فى الحقيقة باب مدينة مصر وهى فى كمالها ومنه كانت تخرج العساكر ويعبر القوافل وكان موضعه بالقرب من كوم الجارح وقد هدم فى أيام الملك الظاهر بيبرس . وباب الساحل وكان يؤدى الى ساحل النيل القديم موضعه بالقرب من الكبارة وباب القنطرة الذى كان فى قبلى مدينة مصر وقد عرف بقنطرة بنى وائل التى كانت هناك وهو من بناء قراقوش وكان بابا بمصراعين يعلوهما عقد كبير وهو يعتب كبير من الصوان

وان أحسن وصف كتب عن مدينة مصر فى عصرها الزاهر هو الذى كتبه « ناصرى خسرو » الرحالة الفارسى فى كتابه « سافرنامه » لما زار مصر عام ١٠٤٧ م بعد موت كافور الاخشيد بمائين سنه وهى مدة قصيرة غير محتمل أن يحدث فيها كثير من التغيير فى صميم المدينة ولم يذكر « ناصرى خسرو » فى وصفه « الفضائع » و يتضح لنا مما كتبه أن

هذه الضاحية كانت قد اتصلت نهائيا بفسطاط مصر ولم يكن هناك مايفصل بينهما ـ وقد شاهد فى موقعها كثيرا من المنازل الباقية التى لم تصل إليها يد التدمير بعد سقوط بيت آل طولون . وكان جامع ابن طولون فى أطراف المدينة كما هو الآن يحوطه سور مزدوج متين لم ير الرحالة مثله إلا فى عبيد والافريقين كما رأى مأذنته التي كانت مقامة فىذلك الحين وقد ذكر « ناصرى خسرو » أن الحاكم بأمر الله اشترى ذلك الجامع من ورثة ابن طولون بثلاثين ألف دينار ثم طالبوه بثمن المأذنة أو هدمها فدفع لهم خمسة آلاف أخرى . وذكر « ناصرىخسرو » أن الذى كان ينظر إلى القاهرةعن بعد كان يخيل اليه جبلا شاهقا فكان فيها من المنازل التى بلغ عدد طبقاتها أربعة عشرطابقا و بعضها سبعا ـ وقد سمع الرحالة من شخص يوثق بكلامه أنه كان فى مصر دار تتألف من سبع طوابق وفى أعلاها حديقة زاهرة للبرتقال والفواكه جلب إليها عجلا صغيرا وصار يتعهده حتى أصبح ثورا قويا استخدمه صاحبه لأدارة دواليب المياه التي احتاجها لرى بستانه العلوى وفى ذلك البستان غرس أشجار الفواكه الحلوة وغيرها من الزهور والنباتات العطرة المتعددة الأنواع ـ وقد أخبره أحد التجار بوجود عدد كبيرمن الغرف الخالية المعدة للاستئجار وكان يوجد عدد كبير من الأسواق والطرقات مضاءةبالمصابيح ليل نهار لأن أكثرها كانمغطى بأسقف تحجب نورالشمس عنهفى النهار

وكانت بمصر إذ ذاك سبعة جوامع عظيمة علاوة على ما كان فى القاهرة منها وقد بلغ عددها فى المدينتين ١٥ مسجدا وكان الناس يؤدون فيها صلاة الجمع

وفى وسط مدينة مصر كان تاج الجوامع وهو جامع عمرو بن العاص وقد اشتمل هذا الجامع على أربعمائة عامود من الرخام وكان صحنه مزدحما بالأساتذة والطلاب وجماهير الخلق المتعددى الأجناس الذين اجتمعوا فيه لاغراض التجارة . وكان لايقل عدد المجتمعين فى فناء الجامع عن خمسة آلاف . ثم ذكر « ناصرى خسرو » أن الخليفة الحاكم بأمر الله اشترى الجامع المذكور من أبناء عمرو بمبلغ مائة الف دينار وقدقالوا له: « نحن فقراء وقد ابتناه جدنا واذا سمح لنا السلطان حرقناه و بعنا رخامه وطوبه » فأعطاهم الحاكم مائة الف دينار وشهد عليهم أهل مصر . ولما وضع يدهعليهقام بتجديده وتصليحه وقدم له نجفة فضية عظيمة احتوت على سبعمائة مصباح و بلغ من كبر حجم تلك النجفة أنه اضطر الى هدم أحد أبواب المسجد وكان فيها مائة الف درهم فضة ثم أمر بفرش أرضيته بالسجاجيد الملونة الجميلة . وكان يجلس فى صحن الجامع قاضى القضاة لتعرض على مجلسه المظالم

وقد شاهد فى أسواق مصر الأصناف النادرة والمواد النفيسة الواردة من جميع بقاع العالم وقد أعجب بما رآه فيها كالبللور الصخرى وأصداف السلحفاة وسن العاج وريش النعام وغير ذلك من واردات المغرب والقلزم وزنجبار والحبشة والسودان

وهنا يذكر الرحالة الفارسى كيف أنه تحقق بنفسه من وجود مئات أصناف النباتات المختلفة قائلا : «وفى ١٨ ديسمبر سنة ١٠٤٨ رأيت فى آن واحد بأسواق مصر مجتمعا وردا أحمر اللون ورأيت ياسمينا وآسا ونسرينا وريحانا وبرتقالا صنفين وليمونا وتفاحا وبطيخا وموزا وزيتونا وبلحا وعنبا وقصبا وقرعا وبصلا وثوما وجزرا وبنجرا وكلها تخص فصول السنة المختلفة » ويضيف بعد ذلك قوله : «مصر بلاد عظيمة الامتداد تنتج أرضها فواكه البلاد الحارة والباردة وسرعان ما تنتقل محاصيل المديريات إلى العاصمة فتباع فى أسواقها بسرعة »وشاهد الرحالة الصناعة الخزفية تتمثل فى الأوانى والأطباق الشفافة وهذا مما يدل على مهارة صناعها بجانب تناسق أنواعها وجمال تركيبها مما يجعلها تشبه النسيج الذى كان يعرف باسم « البوكالامون » وقد رأى أيضا نوعا من الزجاج الأخضر الشفاف الثمين يماثل الزمرد وكان يباع بالميزان (وقد ثبت وجود هذه الصناعة بعد الحفريات التى وفق إليها فى أكوام القاذورات بموقع المدينة القديمة) وشاهد أيضا نوعا من « السلاطين » المصنوعة من النحاس الدمشقى . وكانت إحدى السيدات تمتلك منها مالا يقل عن خمسة آلاف آنية وكانت تعير الواحدة منها بخمسة دراهم فى الشهر بشرط أن تعود إليها على حالتها الأولى

وكانت أمام مصر فى وسط النهر وعلى الجانب الغربى منه جزيرة شيدت عليها مدينة بنى فيها مسجد للشعائر الدينية وخطبة الجمعة وكانت مصر تتصل بهذه المدينة بواسطة قنطرة تتألف من سبعة وثلاثين قاربا ولاحظ الرحالة أن عدد القوارب كان أكثر مما عرفه فى بغداد أو فى البصرة

وكان أصحاب المتاجر ينتقلون من منازلهم إلى محالهم على ظهر الحمير التى يقف أصحابها على نواحى الشوارع لتأجيرها وكان لايقل عددها عن ٥٠٠٠٠ حمار وقد زينها أصحابها بالسروج الجميلة وقد اختص رجال العسكرية وكبار الموظفين الملحقين بخدمة الجيش بركوب الخيل أما التجار والأهالى وأصحاب الحرف وأرباب القلم فكانوا يركبون الحمير وكانت المدينة تمتد بمحاذاة شاطىء النيل وتطل عليه الجواسق والمناظر التى كان يسحب السكان منها حاجتهم من مياه النهر بينما يقوم السقاة بنقل المياه إلى داخل المدينة على ظهورهم فى القرب أو على الجمال وقد ذكر « ناصرى خسرو » أنه فى الفترة التى

قضاها فى مصر رأى أهلها كاملى السرور والسعادة وأنهم فى سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧م) احتفلوا احتفالا كبيراً بميلاد أمير جديد . فزينت المدينة بأسرها وظهرت فى حلة مبتهجة بعيـدة عن الوصف وخشى أنه إذا أتقن تصويرها لم يصدقه أحـد والواقع أن تلك المظاهر المرحة كانت أشبه شيء بأعياد قومية

والحقيقة التى يمكن الوقوف عليها مما كتبه « ناصرى خسرو » أن مصر فى ذلك الحين كانت تتمتع بالسلم ولم تنعم بمثل تلك الحياة الهادئة من قبل ـ وقد شاهد كثيراً من محـال الجواهر مكدسة بأصناف الذهب والمجوهرات الثمينة وأنواع النقود المختلفة والمنسوجات الغالية والأصناف النادرة وأشغال القصب ولم يكن يستطيع أن يجد محلا خاليا فيها للجلوس

وكان كل الناس يثقون ثقة عمياء بسلطانهم وعمّ السلام بين الأهالى و بعضهم فانعدمت فئة الجواسيس والمرائين

وذكر الرحالة الفارسى حكاية أحـد أغنياء المسيحيين الذين قابلهم فى مصر وكان صاحب جمـلة سفن كبيرة وضياع عديدة ومخازن للقمح . سأله مرة وزير السلطان فى إحـدى سنى القحط عما يستطيع أن يقدمه للدولة إما بيعا أو هبة . فرد عليه ذلك الغنى قائلا « لدى قمح فى مخازنى يكفى العاصمـة ست سنوات وذلك بفضل السلطان ووزيره » وكان تعداد سكان مدينة مصر فى ذلك الوقت يعادل خمسة أمثال عـدد سكان نيسابور

وشاهد الرحالة أيضا خانا أوفندقا عرفه باسم «دار الوزير» بلغ إيراده من إيجارات سكانه ٠٠٠ر١٢ دينار سنويا وكان يشغله تجار القصب . ولما سأل هل يوجد الكثير من أمثال هذا « الخان » أجيب بأنه يوجد فى المدينة مائة فندق من هذا النوع

ومن المرجح أن المدينة التى وصفها الرحالة «ناصرى خسرو» بين عامى ١٠٤٧ ـ ١٠٤٨ لم تتغير كثيراً عما كانت عليه فى أزهى عصورها . ومن المعقول أيضا أن ظهور القاهرة ساعد فى فصل الحياة الرسمية ومجتمعات البلاط عن مصر منذ ثمـانين سنة سبقت زيارة الفيلسوف الفارسى للقطر ومع ذلك فقـد احتفظت العاصمة القديمة بمكانتها التجارية . وليس هناك مايبرر انحلالهـا كمدينة أثناء المائة والعشرين سـنة التى قدرت لهـا قبـل فنائها

وهانحن قدسرنا مع التاريخ لكى نبين أطوار مصر المتسلسلة فلا بد لنا أن نأتى على آخر مرحلة اجتازتها قبل أن يسدل الستار عليها فى القرن الثانى عشر الميلادى

ففى سنة ١١٠٨ م تقدم ملك بيت المقدس اللاتينى « أملريك » نحو القاهرة لفتح مصر بعد مارأى الصليبيون أن الضمان الوحيد لطمأنينتهم فى فلسطين هو الاستيلاء على القطر المصرى . وفى شهر نوفمبر أخذ بلبيس ولطخ اسمه بدماء كل رجل وامرأة وطفل فخشى «شاور» أن يلجأ الصليبيون إلى مثل تلك الأعمال الوحشية ضد أهالى مصر وخوفا من أن يستخدموها سترا يسهل تقدمهم نحو القاهرة أمر الوزير الفاطمى باحراق المدينة فى التاسع والعشرين من شهر صفر عام (٥٦٥ هـ ١٢ نوفمبر)وكان قد أرسل لذلك الغرض عشرين ألف قارورة من النفض وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهيب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظرا مهولا واستمرت النار تأتى على مساكن مصر أربعة وخمسين يوما وهاج الناس واضطربوا كأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر لايعبأ الوالد بولده ولا يلتفت الأخ لأخيه . وتدافع الجميع إلى القاهرة يطلبون مأوى لأرواحهم العزيزة حتى بلغ أجر الدابة لمسافة الميل الواحد أو الميلين أو كراء الجمل ثلاثين دينارا

فلما أخمد الحريق بمصر رحل القائد « أملريك » مع رجاله من بركة الحبش حيث كان معسكره ونزل بظاهر القاهرة بالقرب من باب البرقية وقاتل أهلها قتالاً عنيفا حتى ضعفت نفوسهم وكادوا يؤخذون عنوة بينما كان «شاور» يحاول مفاتلة الفرنج واذ « بأسد الدين شيركوه » قد وصل المقس خارج القاهرة واستولى على مصر

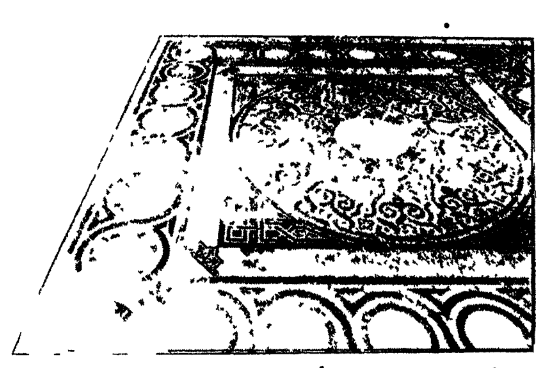
ومن ذلك اليوم تلاشى أمر المدينة ولم تستطع أن تستعيد حالتها السابقة بالرغم عن المحاولات الكثيرة التى عملت لاحيائها و بعثها من جديد . وليس من السهل أن تنزع الناس من بيوتهم نزعا و يجبرون على ترك بيوتهم المحروقة . فانه بمجرد انسحاب الصليبيين من الديار المصرية بدأ الأهالى يحنون إلى منازلهم المخربة وحاولوا أن يعيدوا السكن فيها وساعد هذه الحركة عند مااستبد شيركوه بوزارة العاضد فأمر باحضار أعيان أهل مصر الذين خلوا عن ديارهم وأمرهم بالعودة إليها فشكوا إليه مابهم من الفقر والفاقة وخراب المنازل فوعدهم خيراً وتراجعوا قليلا قليلا وعمروا ماحول الجامع

ولما زار مصر الرحالة الأندلسى «ابن جبير» عام ١١٨٣ أى بعد الحريق العظيم أربعة عشر عاما شاهد من المناظر التعيسة مادله على أن الحالة أقل سوءاً مما كان ينتظره بعد حريق دام أربعة وخمسين يوما فلا بد أن الاصلاح كان جاريا فى المدينة على قدر المستطاع وقد ذكر ابن « جبير » كيف رحب به فى فندق « أبوالثناء » بشارع القناديل الذى سمى بهذا الاسم لأن أعيانه الذين سكنوا بيوته كانوا يعلقون المصابيح تضىء طول الليل فوق

ابوابهم وكان هـذا الشارع مجاورا لجامع عمرو وقد قال الرحالة أنه رأى آثار الخراب فى كل مكان إنمـا رأى أيضا علائم التجديد والتصليح قائمة على قدم وساق

ومهماقلنا فان محاولة إعادة مصر إلى سابق عزها لم تفلح مطلقا ولم تنجح وبالرغم مما قام به السلطان صلاح الدين وخلفاؤه وبناؤهم لعشر كليات للعلوم فى مصر واعتقادهم أن من شأن هـذا ترغيب الأهالى فى سكنى المدينة لم يبن جامع واحد تقيم فيـه صلاة الجماعة بعد الحريق

ولمـا زار ابن سعيد مصر عام ١٢٤٠ م تألم من مشاهدته للجدران السوداء والمنازل المخربة وما كانت عليه مصر من القذارة والاهمال وكان لايزال يسكنها كثير من السكان والباعة والطلبة وأ كثر هؤلاء رآهم فى صحن جامع عمرو الذى خيم عليه نسيج العنكبوت بينما كانت القاهرة تسرع فى أخذ مكانتها الجديدة بين مدن العالم ....



[تصوير الاستاذ حسن افندى عبد الوهاب]

أرضية رخام فى مسجد الأشرف بالغوريه (٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م)

قاهرة المعز

لله قاهرة المعز فانهـا   بلد تخصص بالمسرة والهنا
أوما ترى فى كل قطر منية   من جانبيها فهى مجتمع المنى

[صفى الدين الحلى]

إن بناء القاهرة كمدينة مستقلة عن مصر وضواحيها السابقة يبدأ عهـدا جـديداً لأن الأمر لم يكن مجرد تغيـير أسرة حاكمة بأخرى أو تبـديل موقع بآخر بل الواقع أن الفتح الفاطمى وهو السبب لوجود تلك المدينة الجديدة كان ثورة فى الدين وتطورا فى السياسة وانقلابا فى الثقافة

ولم يكن مـذهب الشيعة وهو ديانة الفاطميين فى روح الحقيقة من الأسلام فى شىء وكل ما فى الأمر أنها اتخذت شيئا من مبدأ الشيعة القديم فى الاسلام وألبسته ثوبا جديدا لكي تقوى حركة سياسية كبيرة . وقد قامت الشيعة على اكتاف تولى الخلافة وأوجدت نفسها نتيجة للعداء القديم الذى نشأ بين آراء الحكم العام والحق المقدس وتمسك

مأذنه جامع الحاكم وسور القاهرة

جماعة أهل السنة بأن انتخاب الخلفاء الثلاثة الأولين أبو بكر وعمر وعثمان كان دستورا متفقا مع روح الاسلام على نقيض حزب الشيعة الذى كان يرى أن الحق فى الخلافة لعـلى (زوج فاطمة بنت النبي) ووالده الحسن والحسين (ابنا فاطمة) ولما لم يكن على فى مبـدأ الامر من القوة بحيث يحول دون خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ضعفت مطالبته حتى تحققت أمنيته بتولية الخـلافة بعد مقتل عثمان فنهض معاوية للسعى الى نيل الخلافة وقاومه أشد مقاومة حتى قتل فى النهاية وبايع الشيعة ابنه الحسن بوصية

منه فانفض أتباعه عنه واضطر أن ينزل عن الخلافة لمعاوية فتقم الشيعة منه والتفوا حول أخيه الحسين الذى سار الى الكوفة بتحريض أشرافها فى نفر قليل من شيعته فلاقاه جند ابن زياد عامل بنى أمية فى كربلاء واقتتل الفريقان واستشهد الحسين فى المعركة ومثل بجثته وحمل رأسه الى يزيد بن معاوية وكان ذلك فى المحرم سنة ٦١ هـ.

وكان هذا الانتقام الفظيع على يد خلفاء الأمويين مثيرا للشعور وسلاحا شهره زعماء الشيعة أو شهروه ضد منافسيهم السنيين. ولسوء حظ أهل الشيعة أنه لم ينجب من بينهم أحد ولم يعرف منهم من اتصف بالنبوغ السياسى. ومع ذلك قامت بعض جماعاتهم بحركات صغيرة لم يكن لها شأن يذكر وكانت حركتهم على وشك الموت من ناحية العنصر السياسى غير مستبقية لها سوى الصبغة الدينية لولا التطور الجديد الذى نالها فى القرن الثالث على يد عبد الله بن ميمون الفارسي الأعور ابن الفقيه الملحد وكان قد نشأ فى جو من التعاليم الفلسفية والمادية

وأخيرا استطاع أن يخرج ببدعته الجريئة متخذا من مبادىء الاسلام آلة للقضاء عليه

وبينما كان برنامجه فى الظاهر يعمل على الانتفاع بشعور آل على وحقهم المقدس كان يجتذب اليه الناقمين على حادث كربلاء ومن التعاليم التى كان يبشر بها أن الله يتجسد فى جسم القائد أو الزعيم الذى يصطفيه كسيدنا آدم وابراهيم . . . . إلى على وملخص مبادئه كانت ترتكن على أنكار جميع الأديان وتقويض دعائمها والتبشير بالمهدى المنتظر.

نجح ابن ميمون فى حركته التى نظم لها جمعياته السرية التى دعت الى نشر تعاليمه القاضية على الاسلام فأرسل رجاله الى جميع الأقطار يعملون باسم الدعوة الاسماعيلية. وكان نجاحه ظاهرا فى القرن الثالث والرابع فى بلاد العرب وبلاد الجزيرة وسوريا على يد القرامطة ثم سارت دعوته الى شمال أفريقية ومصر على يد الفاطميين وانتشرت بواسطة « الحشاشين » فى بلاد فارس ولبنان. ولا يهمنا فى هذا الكتاب سوى ما يخص الدعوة الثانية ولو أن مصر تأثرت الى حد بالقرامطة والحشاشين

وكانت الخلافة الفاطمية التى اتخذت اسمها من زوج على وابنة النبى « فاطمة » أقوى وأظهر ما أنتجته دعاية الشيعة التى وجدت مرتعا خصبا بين قبائل المغرب. وكان ممن اعتنق المذهب فى اليمن رجل يدعى أبو عبدالله الشيعى فلما وجد أن الدعوة قوبلت بارتياح فى بلاد البربر سار الى افريقيا وبشر بظهور المهدى واستمال البربر بحيله وشعوذته وزهده ودانت له شمال افريقيا من مدينة فاس الى مراكش حتى حدود مصر التى

غزاها مرتين وخضعت بعض انحائها له وباختصار نجده قد محى ملك الأغالبة من افريقية (٢٩٦ هـ) وقبض على زمام الحكم وتلقب بالمهدى وقامت بذلك دولة العبيديين واستولى بحكم الفتح على ممتلكات دولة الأغالبة فى تونس الذين حافظوا أكثر من قرن على أعظم قوة بحرية بالبحر الأبيض المتوسط وخضعت لسلطانهم صقلية وسردينية وقورسيقا ومالطة ثم هدد الفاطميون بعدهم سواحل فرنسا وايطاليا غانمين أينما ذهبوا وكان الخليفة الرابع لسلالة المهديين وهو المعز لدين الله فاتح مصر حاكما كفؤا قادرا وسياسيا نابغة ورجلا ذكيا وخطيبا مصقعا . ولغويا يتقن الرومية والعربية والبوبرية وكان الى جانب هذه المميزات عادلا ومسلما أمينا على مذهب الشيعة على أنه لم يكن متطرفا فى مذهبه كالذين سبقوه ولكنه كان يسير بمقتضى القرآن الكريم

وبعد نجاح الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى تأسيس دولته الافريقية حتى أوصل حدودها الى ساحل المحيط الأطلنطى (٩٥٩م) عزم على فتح مصر والاستيلاء عليها وكان جده قد حاول ذلك فلم يفلح الى أن جاء المعز يبغى تحقيق أمنيته فصرف على تجهيز حملته أربعة وعشرين ألف الف دينار وأخيرا لما تم وضع الخطط العسكرية لفتح مصر سير قائده جوهر مملوكه الرومى على رأس مائة الف من جنده مبتدئا من مدينة قيروان وذلك فى (١٤ ربيع الأول عام ٣٥٨ هـ - ٥ فبراير ٩٦٩ م) فوصل الى الأسكندرية فسلمت له بشروط سهلة وكان المصريون قد تغلبت عليهم المجاعة وتبعها الطاعون ومات منها نصف مليون من الخلق فى « مصر » وحدها . أضف الى هذين الشرين عبث الجند الخارجين عن النظام بها فلم يلق جوهر سوى الضعف والتسليم اذا استثنيا عدة معارك صغيرة فى الجيزة التى وصل اليها فى (١٧ شعبان ٣٥٨ هـ - ٦ يوليو ٩٦٩ م) ثم اقتحم جوهر معبرا على النيل فهرب المدافعون وولوا الأدبار وطلبت نسوة مصر الأمان فمنحه جوهر وكف الجند عن السلب والنهب ودخل الجيش الفاطمى مدينة مصر وعسكر جوهر بجيشه فى الفضاء الذى كان يمتد شمال شرقى الفسطاط المحدود شرقا بجبل المقطم وغربا بالخليج الذى كان يخرج من النيل شمال الفسطاط مخترقا هليوبوليس القديمة الى أن يلتقى بالبحر عند السويس ولم يكن عند نزول جوهر فى هذا الفضاء سوى دير العظام وبستان كافور وقصر الشوك



تأسيس القاهرة

وفى نفس الليلة اختط جوهر أساس المدينة الجديدة أو القصر المحصن الذى أعده لاستقبال سيده المعز ووزع أوتاده على مساحة مربعة طول ضلعها يقرب من الألف ومائتى ياردة وجمع جوهر المنجمين المغاربة الذين كان المعز يثق بهم وباحثهم مجتمعين ليقرروا الوقت الذى يفتتح فيها الاحتفال . وجعل فى مكان السور قوائم من الخشب متصلة بعضها ببعض بحبال فيها أجراس وأمر جوهر العمال أن يرموا الطين والحجارة مكان الأساس إذا سمعوا دقات الأجراس بناء على إشارة المنجمين . فاتفق أن نزل غراب على أحد الحبال فدقت الأجراس قبل إشارة المنجمين وظن العمال أن هؤلاء هم الذين أمروا بدقها فانهالت أدوات الحفر بهمتها وبدءوا حفر الأساس . وكانت ساعة غير سعيدة اذ أن كوكب المريخ قاهر الفلك كان فى الطالع . ومما قد يساعد على تصديق هذه الرواية التى أوردها المقريزى علمنا بغرام المعز بعلم النجوم وكان يستشير منجمه فى كل ما يتعلق بحياته الخاصة وفى كل أمور الدولة . وكان اسم المدينه فى بادىء الأمر « المنصورية » وهو نفس الاسم الذى كان يطلق على المنصورية (المدينة ـ القصر) التى شيدها المنصور بالله والد المعز خارج القيروان . ومن الواضح كما أشار الأستاذ رايتماير (Reitemeyer) أن جوهر لابد أنه كان تسلم أمر امن سيده لبناء (القصر المحصن) لتقوم بجانب الفسطاط كما كانت المنصورية للقيروان . ومن عجيب الصدف ما يذكره البكرى من أنه اسمى بابى المنصورية وهما باب زويلة وباب الفتوح أطلقا ايضا على بابى القاهرة المصرية . ثم أسرع جوهر فى محو اسم الخليفة من خطبة صلاة الجمعة فى جامع عمرو كما حرم الشعار العباسى الأسود وألبس الخطباء الثياب الناصعة البياض وخطبوا باسم الامام المعز أمير المؤمنين داعياً لأسلافه الصالحين على وفاطمة وجميع أفراد البيت الطاهر . واستعمل أهل الشيعة المآذن للدعوة الى الصلاة وأرسل جوهر خبر انتصاره الى سيده الخليفة الفاطمى على هجن سريعة وحملها أيضاً رءوس قتلاه ثم ضرب العملة على طريقة الفاطميين

ولم يكن هذا التغيير مجرداً بدال مذهب بآخر بل كان أكثر من ذلك فأن قوة الفاتح السياسية وتجنبه للمبادىء المتطرفة للشيعة جعلت الناس تقبل النظام الجديد بدون خروج على مذهبهم الديني المستأصل فى نفوسهم اللهم إذا استثنينا شعورهم لما ابتدأ المحتلون يحتفلون بعيد المحرم لذكرى شهيدى كربلاء . إذن لم يكن التغيير دينياً فقط بل كان سياسياً فى الصميم أيضا .

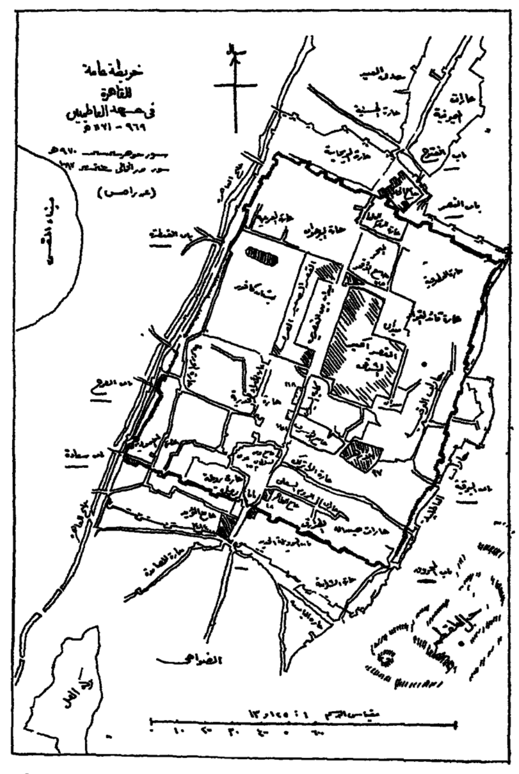
ولم تصبح القاهرة عاصمة لولاية عباسية أو حتى لامارة مستقلة لها ارتباط بالخلافة . بل كانت عاصمة لدولة منافسة وهذه الدولة هى امبراطورية البحر المتوسط . ومع ذلك فقد فقدت تلك الامبراطورية ممتلكاتها الافريقية وجزرها الأوربية وتقلصت الى أبعادها التى كانت عليها دولة ابن طولون . وكانت قوة وثروة وتجارة المملكة الفاطمية شيئاً جديدا صرفا . وقام التنافس بين القاهرة وبغداد وبعبارة أخرى بين خلافة الشيعة الفتية القوية وبين خلافة أهل السنة المنحلة وقد كان لهذا التنافس أثر ظاهر فى السياسة والمدنية — ولقد كان للقوة البحرية والممتلكات الأدبية التى أضافها الفاطميون إلى دولتهم أن دخل عنصر جديد فى سياستهم الخارجية ونشطت تجارتهم وحورت بوسائل متعددة حضارة مصر وسوريا

ولاشك أنه من ناحية أخرى كان أن انفراد القاهرة وعزلتها أدى إلى نشر ثقافة منفصلة لم تكن لفائدتها إذ حرمتها هرطقتها الدينية من اتصالها بمراكز الحياة الثقافية فى العالم العربى من بغداد إلى دمشق إلى قرطبة وكانت الصلة القديمة التى جلبت الطلاب والأساتذة من جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية إلى مساجد أينمدينة كبيرة مستحيلة فى عاصمة دولة أصبحت مساجدها فى أيدى لفيف من أصحاب البدع الدينية . ولذلك نجد القاهرة قد خرجت عن صلاتها بتقدم الدراسات الاسلامية فى القرنين الحادى والثانى عشر . ولم يبق إلا نفر قليل من قادة الفكر والأدب العربى يعملون فى ظل الحكم الفاطمى . وفى بعض فروع العلوم كالفلسفة والطبيعة والطب كان من المنتظر أن نجد نتائج ثمينة بفضل تأثير حرية الفكر التى أثارها مذهب الشيعة كما قام بعض علماء اليهود والمسيحيين بأبحاث نفيسة . ولكن مع كل ذلك التقدم العسكرى كانت خسارة القاهرة بسبب عزلتها عن العالم الفكرى لا تقدر ولربما كانت القاهرة قد استفادت بعض الشىء باتصالها بأوروبا فيما بعد ذلك من السنين إلا أن أوربا حوالى القرنين العاشر والحادى عشر لم تكن تمتلك ما نعلمه لغيرها

وكان القبط حتى ذلك الوقت يصادفون الخير والشر على حسب مزاج الولاة العرب والأتراك ونسبة جشعهم . ولكن بقدوم الخلفاء الفاطميين وجدوا أنفسهم أمام حكام يعرفون التسامح والرعاية . واذا استثنينا واحدا من خلفائهم وجدنا أن جميعهم أحسنوا معاملة رعاياهم المسيحيين ففى هؤلاء لهم الكنائس أو جددوا الكثير منها أثناء حكم الفاطميين

وكان للخليفة العزيز بن المعز الذى حكم بين سنى (٩٧٠ و ٩٩٦ م) زوجة مسيحية

وكان شقيقاها من البطارقة الملكية وكان صديقه البطريون اليعقوبى « أفرايم » وكذلك « سيفيروس » بطريق الأشمونين . وكان يحضر هذا إلى قصر الخليفة لكى يبحث معه فى التصوف ولكي يجادل قاضى القضاة . وقدسمح له بتجديد كنيسة أبى سيفين



التى كانت خارج مدينة مصر وقد كان أحد رؤساء وزارات العزيز يهوديا وأسلم وهو « يعقوب بن كلس » وآخر « ابن نستوريوس المسيحى » فاستاء المسلمون من تسامحه وإذا كانت العناية قد بلغت حدها بالكنائس فليس معنى هذا أن المساجد أهملت

ولو أن الحكم الفاطمى جاء خاليا من كثرة المساجد التى بناها أغنياء المحسنين كماسنرى فى عصر حكم المماليك فلا زلنا نرى من آثار حكمهم جامع الأزهر وجامع الحاكم

الأزهر

وكانت أول خطوة للقائد جوهر بعد ابتدائه بناء أسوار مربع القصر المحصن (القاهرة فيما بعد) أنه بنى لأسياده جامعا على المذهب الشيعى لينصرف الرأى العام إلى الدولة الجديدة وينحرف تدريجيا عن السنة القديمة . وقد أكد سيد المؤرخين المقريزى ان القائد جوهر بدأ عمارته فى يوم السبت لست بقين من جماد الأولى سنة ٣٥٩ ﻫ (ولعله يوافق ٣ أو ٤ ابريل من سنة ٩٧٠ م) وتم تشييده بعد سنتين فى يوم الجمعة رمضان سنة ٣٦١ ﻫ (٢٤ يونيو ٩٧٢ م) ويعتبر هذا المسجد أول عمل فنى معمارى بمصر فى عهد الفاطميين لايزال قائما للآن

ولكن بيان التصميم الأصلى الذى أنشىء عليه هذا الجامع على وجه التدقيق يعتبر من الأمور الصعبة وذلك للبنايات المتعددة التى اضيفت اليه فى العصور المختلفة . ولقد جدد مراراً وعلى الأخص عند ماأعيد تجديده فى القرنين الثامن والتاسع عشر . وإذا كان لايزال يحوى الآن بقية ضئيلة من الأفاريز الكوفية والعقود الفارسية التى تعتبر من مميزات العمارة الفاطمية فان منظر الجامع على وجه العموم يعتبر اليوم حديث

واختلف المؤرخون فى تسمية هذا الجامع . فقال بعضهم أنه كانت تحيط به القصور الزاهرة التى بنيت عند انشاء مدينة القاهرة ولذا سمى بالأزهر . وقال آخرون إنما سمى كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن والمكانة بازدهار العلوم فيه . ويظهر أيضا أن الفاطميين الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سموه الأزهر اشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء

وكان الخليفة العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الصلاة إلى جامعة شيعية تدرس فيها العلوم . كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه الذين وفدوا من جميع أنحاء العالم الاسلامى من ساحل الذهب إلى جزر الملايو إذ اجتمع فيه المصرى والسورى والكردى والعراقى والهندى والسودانى والأفغانى والحبشى والمراكشى والجاوى والصينى والتونسى والجزائرى — تربطهم جميعا رابطة الاسلام . وكان لكل امة رواقها الخاص وفيه يتلقون مختلف العلوم القديمة والحديثة الشيء الكثير كالفقه والشريعة والنحو والحديث والمنطق والجبر والفلك وعلم العروض والبلاغة



جامع الأزهر بقبته ومآذنه (٣٥٩ — ٣٦١ هـ = ٩٧٠ — ٩٧٢ م) [تصوير الاستاذ حسن افندى عبد الوهاب]



والتفسير الخ . وكانت المرتبات المختلفة التى منحت لطلبة الأزهر وأساتذته فى مختلف الأزمان من الأسباب التى جذبت إلى الأزهر الطلبة الغرباء النازحين اليه من بقاع الدنيا وسهلت لهم التفرغ لطلب العلم واعادة كتابة الرسائل بدون أن يدفعوا مصاريف خاصة كجامعات العالم

الخليفة المعز

وفى عام ٩٧٣ م لما قدم الخليفة المعز القاهرة بجميع أولاده وأخوته وسائر أولاد عبيد الله المهدى تجاهل الفسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت لمجيئه . و بعد وصوله بقليل أمر ببناء تربة فى القصر الكبير دفن فيها أجداده الذين استحضرهم معه بتوابيت من بلاد المغرب . وفى آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه وخطب خطبة العيد ثم رأس جنوده يحوطه أبناؤه الأربعة فى لباسهم العسكرى يسبقه فيلان ليقصدوا القصر الذى شيده جوهر وأثثه بفاخر الرياش لمولاه وكان مملوءاً يومئذ بالتحف والدرر

وقد ذكر محمد حسن بن ابراهيم بن زولاق الذى كتب تاريخ الخليفة المعز لدين الله أنه دخل هذا القصر يوم السبت ٢٣ رمضان عام ٣٦٢ هـ (٢٨ يونيو ٩٧٣ م)

وقال ابن عبد الظاهر أن المعز عند وصوله إلى الديار المصرية ودخوله القاهرة عتب على جوهر لكونه لم يعمرها مكان المقس على القرب من باب البحر أو جنوبى الفسطاط على القرب من الرصد لتكون قريبة من النيل

وقد ذكر المقريزى أن الخليفة المعز هو الذى أصدر أمرا بتغيير اسم المنصورية إلى القاهرة

وكان المربع المحصن الذى سمى القاهرة أو « المدينة » كما نعرف هذه المنطقة الى اليوم لايقصد به بالمرة أن يكون عاصمة الدولة ومقر حكومتها . وكان قصد جوهر أن يكون مقر سكن الخليفة وحاشيته وعبيده و رجال الحكومة وجنوده السود ولم يكن مصرحا لسكان مصر لهم بدخول المربع الا بتصريح يسمح لصاحبه دخول أحد أبوابه . وكان معتمدو الدول الأجنبية الذين يحضرون للتشرف بمقابلة الخليفة يترجلون عن جيادهم و يستقدمون الى القصر بين صفين من الجند على الطريقة البيزنطية . فكانت القاهرة حرما ملكيا ومعقلا محصنا يتحصن به الخليفة ونزل جنوده ثم حفر خندقا من جهتها الشمالية ليمنع اسلال القرامطة الى القاهرة بينما كانت أسوارها العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة

عن أنظار شعب مصر ويكفى أن يستدل على حقيقتهامن صفتهاالملازمة لهاالتى أطلقت عليهاوهى القاهرة المحروسة

أسوار القاهرة

وبنيت أسوار القاهرة الأصلية باللبن الكبير المقاس وكانت اللبنة الواحدة طولها قدمان وعرضها خمس عشرة بوصة وكان سمك الجدران يسمح لفارسين بالمرور عليها دفعة واحدة . وقد ذكر المقريزى أنه لم يبق من آثارهذا السور شيء فىعام ١٤٠٠م وذكر أيضا أنه شاهد جزءا طويلا من السور الذى بناه جوهر قائما على بعد خمسين ذراعا من السور الحالى (سور صلاح الدين) فى المسافة الواقعة بين باب البرقية ودرب بطوطه حتى تدمرت عام (٨٠٣ هـ — ١٤٠٠ — ١٤٠١ م) ولقد أدهشه حجم قالب الطوب الذى كان مقاسه ذراعا فى ثلثى ذراع وكان المربع الأصلى يقل مائة قدم فى أضلاعه الأربعة عن المربع الثانىالذىشيد عام ١٠٨٧م ومن السهل أن نعرف طول المدينة التى شيدها جوهر إذا تصورنا نقطتين هامتين وهما أن باب الفتوح الحالى (ومعه جامع الحاكم) وبابزويله (ومعه جامع المؤيد) يقعان خارج المربع الأصلى للقاهرة بمسافة قليلة بينما كان عرضها يمتد من باب الغريب وراء جامع الأزهرمن ناحية الشرق إلى الخليج من الغرب عند المنطقة التى لاتزال تعرف الآن باسم بين السورين بالقرب من الموسكي . وعلى هذا التقدير كانت مساحة القاهرة الأصلية ١٢٠٠ ياردة مربعة أو أقل من نصف ميل مربع

القصران

وكان يقوم فىوسط المدينة ميدان اسمه « بين القصرين » لايزال معروفا به أحد أحياء القاهرة القديمة باسم سوق النحاسين تمتد على جانبيه عدة جوامع سامية البناء بنيت فى عصور مختلفة . كان ميدانا واسع الأرجاء يسمح بعرضعشرة آلافجندى يفصل القصرين المتقابلين عن بعضهما وكان مترمكانا لاجتماعشعبالقاهرة . فالقصر الكبير الشرقى أو القصر الغربى يقع إلى شرقيه ويقع خان الخليلى اليوم على احدى زواياه بينما يقابله أمامه القصر الصغير الغربىالذى بناهالعزيز ويشغل جزءامنه مارستان قلاوون وخلفه بستان كافور ومنتزه الأخشيد ولقد خصص المقريزى مالا يقل عن مائتى صفحة فى وصف قصور الفاطميين ! فتقرأ عن الأربع آلاف قاعة وباب الذهب

المؤدى إلى قاعة الذهب التى كان فيها منظرة يشرف منها الخليفة على المدينة وهو جالس على عرشه المذهب يحيط به أمناؤه و رجال التشريفات ومعظمهم من اليونان والسود وقاعة الزمرد بأعمدتها الرخامية البيضاء والديوان الكبير حيث كان الخليفة يجلس يومى الاثنين والخميس

وهذه المبانى المتعددة التى تألف منها القصر الكبير لم تكن من أعمال سنة واحدة أو خليفة واحد . فقد وضع جوهر أساس القصر فى نفس الليلة التى حضر فيها أساس القاهرة فى (يوليو ٩٦٩ — شعبان سنة ٣٥٨ هـ) وأتم فى مارس التالى بوابتين وشيد سورا أحاط بالقصر عام ٩٧٠ — ٩٧١ م . ولما زار مصر الرحالة الفارسى « ناصرى خسرو » بعد ذلك التاريخ بثلاثة أرباع قرن قال إنه يخيل لمن ينظر إلى القصر وهو فى خارج المدينة انه يرى جبلا وذلك بالنسبة إلى ضخامة مبانيه حتى إذا ما اقترب منه اختفى القصر ولم ير غير جدرانه الشاهقة . وذكر الرحالة أيضا أن عدد العبيد الذين بداخله لايقل عن ثلاثين الف نفس وكان الخليفة المعز هو الذى وضع تصميم القصر الأصلى لكنه لم يكن يحتوى على أكثر من نصف قاعاته الفخمة التى وصفها المقريزى فى خططه

ثم جاء الخليفة العزيز فبنى قاعة الذهب والديوان الكبير والقصر الصغير الغربى ومنظرة اللؤلؤة فى بستان كافور — ولما جاء الخلفاء والوزراء من بعدهما زادوا وأبدلوا وأصبحت القصور الزاهرة تشتمل على قصور عديدة منفصلة وقاعات ومناظر كثيرة كلها مختلفة فى عمارتها وجمالها فكان للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أكبرها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر ثم باب الريح ثم باب الزمرد ثم باب العبيد ثم باب قصر الشوك ثم باب الديلم ثم باب تربة الزعفران ثم باب الزهومة . وكان باب الذهب هو الذى تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة فى يومى الاثنين والخميس لقاعة الذهب

وكان يصل بين القصرين الشرقى والغربى سرداب تحت الأرض وكان الخليفة ينزل اليه ممتطيا بغلته بعدد من الفتيات إلى القصر الغربى الذى كان مقر الحريم

وكان للقصر الغربى عدة أبواب منها باب الساباط و باب التبانين و باب الزمرد

وقد أخذ الكاتب الأثرى « مسيو رافيس » وصف القاهرة المعزية عن المقريزى وأوضحه برسوم وهى و إن لم تكن كاملة غير أنها تعطينا صورة تقريبية عن القاهرة الفاطمية

اخطاط القاهرة وأبوابها

فى اليوم الذى خطّ جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل التى تألف منها جيشه خطة عرفت بها فزويلة بنت الحارة المعروفة بها واختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين حارة الروم وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر وقد ذكر « ناصرى خسرو » فى كتاب رحلته أن القاهرة كانت مقسمة إلى عشرة محلات أوحارات منها :

١ — حارة برجوان وتعرف ببرجوان الذى كان خادم القصور فى أيام الخليفة العزيز بالله وقد وصاه على ابنه الحاكم الذى اتخذه وزيرا له ومنحه لقب واسطة ومدبر الدولة وكان يدير شئون مصر وسوريا والحجاز والمغرب باسم سيده حتى أمر بقتله فى أحد قصوره فقتل بيد أبى الفضل ريدان عام ٣٩٠هـ . ويقال إنه خلف فى تركته ألف سروال بألف تكة حرير

٢ — حارة زويلة وتنسب إلى زويلة قبيلة من البربر الواصلين صحبة القائد جوهر وكانت حارة عظيمة

٣ — حارة الجدرية وهى طائفة بهذا الاسم من الدولة الفاطمية نسبة الى جودر خادم عبيدالله المهدى أبى الخلفاء الفاطميين اختطوها وسكنوها حين بنى جوهر القاهرة ثم سكنها اليهود بعد ذلك إلى أن بلغ الحاكم الفاطمى أنهم يهزءون بالمسلمين فسد عليهم أبوابهم وحرقهم ليلا وسكنوا بعد ذلك حارة زويلة المتقدمة

٤ — حارة الأمراء على القرب من باب الزهومة وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس الدولة وبها كانت دار الوزير عباس وزير الظافر وكانت بها المدرسة المسرورية التى بناها سرور الخادم أحد خدام القصر فى الدولة الفاطمية ثم سكنها شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين

٥ — حارة الديلم وتعرف بالديلم الذين أتوا بصحبة «افتكين المعزى» غلام المعز ابن بويه الديلمى وكان قد تغلب على الشام أيام المعز الفاطمى وقاتل القائد جوهر واستنصر بالقرامطة وخرج اليهم العزيز بالله فأسره فى الرملة وقدم به إلى القاهرة فأجزل له العطاء وأنزله هو وأصحابه بهذه الخطة وبها كانت دار الصالح طلائع بن رزيق وكان يسكنها قبل الوزارة

٦ — حارة الروم التى اختطها الروم الواصلين صحبة جوهر وكان الناس يقولون حارة الروم البرانية وحارة الروم الجوانية فثقل ذلك عليهم فأطلقوا على هذه الجوانيــة وقصروا اسم حارة الروم على ذلك

٧ — حارة الباطلية وتعرف بقوم أتوا مع المعز وقد قسم العطاء فى الناس فلم يعطهم شيئا فقالوا : نحن على باطل ؟ فسميت الباطلية

٨ — قصر الشوك على القرب من رحبة الأبدمرى

٩ — عبيد الشراء

١٠ المحمودية أو المصامدة ولعلها منسوبة الى الطائفة المعروفة بالمحمودية القادمة فى أيام العزيز بالله الفاطمى الى مصر

أما أبواب القاهرة فـكانت موزعة على جهاتها الأربعة ففى الجهة القبلية التى تؤدى بالسالك منها إلى مدينة مصر بابان متجاوران يقال لهما بابا زويلة وأثبت القلقشندى والمقريزى فيما كتباه موقع هذا الباب وكان بالقرب من سبيل مدرسة العقادين الحاليــة

وكان فى جهة القاهرة البحرية وهى التى يسلك منها الى عين شمس بابان أحدهما باب النصر وموضعه بأول الرحبة التى أمام الجامع الحاكمى « اذ ذاك » وباب الفتوح (الأول) وكان عقدا باقيا منه الى أيام المقريزى مع عضادته اليسرى وعليه أسطر مكتوبة بالقلم الـكوفى . وكان فى الجهة الشرقية وهى الجهة التى يسلك منها الى الجبل باب القراطين وقد عرف فيما بعد باسم الباب المحروق وذكر المقريزى أنه كان هناك حتى سنة (٨٠٣ هـ ١٤٠٠ م) باب اسمه باب البرقية ولم يحدد مكانه . وكان فى الجهة الغربية وهى المطلة على الخليج الـكبير ثـلاثة أبواب : باب القنطرة الذى بناه جوهر بعـد تأسيس القاهرة بعامين و باب سعادة و باب الفرج وقد أثبت الكابتن « كريسويل » موقعه فى المكان الذى تحتله اليوم محكمة الاستئناف الأهلية أما داخل سور القاهرة فاشتمل على قصرين وجامع قيل لأحد القصرين القصر الـكبير الشرقى وهو منزل سكنى الخليفة ومحل حرمه وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة وفيــه الدواوين و بيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك وهو الذى أسسه القائد جوهر و زاد فيه المعز ومن بعده من الخلفاء والآخر تجاه هذا القصر و يعرف بالقصر الغربى وكان يشرف على البستان الـكافورى و يتحول اليــه الخليفة فى أيام النيل للنزهة على الخليج . وكان يقال لمجموع القصرين القصور الزاهرة و يقال للجامع جامع القاهرة والجامع الأزهر

القصر الشرقى

فأما القصر الكبير الشرقى فانه كان من باب الذهب وقد علته منظرة يشرف الخليفة فيها من طاقات فى أوقات معروفة الى باب البحر الى باب الريح الى باب الزمرد فباب العيد وكان أمامه رحبة عظيمة متسعة تقف فيها العساكر الفرسان والمشاة في يومى العيدين وكانت من باب الريح الى خزانة البنود الى باب قصر الشوك فباب الديلم (وموضعه المشهد الحسينى) وكانت فيما بين قصر الشوك و باب الديلم رحبة عظيمة تعرف برحبة قصر الشوك أولها من رحبة خزانة البنود وآخرها حيث المشهد الحسينى الآن وكان قصر الشوك يشرف على اسطبل الطارمة

وكان فيما بين الديلم و باب تربة الزعفران الخوخ السبع التى يصل منها الخليفة الى الجامع الأزهر فى ليالى الوقدات فيجلس بمنظرة الجامع الأزهر ومعه حرمه لمشاهدة الوقيد وبجوار الخوخ السبع اصطبل الطارمة الذى كان مخصصا لخيل ركاب الخليفة ومن وراء هذا الاصطبل كان جامع الأزهر (القاهرة) ومن باب تربة الزعفران الى باب الزهومة (المؤدى الى مطبخ القصر) و بينهما خزانة الدرق ثم من باب الزهومة الى باب الذهب المذكور أولا وكان بحذاء رحبة باب العيد دار الضيافة وهى الدار المعروفة بدار سعيد السعداء وكانت فيما بعد خانقاه للصوفية و يقابلها دار الوزارة وكان فى غربى الجامع الأزهر حارة الديلم وحارة الروم البرانية وحارة الأتراك وحارة الباطلية وكانت بهذه الحارات خزائن القصر وهى خزائن الكتب وخزانة الأشربة وخزانة السروج وخزانة الخيم وخزائن الفرش وخزائن الكسوات وخزائن دار أفتكين ودار الفطرة ودار التعبية وغير ذلك من الخزائن

القصر الغربى

وأما القصر الصغير الغربي فموضعه المارستان الكبير المنصورى الى جوار حارة برجوان وكان بين القصرين كما ذكرنا فضاء متسع يقال له ما بين القصرين وبجوار القصر الغربى الميدان و بحذائه البستان الكافورى المطل من غربيه على الخليج الكبير و يجاور الميدان دار برجوان العزيزى و بحذائه رحبة الأفيال ودار الضيافة القديمة و بحذاء القصر الغربى من قبليه مطبخ القصر تجاه باب الزهومة و بجوار المطبخ الحارة

العدوية وتليها جملة حوار غير هامة فى هذا البحث . فاذا ما اقتربنا من باب زويلة كانت حارة زويلة وبالقرب منها باب الخوخة حيث دار الوزير « يعقوب بن كلس » وصارت بعده دار الديباج

ظاهر القاهرة

أما ظاهر القاهرة الفاطمية من الجهة القبلية وهي التى فيما بين باب زويلة ومصر طولا وفيما بين الخليج الكبير والجبل عرضا فكانت قسمين ماحاذى يمينك اذا خرجت من باب زويلة تريد مصر وماحاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فكانت تحت الربع والقشاشين وقنطرة باب الخرق وخط قناطر السباع ويدخل فى ذلك سويقة عصفور وحارة الحمزيين وحارة بنى سوس الى الشارع و بركة الفيل والهلالية والمحمودية الى الصليبية ومشهد السيدة نفيسة . وكانت كل هذه الأماكن تعرف بجنان الزهرى و بستان سيف الأسلام وغير ذلك . وأما ما حاذى شمالك فكان الجامع المعروف بجامع الصالح والدرب الأحمر إلى قطائع ابن طولون التى كانت فيما بعد الرميلة والميدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية وهي التى فيها الخليج الكبير وهى من باب القنطرة الى المقس وما جاور ذلك فانها كانت بساتين من غربيها النيل وكان ساحل النيل بالمقس حيث الجامع الآن فيمر من المقس الى المكان الذى يقال له الجرف ومواضع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضى اللوق والزهرى وغيرها وكان فيما بين باب سعادة و باب الخوخة و باب الفرج و بين الخليج فضاء لا بنيان فيه والمناظر تشرف على ما فى غربى الخليج من البساتين التى وراءها النيل . وأما جهة القاهرة البحرية فكانت قسمين خارج باب الفتوح وخارج باب النصر . أما خارج الأول فكانت توجد منظرة من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران ومن غربى هذه المنظرة فى جانب الخليج الغربى منظرة أخرى . أما خارج باب النصر فكان به مصلى العيد ثم فضاء من المصلى الى الريدانية . أما جهة القاهرة الشرقية وهي ما بين السور والجبل فانه كان فضاء ثم أمر الحاكم بأمر الله أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور لتمنع السيول من دخول القاهرة وصارت منها الأكوام التى عرفت بكيمان البرقية

ولاشك فى أن هذه التفصيلات الطبوغرافية التى أوردها المقريزى تهم الباحث الأثرى كثيرا و يشغف عند قراءتها . و يجب أن نبحث فيما كتبه الرحالون عن وصف القاهرة

فقد كان من الصعب زيارة القصر الفاطمى بسبب عزلة خلفاء الفاطميين وعلى ذلك ندرت زيارة الرحالة الأجانب وأصبح من الصعب أن نضيف شيئا من وصفهم للقاهرة كما رأوها وقد أذن « للرحالة الفارسى ناصرى خسرو » بزيارتها عام ١٠٤٧ م ولكنه كان مع ذلك حازما فيما كتبه . وأكثر ما نكتسبه منه وصفه لقاعة العرش العظيمة ومناظر الصيد المنقوشة على العرش الذهبى الذى كان مستترا خلف شبكة من الذهب ويقترب منه بواسطة بضع درجات من الفضة . وربما يكون أحسن وصف للمدينة ما كتبه « وليم تير » عن البعثة الصليبية عام ١١٦٧ م لما كان الملك أملريك متخذا موقف حامى الخليفة ولو أنه كان قد مر قرنان من الزمان على تشييد المدينة الأصلية منذ وضع جوهر أساسها . ولم يسبق أن قدم مفوض مسيحى للحضرة المقدسة وعلى الأخص اذا عرفنا أنه كان من النادر جدا أن يحظى مسلم بهذا الشرف العظيم ولكن ظروف الأحوال وضعت « أملريك » فى موقف الذى يملى ارادته على الخليفة فمنح الاذن وانتخب للمهمة السياسية « هوج كايسيريا » ومعه « جوفرى فولشر المعبدى » . وكان يسبقهما بين مظاهر العظمة الشرقية وزير الدولة حتى وصلوا إلى القصر الكبير ومروا فى دهاليز عجيبة وأبواب محروسة كان يقف أمامها العساكر السود يحيونهم بسيوفهم البيضاء ووصلوا إلى ساحة متسعة غير مسقوفة تحيط بها العقودات المرتكزة على أعمدة الرخام التى كانت مغطاة بأسقف الخشب المرصعة بالذهب والملونة بأزهى الألوان . أما الأرضية فكانت من الفسيفساء الثمين . وكانت أعين الفارسين تتسع إعجابا بذلك الذوق والجمال النادرى المثال فى كل خطوة من خطواتهم . وهنا شاهدا الفسقيات الرخامية والطيور الجميلة ذات الريش العجيب التى لم يريا مثلها فى العالم الغربى . . . . وأخيرا بعد انحناءات وانثناءات عدة وصلا إلى قاعة العرش حيث احتشد عدد عظيم من الحشم والأتباع بملابسهم المزركشة ثم أعلن مجىء الخليفة وسجد الوزير ثلاث مرات على الأرض وقد خلع سيفه احتراما لمولاه وتواضعا لسيده العظيم وعلى حين فجأة ازيلت الستار المزركشة بالذهب والجواهر وسحبت إلى الجانبين وظهر الخليفة من خلفها جالسا على عرشه الذهبى وفى ثياب الدولة

ثم قدم الوزير بخشوع الفارسين الأجنبيين وشرح فى كلمات بطيئة منخفضة الخطر الخارجى الذى يهدد البلاد وأشار إلى المنفعة التى تعود من صداقة ملك بيت المقدس . وكان الخليفة شابا صغيرا وقور الهيئة فرد على هذه الكلمة وأبان بعبارة مختصرة ما اعتزم عليه نحو صديقه العزيز . ولكنه لما طلب اليه أن يبسط إليه يده دليلا على حسن نواياه تردد أولا فظهر على الضيفين المسيحيين آثار الامتعاض التى انتقلت إلى جميع الحاضرين . وبعد

وقفة صغيرة بسط الخليفة يده بقفازها إلى «سيرهوج» وفى الحال تـكلم الفارس بلهجة صريحة قائلا : « مولاى ليس للحق ستار يستره ونوايا الأمراء الصادقة صريحة مكشوفة» فابتسم الخليفة مضطرا وقد شعر أنه خرج عن وقاره فخلع القفاز من يده ووضعها فى يد « سيرهوج » وأقسم أنه محافظ على كلمته عن طيب خاطر

ولاشك أن الخلفاء الفاطميين كانوا من أعظم الملوك الذين حكموا فى مصر وكان المعز نفسه حاكما قادرا أدار بنفسه البـلاد بمقدرة نادرة وكان نزيها عادلا يشرف على القضاء ويقود جيش البلاد الذى اعتمد عليه فى حكم مصر . والمعز هو الذى بنى مرفأ جديدا للسفن في المقس شمال مرفأى الروضة ومصر وبالقرب من الأزبكية الحديثة . ولقـد ظلت المقس مرفأ القاهرة أوميناءها حتى تحول النيل عن مجراه وظهرت بولاق على سطح الأرض وشيدت فى هذه الميناء ستمائة سفينة وقد شاهد « ناصرى خسرو » عدة سفن للمعز عام ١٠٤٧ م وكان طول السفينة الواحدة من أسطوله ٢٧٥ قدما و١١٠ عرضا . ومع أن المعز كان حازما محبا للعمل نراه ميالا إلى المظاهر الرسمية فـكان يذهب فى موكب فخم لحفلة قطع الخليج وكان يغدق فى الصرف على كسوة الـكعبة فى مكة المـكرمة — تلك المدينة المقدسة التى ابتدأت تعترف له بسيادته وكانت الـكسوة تعرض على الشعب فى عيـد الضحية . ويذكر عن المعز أنه هو الذى وضع تصميم بناء قصره ولم يكن جوهر سـوى كاتبه الأمين المشرف على تنفيذ مشروعاته . وكان المعز يهتم لـكي تظهر القاهرة بمظهر الفخامة والترف والغنى . وقدر المؤرخون ثروة الفاطميين بمالا يتصوره العقل . ومن ذلك ماقرأناه عن ابنتى المعز فقد تركت احداهما مليونا ونصف مليون ذهب (٢٫٧٠٠٫٠٠٠ دينارا) وتركت الأخرى غرفا وخزائن مملوءة بالجواهر الثمينة ومن هذه خمس حقائب من الزمرد وثلاثة آلاف آنيـة فضية و٣٠٫٠٠٠ قطعة من المنسوجات الصقلية ولزم لختمها بالشمع أربعون رطلا . وقد اشترى المعز لنفسه ستارا حريريا من فارس لم يقل ثمنه عن ١٢٫٠٠٠ جنيه وكان مرسوما عليـه أقطار الدنيا وعواصمها وصرفت زوجـه مبلغا كبيرا على مسجدها فى القرافـة وكان واضـع تصميمه الحسن بن عبـد العزيز الفارسي وتولي زخرفته رجال أهل الفن الذين جاءوا من البصرة وقد بنى على نحو بناء الجامع الأزهر بالقاهرة تحيط به الأروقة ذات الزخرفة البديعة التي تفنن فى عملها مشاهير الصناع فى ذلك الحين

ولقد كان من مزايا هرطقة الفاطميين تسامحهم في اظهار المقدرة الفنية . تلك التى كان يتحاشاها بنو العباس . وشجع الفاطميون على وجه التخصيص الصور الآدمية على

الجدران والأقمشة الخ فظهر نبوغ أهل الفن واضحا في هذا الجامع الذى احتوت مقصورته على أربعة عشر بابا مربعة وأمام كل باب قنطرة قوس على عمودى رخام ثلاثة صفوف مدهونة باللازورد والزنجفر والزنجار والسقوف ملونة بالأصباغ المتعددة من صنعة البصريين . وكان أمام الباب الأوسط (السابع) من هذه الأبواب قنطرة موسى مزوقة فى منحنى حافتيها بضع درجات تآلفت ألوانها حتى إذا تطلع اليها من وقف أمامها ظن أن الدرج المزخرف خشبا كالمقرنص . ولقد حاول كثير من النقاشين تقليد هذه الصناعة فلم يفلحوا وفى ماقرأناه عن النقاشين الكادانيين القصير وابن عزيز المقربين لليازورى سيد الوزراء أنه كثيرا ما كان اليازورى يحرض أحدهما على الآخر ليبز زميله ويتفوق عليه لأنه لم يكن أحب إلى الوزير من أن يرى كتابا مصورا أو صورة مزوقة وقد دعى ابن عزيز من العراق لان القصير كان يغالى فى أجرته ويزهو بآثار فنه وهو حقيق بذلك لانه كان في اخراج الصورة كابن مقلة فى الخط وابن عزيز كابن البواب . وكان اليازورى قد أحضر بمجلسه القصير وابن عزيز فقال ابن عزيز : « أنا أصور صورة إذا رآها الناظر ظن أنها خارجة من الحائط » فقال القصير : « لكن أنا أصورها فاذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة فى الحائط » فقالوا هذا أعجب فأمرهما أن يصنعا ماوعدا به فصورا صورة راقصتين فى صورة حنيتين مدهونتين متقابلتين هذه ترى كأنها داخلة فى الحائط وتلك ترى كأنها خارجة من الحائط فصور القصير راقصة بثياب بيضاء فى صورة حنية دهنها أسود كأنها داخلة وصوز ابن عزيز راقصة بثياب حمراء فى صورة صفراء كأنها بارزة فاستحسن اليازورى عملهما وخلع عليهما ووهبهما كثيرا من الذهب . وكان بدار النعمان بالقرافة صورة من عمل الكتامى ليوسف عليه السلام فى الجب وهو عار والجب كله أسود . ولم يزل جامع القرافة قائما إلي أن احترق فى السنة التى احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة عند نزول « أملريك » ملك بيت المقدس القاهرة أثناء حصاره لها

وكانت الاموال اللازمة لقصر المعز وللثلاثين ألف من أتباعه وما استوجبه مظاهر الترف تجبي كضرائب أو أقساط تجمع فى دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد اتفق بعض المؤرخين على انه فى يوم واحد جمع من مدينة مصر فى أعز مجدها مبلغ يتفاوت بين ٢٦٫٠٠٠ جنيه و ٦٢٫٠٠٠ جنيه من الضرائب وهذا التفاوت كان يتوقف على الموسم . وكان التعامل إذ ذاك بالعملة الفاطمية وليس بالعملة العباسية

ولما توفى المعز بويع ابنه العزيز بالخلافة (٣٦٥ هـ — ٣٨٦ هـ) وجعل يعقوب ابن كلس وزيرا له وفوضه النظر فى سائر الامور وأمر أن تكون جميع المكاتبات باسمه وأن تمضى الأوامر باسمه أيضا وقدكان أول وزراء الدولة الفاطمية بمصر

شاطر العزيز أباه صفاته السياسية فلم تضعف من همته مظاهر الترف وشيد أسطولا لمحاربة امبراطور « باسيل » وقام جوهر بعدة فتوحات فى سوريا عاد منها منتصراً ولا يمكن القول بأن سوريا خضعت تماما لحكم الفاطميين أما عن عهده فى مصر فكان سلما ورخاء ونودى باسمه فى صلاة الجمعة فى جميع المساجد من بلاد العرب الى المحيط الاطلنطى وكان يقف وسط الناس بالجامع الأزهر يخطبهم كزعيمهم الروحى وحاكمهم الزمنى

وكان للعزيز رغبة فى اقتناء الكتب فجمع منها جانبا كبيراً خصص لها قاعات فى قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال فى الاكثار من المؤلفات المهمة فى التاريخ والأدب والفقه

ومن أشهر آثار العزيز أنه أسس جامع الحاكم فى شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة هجرية بمعاونة وزيره « ابن كلس » وقد أتم جزءا كبيراً منه فى مدة سنة وخطب فيه العزيز وصلى صلاة الجمعة فى اليوم الرابع من شهر رمضان عام ٣٨١ هـ وكان يسير فى معيته أكثر من ثلاثة آلاف شخص وعليه طيلسان وبيده الصولجان ولما تولى العرش ابنه الحاكم أمر وزيره « يعقوب بن كلس » بأن يتمم بناء الجامع ويكمل زخرفته ومأذنتيه فبدأ عمله عام ٣٩٣ هـ وقدر للنفقة عليه أربعين ألف دينار وانتهى منه فى عام ٤٠٣ هـ وعند انجازه علق على سائر أبوابه أستارا ديبقية عملت له وعلق فيه تنانير فضية عدتها أربع وكثيرا من القناديل الفضية وفرش أرضيته بالسجاد التى عملت له ونصب فيه المنبر . وقال ابن عبد الظاهر : « وعلى باب الجامع الحاكمى مكتوب أنه أمر بعمله الحاكم أبو على المنصور فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة » وعلى منبره مكتوب أنه أمر عمل هذا المنبر للجامع الحاكمى المنشأ بظاهر باب الفتوح فى سنة ٤٠٣ هـ

وقد عرف أولا بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقيل له الجامع الأنور (كالأزهر) ولقد مرت عليه من حوادث الأيام مالا تقل عن حوادث جامع عمرو . فلما احتل الصليبيون القاهرة فى سنة ١١٦٧ م حولوا جزءا منه إلى كنيسة — وبأعادة الحكم العباسى واستيلاء صلاح الدين على مصر أبطل استعمال الأزهر وهدم صلاح الدين كنيسة جامع الحاكم وجعله المسجد الرسمى للدولة ثم استعمله مدة اسطبلا للخيول

وفى اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبعمائة زلزلت أرض مصر والقاهرة

فأصيب الجامع الحاكمى بسقوط كثير من بدناته وخرب أعالى مأذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه وفى العام التالى أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ماتهدم منه وإعادة ماسقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه و بيّضه حتى عاد جديداً . ولما كتب المقريزى خططه المشهورة فى ابتداء القرن التاسع الهجرى كان الجامع مخرباوآثار النار والخراب واضحة على جدرانه وسقفه مهشما ومنذ ذلك اليوم لم يقف المسجد على قدميه فكنت تارة تراه مصبغة أو مصنعا للحبال وطورا مقرا للعاطلين أو ممرا عاما أو ميدانا للعب وفى مدخله قهوة وضيعة أو محل لتخمير المشروبات أو حانوت خباز . والفترة السعيدة التى مرت عليه كانت لما اقيمت فى بعض أجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر وكانت لاتزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه السامية وهى تدل على سابق سموه المجيد وأيامه الزاهرة وفنه الجميل .

والجامع من الناحية الأثرية تحفة نادرة يعجب بها العالم الاخصائى وقد فحصه العالمان الأثريان « هيرز بك » و « ماكس فان برشم » وأثبتا أن مأذنتيه مجددتان اثر حادث زلزال عام ٧٠٢ هـ وهما من الطوب الاحمر ولم يهتم بيبرس بتجديدهما حسب طرازها الأصلى القديم . والمأذنتان من ناحية بنائهما من طراز مآذن عصر المماليك قاعدة مربعة تتحول إلى شكل مثمن الأضلاع ومنه إلى شكل اسطوانى يخترقها من الداخل سلم لولبى على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن عند مايدعو الناس الي الصلاة

الحاكم بأمر الله

وكان الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ — ٤١١ هـ) الذى تولى الخلافة وعمره إحدى عشرة سنة من أشهر الشخصيات التي ظهرت على مسرح التاريخ المصرى ... شخصية متناقضة عجيبة أجمع مورخوه على ضعف عقله وكان الابن الوحيد للعزيز من زوجته المسيحية الشقيقة للبطريقين من الطائفة الملكية — وقد تربى على يدى الخصى الصقلبى برجوان الذى أصبح فيما بعد الوصى عليه والذى استأثر بالنفوذ والسلطة حتى تجاوز المعقول بينما ترك جنود البربر والأتراك تتقاتل مع بعضها فى الشوارع وبعد سنوات قليلة قتل هذا الوصى فانفرد الحاكم بأمور البلاد وكان عمره لايتجاوز الخمسة عشر

بدأ الخليفة الشاب يظهر أمام الشعب بأعمال غير مألوفة وكان بوجهه العجيب و بعينيه الزرقاوين المخيفتين قد أرعب كل الناس وأخافهم بصوته وكان استاذه يطلق

عليه لقب «السحلية» لسهولة تداخله فى وسط رعاياه وكان يحب الظلام ويأمر مجلسه للاجتماع ليلا وكان يواصل ركوب جحشه فى الليل ويشق الشوارع والأزقة مستطلعا أفكار العامة مدعيا أنه يراقب موازين البيع ومكاييله. وتحول الليل بأمره نهارا والنهار ليلا ثم منع النساء من الخروج فى الليل كما منع الرجال من الجلوس فى الحوانيت وأصدر أوامره إلى صناع الأحذية بأن يمتنعوا عن صناعة أحذية النساء لكي يحتجبن داخل بيوتهن وحظر عليهن النظر من شرفات منازلهن أو التطلع إلى فوق أسطحهن. ثم أصدر أمره بمنع شرب الخمر فأريقت فى سائر الأماكن ومنع بيع الزبيب وألقى فى النيل شىء كثير منه وأحرقت أشجار العنب كما منع من بيعه إلا من اشترى أربعة أرطال فما دونها ومنع من عصره وديس فى الطرقات وحرم معظم الألعاب ومنها الشطرنج وأحرقت لوحاتها

أما الكلاب فكانت تقتل فى الطرقات أينما وجدت ولا تذبح الأغنام إلا فى أعياد الضحية والذين كانوا يضبطون ملتبسين باحدى الجرائم تفصل رءوسهم فى الحال أو يؤخذون إلى إحدى آلات التعذيب التى كانت تسليه. وكثيراً ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم أموراً مضحكة كاصداره المنشورات بمنعهم من أكل الملوخيا أو الجرجير والسبب فى منعه الناس من أكل الملوخيا مثلا أن معاوية بن أبى سفيان عدو الشيعة كان يحبها والدولة الفاطمية شيعية وأما منع أكل الجرجير فلأنه منسوب إلى عائشة أم المؤمنين !

ومن الصعب معرفة سبب وسائله الجنونية ففى بادىء الأمر أحسن إلى معاملة المسيحيين وأخيرا بالغ فى اضطهادهم فأهدم كنيسة القيامة بالقدس ووضع يده على ممتلكاتهم ومن العجيب أنه حاول ابطال الديانة الاسلامية واقامة ديانة جديدة فخبطت مساعيه فاحتقره الشعب ولم يعد يعبأ بدعياه المخالفة للشريعة. وألزم اليهود أن يكون فى عنق كل منهم جرس إذا دخلوا الحمام وأن يكون فى أعناق المسيحيين صلبان ومنع الناس من الكلام فى النجوم وأخيرا أمر اليهود والمسيحيين بالخروج من مصر إلى بلاد الروم وغيرها. وكان إذا خشى موظفا كبيرا دبر مكيدة لقتله ومن ضحاياه ابن القائد جوهر الذى قتله غيلة فى القصر وقد نكل بالكثيرين من المقربين اليه

ومما يدهش حقا أننا بينما نقرأ كل هذه التعليمات والمنشورات العجيبة نلو بعضها كان الحاكم يرى فى جامعه الذى يحمل اسمه يراقب زخرفته ونقوشه أو فى دار العلم التى أنشأها بجوار القصر الغربى سنة ٣٩٥ هـ والتى حمل اليها الكتب من خزائن القصور ووقف

عليها أماكن ينفق من ريعها وكان الغرض من دار الحكمة خدمة الناس فى المطالعة والدرس والتأليف وكانت بمثابة « برلمان » يجتمع فيه علماء الدين والعلم والأدب والتاريخ للمناقشة والتبحر فى كل العلوم

وباختصار كان هذا الحاكم حملا ثقيلا على عاتق المصريين والسوريين فلم يستطع أحد مقاومته وكان الجميع يكظمون غيظهم وينتهزون الفرص للتخلص من جنونه وأعماله وأخيرا علمت أخت الحاكم وقائد جيشه أن الحاكم ينوى قتلهما فعمدا إلى اغتياله قبل أن يغتالها فاخذا الاحتياطات الممكنة . فلما كان لليلتين بقيتا من شوال سنة عشر وأربعمائة فُقد الحاكم وقيل إن أخته قتلته وكان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر وكانت مدة خلافته خمسا وعشرين سنة وشهرا . وقد ذهب بعض المؤرخين أن أخته لم تقتله بل الذى قتله رجل من بنى حسين ثار بالصعيد وأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله غيرة لله وللاسلام . وقد خشى الناس عودته زمنا طويلا ويقال إن بعض الدروز لا يزال إلى اليوم يعتقدون بانه سيعود فى يوم من الأيام !

وتولى بعده ابنه الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على وكان أول أعماله أنه أباح كل مامنعه أبوه الحاكم فشرب الخمر ورخص فيه للناس وفى سماع الغناء وأكل الملوخيا وجميع الأسماك . وكان ضعيف الرأى منصرفا إلى اللهو وفى عهده صار النفوذ فى أيدى رجال بلاطه يعملون بدسائسهم ومكائدهم ويمنعون أهل النصح من الوصول إلي الخليفة وكانت الفتن العسكرية كثيرة لا تخمد فتنة حتى تعقبها أخرى وضاقت أبواب الرزق وعزت الأقوات وكثر الاضطراب وتفاقم الأمر من شدة الغلاء فصاح الناس بالظاهر « الجوع الجوع ياأمير المؤمنين لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك فالله الله فى أمرنا » واشتدت الأزمة حتى أنه لما عمل سماط عيد النحر بالقصر هجم العبيد على السماط وهم يصيحون الجوع ونهبوا كل ماوجدوه ونهبت الأرياف وكثر طمع العبيد وأخذ هؤلاء فى طلب وجوه الدولة فقبعوا هؤلاء فى دورهم

الرحالة ناصرى خسرو

وبوفاة الظاهر تولى المستنصر ابنه (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) وكان سنه عند مبايعته لا يزيد على سبع سنوات وكانت أمه جارية سوداء اشتراها أبوه من تاجر يهودى اسمه أبو سعيد سهل بن هارون . وكانت أحوال البلاد قد هدأت نوعا فى بعض أيامه كما شهد الرحالة « ناصرى خسرو » في زيارته لمصر بين عامى (١٠٤٧ — ١٠٤٩ م) فقال انه لم ير أمنا

او اطمئنانا فى أى بلدكاللذين رآهما فى مصر . وكان الخليفة المستنصر محبوبا بين الجميع ولم يخش أحد فى عصره بطش الحكومة أوميلا للسلب وكان النظام سائدا فترك الصيارفة وتجار الجواهر حوانيتهم بدون أن يجهدوا أنفسهم فى قفل أبوابها فى وجه اللصوص . وكان تعداد الحوانيت فى القاهرة أكثر من عشرين ألفا كلها ملك الخليفة وكانت تعود اليه الحانوت الواحد بعشرة دنانير شهريا . وكان يمتلك أيضا عشرين ألف منزل يتألف الواحد منها من ستة طبقات وكان يستأجر الواحد بسبعين جنيها فى السنة . وكانت هذه المنازل تشيد بالدبش الجيد وليست بالطوب الأحمر ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة غناء . ولم يكن للمدينة أسوار فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزاؤه ولم يكن ابتدىء فى اقامة السور الثانى (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) وكانت تلك البيوت العالية التى وصفها الرحالة مبنية على نسق الاستحكامات وكل قصر منها أشبه شىء بقلعة مصغرة وكانت المسافة بين القاهرة ومصر تقدر بميل واحد مغطاة بالبساتين وتشغلها منازل الضواحى وتغمرها مياه النيل أثناء الفيضان فيخيل أنها بحر لجب

وقد شاهد « ناصرى خسرو » أحد الاحتفالات العظيمة فى القاهرة وهى حفلة قطع الخليج فى مصر وقد حضرها المستنصر بنفسه . فقد ركب الخليفة جوادا على رأس عشرة آلاف خيال مطهمة سروج جيادهم بالذهب والجواهر الثمينة ومغطاة بالحرير الثمين وقد زركشت حافاتها باسم الخليفة وتبع هذه الجياد العدد الجم من الجمال التى حملت الهوادج النفيسة وخلفها البغال التى نالت نصيبها من تلك الجواهر أيضا

وسار لواء من الجند يتبعه لواء آخر حتى وصلوا إلى فم الخليج فاصطفت القوات بملابسها الملونة صفا خلف صف على طريقة الجند . فرقة تتلوها فرقة طبقا للترتيب الذى كان موضوعاً لهذا الاحتفال . كانت فرقة قتامة البربرية الأولى وتعدادها عشرين الف رجلا وهم أحفاد جنود المعز لدين الله عند ماجاء بهم من قيروان ثم فرقة الباطلية أبناء المغرب وعددهم ١٥٠٠٠ وهم الذين كانوا فتحوا مصر قبيل مجىء المعز ثم فرقة المصامدة وأبناؤها سود البشرة تعدادهم عشرين الف ثم المشارقة وهم خليط من الترك والفرس المولودين بمصر وعددهم عشرة آلاف ثم فرقة عبيد الشراء وكان عددهم ثلاثين الف فبدو الحجاز وعددهم ١٥٠٠٠ منهم خمسة آلاف فارس ومع هؤلاء خدم القصور من العبيد والاتباع وقد بلغوا ثلاثين الف وحدهم . ثم فرقة أبناء الأمراء والسلاطين الذين وفدوا على مصر من بقاع العالم كالمغرب واليمن والروم والنوبة والحبشة ومن بينهم أبناء خسرو الذين نزلوا القاهرة مع أمهم قادمين من دلهى ثم أمراء جورجيا وأطفال

خاقان تركستان وكذلك التف حول الخليفة عدد عظيم من الشعراء والأدباء والعلماء من المصريين وغيرهم

وكان الخليفة مهيب الطلعة حسن الهيئة حليق الذقن مرتديا عباءة طويلة من الحرير الأبيض الناصع راكبا مطيته وقد التف حوله حرسه الخاص المؤلف من ثلاثمائة من المشاة الديلم والعجم فى لباسهم المزركش الأغريقى يحملون حرابهم وفؤوسهم بينما حمل أحد الموظفين مظلة لوقاية الخليفة وسار بجانبه الخصيان هنا وهناك يحرقون البخور وأخشاب العطور. وفى أثناء سير موكب الخليفة الى فسطاطه الحريرى كان كل الخلق يسجدون له . ولما أعطى الخليفة اشارة الفتح بدءوا بأدواتهم يحفرون وفاضت مياه النيل ثم ركبت الجموع المحتشدة قواربهم النيلية وهم جذلون مبتهجون

وكان « ناصرى خسرو » سعيدا أثناء إقامته فى مصر فقد تبعت مدة اقامته سنو نحس وسوء قاست القاهرة فى أثنائها أهوالا شديدة منذوضع أساسها وقد استطاع الوزير القادر اليازورى كبح جماح الأحزاب السياسية مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على المجاعة بتخزينه كميات عظيمة من الغلال بمخازن يوسف بالقرب من مصر العتيقة وهى التى ذكرها الرحالة «بنيامين» عام ١١٧٠م ولكن بعد أن قبض الخليفة على وزيره ونفاه ثم سممه (١٠٥٨ م) كانت مخازن غلال قد نضبت ولم تجد الفتن الداخلية من يقمعها . ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيرا من وزرائه فى مدة تسع سنوات فضاعت هيبة الحكومة لدى الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها الجند الاتراك الذين اتفقوا مع البربر وطردوا الجنود السود من القاهرة . وهؤلاء ثبتوا أقدامهم فى بعض نواحى الوجه القبلى فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضا الاستيلاء على الدلتا فأفسدوا طرق الرى ليفتكوا بالفلاحين بينما انفرد الأتراك بالعاصمة فأتلفوا قصور الخليفة الغناء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من المجوهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم وبعد ما انتهوا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ما وجدوه فيها من التحف ثم عمدوا الى خزانة الكتب فأخرجوا منها آلافا من الكتب فى جملتها ٢٤٠٠ ختمة قرآن وقيل أن عدد مؤلفاتها كان مائة الف . وأخذ الناس مغلفاتها لتصليح نعالهم ولإيقاد نيرانهم وما لم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب

وشطر القطر الى ثلاثة مسارح : مصر السفلى وكان ناصر الدولة حصر حبوبها فمنع شحنها الى القاهرة ومصر العليا التى احتكرها السود ثم القاهرة التى قطعت عنها

موارد الحياة وهددت بالمجاعة ومن سوء حظ البلاد تقصير النيل فى فيضانه المعتاد مدة خمس سنوات متواليات فامتد الجوع الى سنة ٤٦٤ ه وكان معظمه سنة ٤٦٢ ه ثم توالت القلاقل التى اقتضت الأسراف فى الحبوب ورافق كل ذلك اشتغال الحكومة بسياستها الداخلية عن الزراعة فندرت الحنطة و بلغ ثمن الأردب الواحد مائة دينار والقطة ٣ دنانير والكلب ٥ دنانير إن وجد ورافق هذا الغلاء و باء مكث سبع سنين فلم يبق من يزرع وأخيراً لما لم يجد الناس حيوانا يقتلوه ليأكلوه اختطف بعضهم بعضا و باع القصابون لحم الانسان ثم جاء الطاعون فكان يحصد بمنجله أسرة بعد أسرة . و إذا اجتمع الجوع والمرض لم يعرفا غنيا أوفقيرا الكل أمام جبروتهما سواء وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة فى الحمامات العامة واضطر الخليفة فى نهاية الأمر بعد ماتخلى عنه رجاله وحاشيته حتى وزوجه و بناته وقد هجرنه إلى بغداد أن يعيش على رغيفين تصدقت عليه بهما ابنة عالم على أن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء وقد قاست مصر أثناءها مالم تره فى أشد عصورها ظلمة وكان المستنصر قد التجأ إلى حاكم سوريا الأرمنى « بدر الجمالى » فكتب إليه للمجىء بجيشه إلى مصر ليوليه عليها فقبل بدر المجىء إليها وكان عبدا رفعته كفاءته الممتازة إلى المراكز السامية فولى حاكية دمشق ثم عكا وكان حينما استدعاه المستنصر رجل الساعة

بدر الجمالى

سافر بدر الجمالى من سوريا فى جماعة من رجاله الشجعان فوصل إلي عكا ومنها أبحر إلى مصر فبلغها ولم يشعر به أحد ونزل بين تنيس ودمياط . وفى يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأولي سنة ٤٦٧ ه دخل بدر الجمالي القاهرة وقابل الخليفة . وفى إحدى الليالى استدعى أمراء البلاد إلى وليمة أعدها لهم فى منزله و بيّت مع أصحابه أن القوم إذا أجنهم الليل فانهم لابد يحتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم إلى الخلاء يقتل هناك فصار الأمراء اليه وظلوا نهارهم عنده و باتوا مطمئنين وماطلع ضوء النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه واستولى أصحابه على جميع دور الامراء فقويت شوكته وعظم أمره وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقور وقلده وزارة السيف والقلم وزيد فى ألقابه لقب « أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين » . ولما أعاد النظام إلى نصابه فى القاهرة اتجه قاصدا مديريات القطر ليقضى على فتنها فأخضع البربر ثم السودانيين فالعرب حتى عم العدل من الاسكندرية إلى أسوان . وأعاد الطمأنينة إلى الفلاحين الذين

رجعوا إلى أراضيهم لاحيائها بعد بوارها وازداد الدخل وشعرت البلاد بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية وغيرها وعادت مكة إلى مبايعة المستنصر بعد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي فى بغداد ولم يعد أمام بدر الجمالى من يقف فى سبيل ارادته فى اصلاح البلاد . وقد استفادت القاهرة كثيرا من سياسة ذلك الأرمنى العظيم فمنذ مضي قرن على بناء الخليفة العزيز القصر الغربى ومنظرة اللؤلؤة لم يضف إلا الشىء القليل على عمارته . وجاء المستنصر ففضّل اقامته فى القصر الذى بناه بالمطرية (هليوبوليس) حيث أقام جوسقا على طراز الكعبة . . والواقع أن كل هذه الأعمال لاتعد شيئا يذكر بجانب ماقام به بدر الجمالى

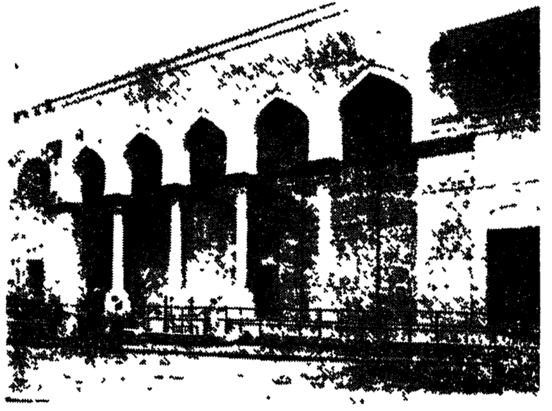
كان أول شىء وجه اليه همته تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية أو ثورات الجند الداخلية وكان سور القاهرة القديم قدتهدم واختفى أمام نمو المدنية التى ازدادت وزحفت خارج أبوابها الثلاثة التى بناها جوهر فقام بدر بهدم هذه الأبواب و بناها من حجارة (١١٨٧ — ١١٩١ م) وجعلها تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلا أخذ حى الروم فى الجنوب إلى داخل السور وكان فى خارجه . ثم أقام السور من لبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد . وزاد عند باب القصر الرحبة التى تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر وكان إلى عهد قريب توجد بعض آثار بدر الجمالى لكنها تهدمت ولم يبق منها أثر . أما الأبواب الثلاثة فلم تتغير إلى يومنا هذا غير أن باب زويلة خفض قليلا من أبراجه لكي يتسع لبناء مأذنتي جامع المؤيد أثناء القرن الخامس عشر الميلادى وهذه الأبواب الثلاثة (ولو أنها بيزنطية العمارة وليست عربية) تعتبر من أعظم آثار العصر الفاطمى وهى كما يقول عنها المؤرخ الأرمنى أبوصالح من تصميم يوحنا الراهب الذى وضع هندستها مع الأسوار ولكن يوجد رأى آخر يقول أنه لوصح وكان هذا الراهب هو الذى صمّم السور فان هذه الأبواب النورمانية ليست من عمله . انما بناها ثلاثة اخوة وفدوا من أدسا المدينة الأرمنية التى عرفها بدر أثناء فتوحاته وقام كل أخ منهم ببناء باب . ومما يقوى هذه الدعوة ليس طرازها الخاص بالمدرسة السورية البيزنطية فقط بل ووجود بعض الحروف الرومية على الحجارة . والفن المعمارى لهذه المدرسة له طراز خاص به يتميز به على العمارات الأخرى

وتمتعت مصر أكثر من ستين عاما بمزايا حكم هذا الأرمنى الذى استمر يعمل بنشاط إلى أوائل ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ وتوفى فى القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد أن حكم مصر



باب الفتوح
(٤٨٠ هـ — ٧٨٧ م)

واجهة مسجد الصالح طلائع
(٥٥٥ هـ — ١١٦٠ م)
وفقا لمشروع تجديده الذى
وضعه الأستاذ محمود أفندى
احمد مدير لجنة حفظ الآثار
العربية



حكما مطلقا عشرين سنة و بعد وفاته ببضعة أيام توفى الخليفة المستنصر فى الثامن عشر من الشهر نفسه وعمره ٦٧ سنة وخمسة أشهر قضى منها ستين سنة فى منصب الخلافة .
وكان الجمالى قبل وفاته أوصى بأن يعتلى كرسى الوزارة من بعده ابنه الأفضل وكان فاضلا حكيما تدرب على يد أبيه وكان يساعده فى آرائه وقد تمتع بجميع الألقاب والامتيازات التي كانت لأبيه أمير الجيوش وقد ظل فى منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الآمر عام ١١٢١ م وتولى الأمر من بعده ابنه « أبوعلى » عام ١١٣١ ولما قتل بدوره أيضا وهو فى طريقه إلى ميدان لعب الكرة خلفه أحد مماليك الأفضل من أبناء الأرمن واسمه « يانيس » وجاء من بعده « بهرام » المسيحى الأرمنى الذى ظل فى كرسى الوزارة حتى عام ١١٣٧ م

الصالح طلائع

ومنذ أيام بدر الجمالى كانت مصر تحكمها طائفة الوزراء وليس الخلفاء وقد حاول « الآمر » أن يخرج عن هذه القاعدة فتقلد بنفسه منصب أمير الوزارة مدة لكن لم تفلح تجربته وفشل فيها مع الراهب القبطى « ابن قنا » الذى اغتر بمكانته عند الخليفة وانتهت حياته بقتله . ولظلم « الآمر » بغضه شعبه فسعى أمير الباطنيين (و يدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين) فى قتله وانفذ إليه بعض رجاله وقتلوه فى الثانى من ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ وهو فى طريقه إلى زيارة معشوقته البدوية فى جزيرة الروضة وكان عمره ٣٥ سنة ومن خيراته التى تذكر له بناؤه لمسجد الأقمر بين القصرين

وفى أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن رزيك والى الأسموبين بجموعه إلى القاهرة واستولى على الوزارة وتلقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات «الفائز» عام ٥٥٥ ولم ير خيرا فى أيام حكمه

وأقام الصالح بن رزيك فى الخلافة «العاضد لدين الله» وأعطى ابن رزيك لنفسه لقب الملك الصالح الذى اشتهر به وكان شاعرا مثقفا محبوبا وكريما سياسيا لا يزال مسجده قائما أمام باب زويلة وقد عمل كل ما فى وسعه لكى يبعد عن مصر تلك الزوبعة التى هددت الموقف السياسى فى سوريا وفلسطين . أما نساء القصر فقد رأين فى الملك الصالح رجلا فاضلا يسعى لتقوية نفوذ بلاده عاملا باخلاص لرفع شأنها فأحطنه بمؤامراتهن لكى يتخلصن منه وفى مقدمتهن عمة الخليفة فأرسلت رجالها الذين كمنوا له فى دهاليز القصر وضربوه حتى سقط إلى الارض على وجهه وحمل جريحا وكان آخر ما نطق به

ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقدس من أيدى الفرنجة ونصيحته لابنه أن يحذر «شاور» الحاكم العربى للوجه القبلى . وقد كان الندم والحذر فى محلهما إذ خلع شاور ابن الملك الصالح واسمه محيى الدين رزيك وكان قد استوزره العاضد واستخلف بعده شاور عام ١٢١٣ م ودخل فى السنة نفسها ملك بيت المقدس البلادالمصرية

وقبل الحديث عن استيلاء الصليبيين على القاهرة وغزوة صلاح الدين ونهاية الدولة الفاطمية بوفاة الخليفة العاضد يجب أن نقول شيئا عن مخلفات الفاطميين فى المدينة التى أسسوها والتى أصبحت فيما بعد العاصمة الزاهرة للدولة المصرية . فمن بين مبانيهم الكثيرة لم يبق منها إلا الأبواب الثلاثة وجزء من سور المدينة و بقايا أربعة مساجد من ستة أقامها الفاطميون هي الجامع الأزهر والجامع الحاكمى والجامع الأقمر وجامع المقس (الأنور) والجامع الطافرى المعروف بجامع الفكاهين وجامع الصالح طلائع بن رزيك . أما القصور فقد اندثرت ولم يستعملها أحد ممن خلفهم فآلت إلى الخراب . وعنها قال الشاعر عمارة اليمنى مرثيته المشهورة ومنها :

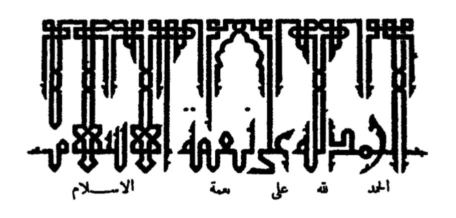
ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة	لك الملامة ان قصرت فى عذلى
بالله در ساحة القصرين وابك معى	عليهما لاعلى صفين والجمل
وقل لأهليهما والله ماالتحمت	فيكم جراحى ولاقرحى بمندمل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم	واليوم أوحش من رسم ومن طلل

واختفت دار العلم ودار المأمون وقصر الوزراء و بقية المنشآت ومنازل اللهو الكثيرة التى أقامها خلفاء الشيعة ورجال حاشيتهم فى القاهرة . ومن بين جميع آثارهم الباقية لليوم وأقدمها جامع الحاكم لأن الأزهر لم يحتفظ إلا بشىء قليل جدا من عمارته القديمة أو زخارفه الأصلية وجامع الأقمر الذى بناه الخليفة الآمر فى بين القصرين كان أول مسجد بنى فى مصر من الحجارة إذ كانت تبنى فى بادىء الأمر من الطوب . وقد شيدت واجهة هذا الجامع بالدبش المنحوت بدقة وعقوداته الداخلية كانت من الطوب وأقيمت على أعمدة من الرخام . وقد نقش على افريزه بالكوفية اسم الآمر وتاريخ بنائه عام ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) كما يوجد تاريخ تجديده على يد الأمير يلبوجا السالمى عام ٧٩٩ هـ . وأما جامع الوزير طلائع بن رزيك المواجه لباب زويلة فيبين تقدم فن الزخرفة والمهارة فى النقش ولو أنه تهدم عن آخره ولم يبق منه إلا هيكله الأصلى فقط ويحتمل أن تجديده الأخير قد أعاد اليه رونقه السابق . ذلك التجديد الذى وضع تصميمه الاستاذ المهندس محمود افندى أحمد مدير لجنة حفظ الآثار العربية

وليس من السهل أن يتصور الانسان كيف آلت كل هذه المخلفات الثمينة — مخلفات الفاطميين — إلى الخراب فهى لم تكن شيئا قليلا بل كانت مدينة فى مجموعها إذا قصرنا القول على القصر الكبير وقصر الذهب (أو قاعة الذهب) ودواوين الحكم والمناظر الثلاث وقصر الشوك وقصر الزمرد وغير ذلك من مشتملات القصر الشرقى الكبير . أضف اليه القصر الصغير وقاعاته ومناظره ودور العلم والضيافة والمناظر المبعثرة فى الضواحى وعلى الخليج الكبير وغير ذلك

ومن المناسب أن يلم القارىء بما كان من أمر القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية بموت آخر خلفائهم العاضد لدين الله (٥٦٧ هـ) فقدأ بعد الوزير « قراقوش » جميع الفاطميين عن هذه القصور واستولى عليها السلطان صلاح الدين وتسلم ما كان فيها من الخزائن والدواوين والأموال والنفائس واستمر البيع فيما وجد فيها عشر سنين وأخلى القصور من سكانها وأغلق أبوابها ثم ملكها أمراءه وأقطع خواصه كثيرا من دورهم ورباعهم وباع بعضها ثم قسم القصور فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه وأسكن أباه نجم الدين فى قصر اللولؤة على الخليج وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن فيها الأمير موسك والأمير أبو الهيجاء السمنى .....

ولم يمض الكثير على تلك القصور الفيحاء حتى شغلها العامة بعد أن سكنها الخلفاء والأمراء . لكن القاهرة التى وضع أساسها جوهر ظلت تتطور عاما بعد عام حتى بلغت فى نهاية أيام الفاطميين شأنا كبيرا من التقدم وأصبحت كالمدن الكبيرة تكتنفها الشوارع والأسواق وتتوسطها الحدائق الغناء وتشتمل على الدور والحمامات والمساجد والمدارس والوكالات وسترى ذلك مفصلا ان شاء الله



قاهرة صلاح الدين

هـذه بلدة قضى الله يا صا ح عليها كما ترى بالخراب
فقف العيس وقفة وابك من كا ن بها من شيوخها والشباب
واعتبر إن دخلت يوما إليها فهى كانت منازل الأحباب

نحن الآن فى القاهرة فى مستهل القرن الثالث عشر وقد أصبحت مدينة تختلف كل الاختلاف عن ذلك المقر الملكي الفاطمى . وأضحت تشغل مساحة أوسع وتحتوى على عدد كبير من المبانى الجديدة ذات طابع هندسى كان مجهولا فى مصر من قبل. وصارت لها قلعة تشرف عليها من جبل المقطم . هذه التغييرات كان الفضل فيها لصلاح الدين غير أنه لم يعمر ليراها تتم أثناء حكمه . ولكي نبحث بالتفصيل عن الأسباب التى أدت إلى فتح مصر على يد ملك بيت المقدس الصليبي ثم طرده الفرنجة بفضل جيوش نور الدين ملك دمشق سنضطر الى خوض صفحات التاريخ

باب زويلة

نشأ العنصر الأساسى فى الموقف السياسى عن تجزئة الولايات السورية التى كانت خاضعة للنفوذ الفاطمى بين قوتين متنافستين النفوذ الصليبي والأتراك السلجوقيين . ثم تسرب النفوذ العسكرى الى الضباط الأتراك الذين كانوا فى خدمة الخلافة العباسية ببغداد مما أدى الى تقوية شوكتهم تدريجيا حتى أخضعوا لسلطانهم بلاد فارس وبلاد العراق وذلك فى أواسط القرن الحادى عشر فصار الخليفة العباسى آلة يلعبون بها ثم سطوا على النفوذ الفاطمى فى سوريا واستولوا على دمشق فى سنة ١٠٧٦ م ولم يستطيعوا الاستيلاء على مصر الفاطمية لوجود الوزير الأرمنى « بدر الدين الجمالى » فيها وقد استطاع بماله واستعداده الحربى أن يصدهم عن البلاد . وفى أواخر ذلك القرن تفككت عرى الدولة

السلجوقيــة ولم تبق منها الا بقية فى سوريا كانت تحت حــكم « أتا بــك زنكى » وابنه نور الدين . وهذه الدويلة الصغيرة لم تكن لتزعج الفاطميين كما أزعجتهم دولة السلجوقيين المضمحلة . ونشأت فى سوريا حالة تعقيد بتدخل النفوذ الصليبي واستيلاء المسيحيين على بيت المقدس فى سـنة ١٠٩٩م ثم تأسيس المملـكة اللاتينية هنالك . ومنذ ذلك التاريخ ابتدأ انسحاب الحاميات الفاطمية الى مصر وحاول الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى أن يحل الموقف الناشىء بمفاوضات سـياسية لـكنها لم تفلح . فقام بعدة معارك فى فلسطين لـكنها انتهت كلها بالفشـل وكانت نتائجها سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين عام ١١٠٩م وصيداء عام ١١٢٤م ثم عسقلان آخر النقط العسكرية الفاطمية عام ١١٥٣م وأصبح الصليبيون على حافة الحدود المصرية كما أصبحت قلعتهم فى الـكرك ومونتريل على البحر الميت تتصل بمواصلاتهم فى داخلية البلاد السورية

إذن نحن الآن أمام قوتين متعادلتين الأولى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس والثانية الدولة التركية فى دمشق والاثنتان على كفتى ميزان لا تستطيع احداهما أن تقهر الثانية وكانت مصر فى الواقع مفتاح الموقف إذ لو استطاعت احدى القوتين الاستيلاء على وادى النيل لتمـكنت من أخذ منافستها من الأجناب وتكسب السيادة عليها . وكان من الطبيعى أن تتحالف الدولتان المسلمتان فى دمشق والقاهرة لقهر الدولة المسيحية لولا اختلاف المذهب الدينى الذى كان يحول دون التحالف . فقـد كان نور الدين سُنّيا محافظا يرى الشيعيين مارقين عن الدين . ولم تجـد المفاوضـات السياسية بينهما أى نفع حتى وصلت الجيوش الصليبية إلى الأراضى المصريه ودخلت القـاهرة وإذ ذاك تغلبت على نور الدين النعرة الدينيــة فتـداخل فى الأمر . وكان بدء التداخل نتيجة للنزاع الذى قام بين الوزيرين المتنافسين فى مصر فقام أحدهما وهو ضرغام وطـرد منافسه « شاور » الذى لجأ مستنجدا بنورالدين وفى الوقت نفسه رأى ضرغام أن يتحد مع ملك بيت المقدس « أملريك » وكان هـذا قد جمع جموعه واستولى على بعض الأراضى المصرية مطالبا بالجزية التى اعترف بها الفاطميون أثناء ضعفهم وكانوا يدفعونها لجارنهم المسيحية

وفى عام ١١٦٤م (٥٥٩ هـ) عاد « شاور » بصحبة جيش سورى يقوده «شيركوه» ومعه ابن أخيه صلاح الدين فهزم ضرغام فى بلبيس وسارت الجنود المنصورة إلى القاهرة حيث أراد ضرغام أن يصد هجوم شيركوه ولـكن هذا مع شاور كانا قد استوليا بجنودهما على مصر وقد كان ضرغام عربيا باسلا له منزلة ساميــة عند مواطنيه وحارب الصليبين

فى غزة وكان قائدا لفرقة البرقية إحدى فرق الجيش الفاطمى . وقد أضاع كل أموال الأوقاف بسبب ما آربه السياسية وحاجاته العسكرية فانفض من حوله أعوانه وتخلى عنه الخليفة وكانت آخرة ضرغام على يد شعب القاهرة إذ ثار عليه فاحتز رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة (وفى رواية أخرى بالقرب من باب زويلة) وتم النصر لشاور منافسه بينما تركت جثة ضرغام تنهشها الكلاب

على أن شاور لم يكد يتخلص من منافسه ضرغام حتى بدأ بمكايده يدبرها للتخلص من العهود التى اتفق عليها مع شيركوه ومن معه فأرسل إلى « أماريك » ملك بيت المقدس يطلب منه المساعدة لطرد السوريين . وكان هذا لا يستطيع رفض ذلك الطلب إذ كان يتطلع إلى امتلاك مصر فلما بلغه دعوة شاور ضمن أن يكون المصريون إلى جانبه فأقدم

وبعد مطاحنات بين الجيشين بالقرب من بلبيس انتهى الأمر بالصلح على أن تخرج الجيوش الصليبية وجيوش شيركوه من مصر . وفي الواقع كان خروج جيش شيركوه من بلبيس فى اكتوبر سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) أشبه شىء بالنصر . وكانت هذه الأغارة الصغيرة من جانب شيركوه ونور الدين فاتحة لاحتلال مصر فيما بعد كما سنرى

عادت الجنود السورية إلى دمشق وتحدثوا عن ضعف الحكم الفاطمى . وسهّل قواد الحملة السورية لنور الدين أمر فتح مصر وأعادها لسلطانهم وبينوا له أهميتها . وكان السلطان على حذر من تنفيذ ما آربه لكنه لما رأى الدسائس دائرة بين « أماريك » وشاور قام فى الحال بتجهيز حملته الثانية على مصر . . .

ولما علم نور الدين أن الصليبيين على نية غزو مصر جهّز حملته التى وصلت إلى شرق النيل عند اطفيح فى أوائل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢ هـ) وعبرت إلى البر الغربى من هناك وكان جيش « أماريك » قد وصل وانضم إلى جيش شاور

وبعد حين كان أحد الجيشين عند الفسطاط وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج والآخر وهو الجيش السورى عند الجيزة فى البر الغربى .. واستولى « أماريك » على القاهرة وأمضى معاهدة مع الخليفة العاضد الذى أقسم على اعطاء الفرنج مائتى ألف دينار عاجلا ومثلها آجلا ثمنا لمساعدتهم

أما « شيركوه » فقد تقهقر إلى مصر العليا حتى بلغ « البابين » فى جنوب المنيا وهناك حطم الجيش المصرى وهزم جيش الفرنج ولم يجسر « شيركوه » على اللحاق بأعدائه لقلة عدد جنوده . فلما انتهى من معارك الصعيد أرسل صلاح الدين إلى

الاسكندرية فثبتت مدة طويلة أمام جنوده وأخيرا وقعت فى يده بعد ٧٥ يوما

ثم تعاقد الصليبيون مع شيركوه على أن تخلى الاسكندرية وأن يخرج الجيشان من مصر وأن يأخذ شيركوه كل ما استولى عليه من الأموال ويزيد عليه خمسين الف دينار وكذلك انتهى دور الحرب الثانى وعادت الجيوش إلى سوريا وفلسطين وترك الفرنج مقيما لهم فى القاهرة وأبقوا منهم حراسا على أبواب القاهرة وضربوا على مصر جزية نحو مائة ألف دينار كل عام وتركوا حامية منهم فى مسجد الحاكم ثم رحلوا عن مصر وقد عرفوا مواطن الضعف فيها فلما عادوا اليها بعد نحو سنة من امضاء المعاهدة كانوا مبيتين ضمها إلى أملاكهم نهائيا

ولم يلبث المصريون أن عرفوا نيتهم فالتفت جماعة منهم حول الخليفة العاضد وأكثرهم من أعداء شاور وأرسلوا إلى نور الدين لكى يأتى لمساعدة المصريين على أعدائهم ولما كان نور الدين ينتظر هذه الفرصة أخذ يعد جيشا لغزو مصر للمرة الثالثة

وصل شيركوه وصلاح الدين إلى مصر فى أوائل يناير سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) وكان « أملريك » ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفا يستنجز شاور وعده فى المال المتفق عليه . فلما وصل جيش نور الدين ورأى « أملريك » موقفه الحرج وهو بين شاور من جهة والجيش الاسلامى المغير من جهة أخرى لم يستطع البقاء وتخلى فى الحال عن البلاد المصرية عائدا إلى فلسطين أما « شاور » فقد حاول استمالة «شيركوه» بالملق والمداهنة فلم نفلح وقبض عليه صلاح الدين ثم أمر الخليفة العاضد بقتله وطلب رأسه فأطيع أمر الخليفة وتخلصت مصر من رجل داهية لعب دورا عظيما فى السياسة المصرية فى القرن الثانى عشر

واختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور القائد أسد الدين شيركوه ليكون وزيرا محله ولقبه الملك المنصور وجعله أميرا لجيوشه غير أنه مات بعد شهرين وخمسة أيام . فعمد الخليفة إلى اختيار صلاح الدين ليحل محله فى الوزارة فتقلدها عام ١١٦٩

صلاح الدين

والآن أصبح البطل صلاح الدين وزيرا لمصر وأميراً لجيوشها ولقب بالملك الناصر كان صلاح الدين فى منصبه الجديد هذا وزيراً للخليفة الشيعى وفى نفس الوقت كان واليا من قبل ملك دمشق السنى ولذلك كان موقفه حرجا ومبهما ومع ذلك فقد استطاع أن يمضى عامين وهو موفق كل التوفيق فى منصبه السامى الشاذ وكأنه كان على علم تام بأن الدولة الفاطمية فى طريقها إلى الانحلال والزوال .

واتفق أن مرض العاضد واحتجب فى قصره فرأى صلاح الدين الفرصة ممكنة لقطع الخطبة العلوية بمصر وقام بالخطبة للخليفة العباسى رجل أعجمى عرف بالأمير العالم فلم يحدث استنكار من جانب الناس فأمر صلاح الدين الخطباء جميعا بأن يقطعوا خطبة العاضد ففعلوا وتم الانقلاب بدون حادث . ولم يعلم العاضد بذلك الانقلاب لاشتداد مرضه عليه حتى توفى يوم عاشوراء . ولما توفى جاس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة ومافيه لحفظه «بهاء الدين قراقوش» وكان قد رتبه وزيراً قبل موت العاضد . ثم ألقى القبض على جميع من بقى من الأسرة الفاطمية واعتقلهم فى مكان بعيد من قصورهم الزاهرة التى وزعها على أمراء جنده وباع مماليك العاضد وعبيده وفرق بعضها بين أرباب دولته ـ ووضع صلاح الدين يده على المكتبة النفيسة التى بلغت مجموعتها ١٢٠٫٠٠٠ من الكتب النفيسة ومنحها لمستشاره العالم القاضى الفاضل ويقال إن قسما من هذه المكتبة محفوظ الآن فى مكتبة ليدن بهولندا

وعاد سلطان العباسيين مرة ثانية إلى مصر واندثر ماخلفه الفاطميون على مر الأيام ولم يبق من آثارهم إلاماخلفوه من المساجد

وقضى البطل صلاح الدين معظم حياته خارج مصر ومن الأربع والعشرين سنة وهى فترة حكمه كحاكم مستقل (يدخل فيها الخمس سنوات الأولى التى خضع أثناءها لنفوذ نور الدين) لم يقض منها سوى ثمانية أعوام فى القاهرة ـ أما بقية سنى مجده فاننا نجده متنقلا فيها فى الشأم وأرض الجزيرة وفلسطين . ولما ترك صلاح الدين القاهرة فى ١١ مايو عام ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) واجتمع كبار رجال دولته لوداعه وقف الجمع بالقرب من بركة الأحباش وعزفت الموسيقى بنغمة الوداع الأخيرة وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من بين الحاضرين كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور

تمتّع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتشاءم صلاح الدين وتنكد المجلس وقد صدق ذلك الفأل فلم يعد صلاح الدين . وغزا صلاح الدين أرض الفرات وضم الى دولته سلطان دمشق بعد موت نور الدين وانتصر انتصاره الخالد فى معركة حطين وقد ضرب الصليبيين وأعاد بيت المقدس لسلطان المسلمين والمسيحيين وأخضع كل البلاد المقدسة لكلمته واستمر نضاله الطويل مع الاتحاد المسيحى الأوربى حول عكا وغيرها واشتهر اسمه وعرفته أفواه ملايين الناس فى أوربا منافسا قويا لريشارد « قلب الأسد » . وأخيرا بعد

هجومه النهائى على يافا وارتداده بالفشــل تمّ صلح الرملة فى (٣ سبتمبر ســنة ١١٩٣) (٢٢ شعبان سنة ٥٩٨) وبموجبه احتفظ الفرنج بالساحل من عكا الى يافا وأن يسمح للحجاج أن يزوروا بيت المقدس وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من أوله الى الجنوب لصلاح الدين

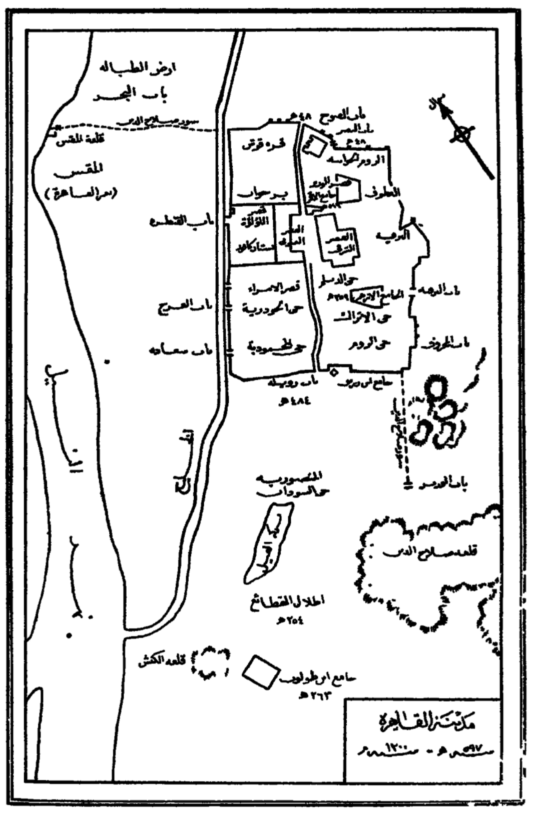
ومات صلاح الدين فى (٢٧ صفر سنة ٥٨٩ = ٤ مارس سنة ١١٩٣) ودفن فى دمشق تاركا دولة إسلامية واحدة تمتد من الدجلة إلى النوبة إلى برقة وأصبح الفرنج محصورين على الساحل فى رقعة ضيقة بين عكا و يافا

القاهرة

و بالرغم من قصر الفترة التى قضاها صلاح الدين فى القاهرة لم يترك أحد من حكامها مثل ماخلفه هــذا السلطان العظيم من آثار لاتزال باقيــة . فإليه وحده تدين عاصمة البلاد بشكلها واتساع نطاقها إلى حين ليس ببعيد جدا عن الوقت الحاضر وأهم تلك المظاهر المميزة التى تركها قلعة الجبل التى كانت من ابتداعه وهو الذى أدخل الى مصر تصميم « المدرسة » . كل هذه التغييرات كانت من وحيه وقد أقام شيئا منها أثناء وجوده فى القاهرة ونفذ معظمها قواده ورجال دولته وأفراد أسرته الذين كان ينتدبهم للقيام بتلك المشروعات الـكبيرة بينما كان يجـاهد فى سبيل الاسلام والمسلمين . وكان معظم مشروعاته أعمالا دفاعية لحماية البلاد ومن ناحية أخرى كانت تؤدى الأغراض الدينية . فكانت القلعة من المجموعة الأولى — كذلك سور القاهرة الجديد والسد العظيم

اكتفى الحكام المصريون الذين سبقوا صلاح الدين ببناء ضاحية أو مقر ملـكي يبعد ميلا أو أكثر الى جهة الشمال بشرق . ومدينة القاهرة الفاطمية وضعت فى الأصل لتكون دار خلافة وقصرا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومابرحت الحال حتى خلافة المستنصر لما قدمْ أمير الجيوش بدر الجمالى وسكن القاهرة فوجدها خاوية فأباح للعسكريين والأرمن وكل من استطاع البناء بأن يعمر ماشاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمّروا بها المنازل فى القاهرة وسكنوها فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان الى أن انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فى ســنة سبع وستين وخمسمائة هجرية فحولها ممــا كانت عليه من الصيانة والتخصيص وجعلها لسكن الشعب فهو الذى جعل منها عاصمة للقطر كأية عاصمة أخرى . وأقام صلاح الدين في دار

الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل فكان يتردد اليها ويقيم بها وكذلك ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر فلما كان الملك الكامل ناصر الدين بن أيوب تحول من دار الوزارة إلى القلعة وسكنها



رأينا أن صلاح الدين لم ينسج على منوال من سبقوه فى الحكم وأقام ضاحية ملكية على مثال الدمشقى و « فرساى » و « بوتسدام » بل عمل شيئاً جديداً فقد رأى أن يضم

تلك الضواحى ببناء سور حولها ثم يتوجها بقلعته الشهيرة فوق جبل المقطم . وكانت مدينة مصر بعد أن حرقها « شاور » تحاول النهوض من رمادها و بقاياها التافهة لتجدد شبابها فوجدت من يأخذ بيدها لينهض بها . كذلك رأى صلاح الدين أن يجمع معها تلك النواحى المبعثره ضمن الضواحى المخربة و يضم إليها ميناء المقس ثم يلتف السور حولها لتكون للقاهرة كما كانت ضاحيه « بريه » لآتينا . وقرر أن يكون بناء السور من الحجر و يمد سور بدر الجمالى الأرمنى إلى المقس من ناحية الغرب و إلى تلال المقطم من ناحية الجنوب ثم يلتف عند بقايا مدينة الفسطاط القديمة حتى يمس النيل تقريباً

ولم يتم هذا المشروع العظيم لأن صاحبه شغل عنه بحملاته العسكرية فى سوريا . ولا شك مطلقاً أن ممثله فى القاهره كان مشغولا عنه أيضاً بتعبئة الرجال المدربين للقتال وتدبير المال اللازم لتجهيزهم فلم يقم إلا ببناء ما احتاجت اليه الدولة . ومن المحتمل أيضاً أنه أعاد فكره أو لمح إليه أحد رجال الدولة بعدم فائدة تشييد سور يضم مدينة مخربة كمصر . . فيوفر للدولة تلك التكاليف الباهظة التى تتطلبها عدة أميال من الأسوار الحجرية المتينة البناء

ونرى أن ماتم من هذه الأسوار كان كالآتى :

أمدّ سور بدر الجمالى من ناحية الشمال من نهايته على الخليج حتى أوصله إلى النيل حيث كانت قلعة (برج) المقس . ومن ناحية الشرق أمد السور الجنوبى إلى باب الوزير بالقرب من سور القلعة الجديدة . و بموت السلطان لم يكن السور الشرقى قد اتصل بعد بهذا الباب . ولم يكن العمل ابتدأ فى السورين الجنوبى والغربى . وكنا نشاهد إلى عهد ليس ببعيد أجزاءا طويلة من سور صلاح الدين ولكن أكثرها كان مستوراً بين المنازل الحربة التى أقيمت ملاصقه له وعلى الأخص فى المنطقة التى كانت بين القنال والباب الحديد (باب البحر سابقاً) أو باب النيل بجانب قلعة المقس التى اختفت . وهنا كان من الممكن أن نقارن بين فنين مختلفين من العمارة الحربيه . . عماره الفاطميين وعماره صلاح الدين . كذلك كنا نشاهد الفرق واضحاً فى السور الشرقى الذى كان يفصل المدينة عن قرافه قايتباى فنلاحظ طرازاً حديثاً للبناء يمثل لنا فى باب الوزير . وكان يوجد جزء من السور فى الزاوية الشمالية الشرقية للمدينه وشيد عليه برج الظفر و يقع الآن فى الصحراء خارج حدود القاهرة الحالية مما يثبت أن المدينة الحديثة انكمشت من هذه الناحية عن حدودها أثناء القرن الثانى عشر . .

قلعة صلاح الدين

ولم تكن أسوار صلاح الدين إلا صورة منقحة لأسوار بدر الجمالى . أما القلعة فكانت فكرة مبتكرة . ويحتمل أن الذى بعث صلاح الدين على إقامتها بغضه الشديد لخلفاء الفاطميين الشيعيين ولقصورهم التى سكنوها . فقد لا شك إذا قلنا ان صلاح الدين على الرغم من قصر مدة إقامتـه فى القلعة إلا فى زيارات قليلة رغب أن يجعلها مقراً لسكناه كما فعل خلفاؤه . ولـكى نفسر كيف أراد أن يشيدها كقلعة للدفاع نعود إلى حملات صـلاح الدين فى سوريا حيث لاتخلو مدينـة سورية من قلعتها . . فنظر بعينيه العسكريتين ورأى حاجة القاهرة إلى قلعة تحميها فكان الأمر وتمت مشيئته

وهنا ننقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين قال :

« كان السلطان لمـا ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لـكل واحدة منهما سور لايمنعهما فقال ان أفردت لـكل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها وانى أرى أن أدير عليهما سورا واحـدا من الشاطىء إلى الشاطىء وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم »

أدرك السلطان صلاحية الموقع لاقامة تلك القلعة المتينة التى تحكم القاهرة على ارتفاع لايقل عن ٢٥٠ قدما ولو أنه كان من ورائها على الجبل مواقع أعلا تحكم موقع القلعة وتشرف عليها بنيرانها فاننا لا ننسى مكانة الأسلحة الحربية القديمة بجانب الأسلحة الحديثة والنتيجة لاتجعلنا نبخس للمهندسين العسكريين فى القرن الثانى عشر كفاءتهم أو مقدرتهم المعمارية فأن عملهم لايزال واضحا لزملائهم فى القرن العشرين

بدأ صلاح الدين تنفيذ مشروع القلعة فى عام (١١٧٦ — ١١٧٧ م) وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى الخصى أحد أمراء صلاح الدين المخلصين ولم يمض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج الذى يقع فى الضلع الغربى من القلعة مانقرأه إلى يومنا هذا :

بسم الله الرحمن الرحـيم . أمر بانشاء هـذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسـة القاهرة (الحرف الأخير غير موجود) بالعرمة (؟) التى جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ إلى ظل ملـكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين



[تصوير لينرت ولاندروك]

منظر عام لبعض مخلفات أسوار صلاح الدين بالقلعة
ومآذن جامع محمد على باشا

أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبدالله المالكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة (أى فى عام ١١٨٣ — ١١٨٤ م)

ومن أجل القلعة هدم صلاح الدين عددا كبيراً من الأهرام الصغيرة التى كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ونقل ماوجد بها من الحجارة و بنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة . وهدم ماوجده فى موقع البناء من المساجد وأزال القبور . وقام بأكثر أعمال نحت الأحجار الأسرى الفرنج والأوربيون الذين أسرهم صلاح الدين فى معاركه ولقد زار السائح الأندلسى ابن جبير القاهرة فى عام ١١٨٣ فشاهد الأعمال جارية فيها بواسطة الأسرى المسيحيين وكان عددهم وفيرا جدا ولولاهم لما استطاع قراقوش أن ينفذ أوامر سيده

مات السلطان قبل أن ينتهى بناء القلعة فأهمل العمل مدة الى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل واستنابه فى مملكة مصر وجعله ولى عهده فأتم بناء القلعة ومابرح يسكنها حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر حتى عام ١٨٥٠ م . ولقد طرأت على مبانيها تغيرات واضافات متعددة ولا نرى فيها اليوم من أعمال صلاح الدين الأولى سوى بعض أجزاء السور والأبواب و بئر يوسف و بنى فيها مسجد الناصر عام ١٣١٨ كما ابتدأ محمد على باشا مسجده فى عام ١٨٢٤ . ويظن البعض أن قاعة يوسف من عمل صلاح الدين وكانت فيما بعد جزءا من قصر أحد سلاطين المماليك . وأكثر أبراجها ليست أصلية كما أن بابها المطل على ميدان الرميلة (باب العزب) لم يبن إلا فى منتصف القرن الثامن عشر . والمعمارى الأثرى هو الذى يستطيع بفنه أن يدلنا على أى جزء من أجزاء السور من أعمال صلاح الدين أو من أعمال العصور التالية غير أننا نقول إن البناء الأصلى الذى تم أكثره فى عصر الدولة الأيوبية يدين كثيرا إلى الفن السورى الفرنجى وتكاد تكون صلته بالمدرسة البيزنطية معدومة

السد العظيم

وكانت آخر أعمال صلاح الدين الدفاعية بناء السد العظيم على الضفة الغربية للنيل عند الجيزة الذى يبعد عن مصر بسبعة أميال وقد وصف الرحالة ابن جبير هذا العمل بأنه مشروع هائل لايقدم عليه إلا ملك متنور ساهر على أحوال رعيته و بلاده وقد وصفه بأنه يحتوى على أربعين عقدا من أكبر الأحجام التى شاهدها للقناطر ذات

العقود وكان يسير السد على امتداد الجسر المرتفع الذى كان يقع مقابل مصر بعد ستة أميال منه . ولاشك أن بناء مثل هذا السد كان لسبب عسكرى هام فكر فيه صلاح الدين . فانه لم ينس تاريخ غارات الفاطميين المتوالية على مصر من ناحية الصحراء الليبية حيث كان المغيرون يتقدمون سيرا حتى يصلوا إلى شاطىء النيل بدون أن يقف فى سبيلهم مايعرقلهم من الحصون أو الجسور . ولهذا رأى صلاح الدين أن يتحصن بأقامة هذا الجسر العظيم ويذكر ابن جبير أيضا أن صلاح الدين ختشى هجوما يقوم به المحدثون بعد أن أخضعوا لسلطانهم مراكش وجنوب أسبانيا واستولوا على الجزائر وطرابلس فى عام ١١٥٨ حتى وصلت سطوتهم إلي حدود مصر من الناحيــة الغربية تحت زعامة القائد عبدالمؤمن فاحتاط صلاح الدين لما قد يحدث منهم

وبجانب أعمــال الدفاع التى أنشأها صلاح الدين لصد أعداء الدولة من الخارج احتاط أيضا لما عساه يحدث من الاضطرابات الداخلية التى يلهبها أولئك الذين لم يرضوا بنظام الدولة الجديد . وليس من المفروض أن لايجد رجال صلاح الدين عراقيل المعارضة والمصاعب تظهر وتختفى فى كل فرصة مناسبة . ومهما كانت عواطف المصريين حيال رجل نزيه وشجاع مثل صلاح الدين فليس من السهل أن نقتلع تقاليد قرنين من الزمان يضاف اليها أن مشايعى الفاطميين كانوا كثيرى العدد ودائبي النشاط والهمة . ولا ننسى أن الجنود السودانية قبل موت العاضد قاموا بثورة عنيفة عضدها الخليفة بنفسه . ووجد صلاح الدين فى قمعها مقاومة لايستهان بها ولــكنه تغلب عليهم وأفناهم عن آخرهم وسلم الباقون أو فروا خارج المدينة . ولم يقنع صلاح الدين بتلك النتيجة حتى أمر باحراق حى المنصورية الواقع خارج باب زويلة وكان مشغولا بشكنا تهم وحولها إلى حدائق . وبعد سنين قلائل لما خرج صلاح الدين راكبا من قصره قاصدا القلعة الجديدة كان يمر بين صفى الاشجار والرياحين . ولما وقف ركبه عند جامع ابن طولون كان يرى بسهولة باب زويلة بدون أن تعترضه المبانى التى تتوسط تلك المسافة . وتبعت تلك الفتنة مؤامرة أخرى عضدها الفرنج فهددوا اسكندرية لــكن انتصر عليهم صلاح الدين

المجتمع العلمى

تولى صلاح الدين عرش السلطنة المصرية ولم تــكن فى مصر كلية واحدة تعنى بنشر التعليم الدني على أسسه الصحيحة فرأى بثاقب فــكره أن يعلم شعب القاهرة قواعد دينه

لتيجنب تلك المرطقة التى نشرها الفاطميون فأنشأ المدارس أو كليات الدين ومنذ ذلك الحين قادت المدرسة فنا معماريا ذا قواعد مبتكرة خلدت إلى يومنا

ففى عام ١١٧٦ م أسست أول مدرسة على هذا النسق فى كل البلاد المصرية وكانت مجاورة لمدفن الامام الشافعى مؤسس مذهب الشافعية الذى كان يتبعه معظم المصريين حينذاك - وقد اندثرت معالم المدرسة و بقى جامع الشافعى ومقبرته . وفى سنة ١١٨٣ م لما زار ابن جبير مصر ذكر قاعة الخطابة التى تنفرد بعظم اتساعها ومتانة بنائها والتى تقف أمامها مدرسة كبيرة تحيط بها المبانى والمنشآت حتى لتشبه مدينة تحتوى كل مشتملاتها وعلى مسافة منها يقع الحمام والمكاتب الضرورية الأخرى للادارة وكانت لاتزال حركة البناء والاضافات قائمة على قدم وساق وتصرف عليها تكاليف عظيمة . وكان يشرف على المدرسة الشيخ نجم الدين الخبوشانى الذى كان امام المسجد وهو من الرجال الصالحين الراسخين فى العلم . وكان السلطان لايألوا جهدا فى اخراج مشروعه كاملا من نواحيه كلها وعلى الأخص من الناحية الفنية الجميلة البناء . وقد حظى ابن جبير بمقابلة هذا الأمام وحاز رضى صلواته وكانت شهرته قد بلغت بلاد الأندلس . وهو يقول فى مذكراته « زرناه فى جامعه وفى سكنه الخاص فى نفس الناحية التى تقوم عليها مبانى المدرسة وكان يسكن منزلا صغيرا له فناء ضيق . فمنحنا دعواته لما ودعناه . وفى كل أرض مصر لم نقابل مثيله »

ولم يؤسس السلطان الكلية الشافعية فقط بل أسس مدرسة مجاورة لمعقل الفاطميين بجانب المشهد الحسيني . وحوّل قصر المأمون القديم إلى مدرسة سيف الدين لتدريس مذهب الحنفية كما بنى مدرسة أخرى للشافعية وخامسة لمذهب مالك فى مصر . ولكى نذكر للسلطان خيراته نرى المستشفيات الخيرية التى أنشأها . ونحن نعلم مارستان أو مستشفى المملوك السلطان قلاوون فى سوق النحاسين . لكننا للأسف لانعلم أن أول من فكر فى انشائها كان السلطان صلاح الدين

ويعود فضل انشاء المدرسة إلى صلاح الدين كما يعود اليه أيضا ذلك التطور الذى أحدثه فى فن عمارة القاهرة . فالى عصره كانت الجوامع كلها ذات تصميم هندسي واحد والغرض منها تجمع المسلمين لصلاة أيام الجمعة وسماع خطبتها . وكان المحراب أهم أجزاء الجامع وهو الجزء المسقوف منه حيث يصلى المصلون . وفى أحوال الازدحام فى مناسبات الأعياد كانت الجماهير تستخدم صحن الجامع المكشوف لصلواتهم وكان الأساتذة يستخدمون البواكى التى تحيط بالصحن لالقاء تعاليمهم على تلامذتهم أو ملجأ

للفقراء والسائلين . فنرى أنها لم تكن من اجزاء الجامع الرئيسية المستعملة للتعبد . ولما زار ابن جبير مصر كانت فى القاهرة أربعة جوامع من هذا الطراز وهى الأزهر والحاكم وابن طولون وعمرو وبجانب هذه المساجد كان جامع الصالح طلائع وجامع الأقمر ولعدم العناية بهما آل مصيرهما إلى الخراب بعد وفاة منشئيهما

فلما ابتدع صلاح الدين نظام المدرسة كما رآه فى الشام أصبحت القاهرة مركزاً فى عالم الشرق لمخلدات الآثار الفنية الاسلامية . وحسبنا أن نذكر جوامع السلطان حسن وبرقوق وابن مظهر والناصر وقلاوون ... الخ. فنجدها تختلف اختلافا بيناً من حيث نظام الجوامع التى كانت موجودة . وعلى الأخص من ناحيتى العمارة والغرض فهى لم تشيد لأغراض الدين كالجوامع الأخرى لكنها جمعت بين الصلاة والعلم ولأجل العلم أخذت طريقتها وشكلها من الناحية العمارية . فبدلا عن الصحن العظيم المكشوف فى وسط الجامع حيث يجتمع المصلون انشىء مربع صغير وكان فى أغلب الأحيان مسقوفا بالخشب وأقيمت على منتصفه قبة أو منور وبدلا عن الأجناب التى أحيطت بالعقود رأينا فى أركان الجامع أربعة أجنحة مستقلة أو قاعات كبيرة ذات سقف واحد من الأحجار المعقودة . وأحد هذه الأجنحة والذى يواجه الشرق وهو الذى يتكون منه إيوان الصلاة كان أكبر من الثلاثة الأخرى وبه المحراب ومنصة الخطابة ودكة القراءة . وكان كل جناح من هذه الأجنحة الأربعة لمذهب من المذاهب الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية . وفى كل منها اجتمع طلبة كل مذهب يتلقون على علماء الدين قواعد المذاهب الاسلامية وفى غالب الأحايين كان الأساتذة والطلبة يسكنون فى هذه المدارس فى أماكن مخصصة لهذا الغرض . كما وجدت أيضاً قاعات للمكتبة والمحاضرات والمعامل وغيرها

والآن قد اتضحت لنا الوسيلة التى اتبعها صلاح الدين لمقاومة الميول الهرطقية التى أحدثها الفاطميون فقد شيد عدداً كبيراً من الكليات أو المعاهد الدينية . وقد جلب معه هذه الفكرة من الشام حيث كان سيده السابق نور الدين أكثر تحمساً منه فى إنشاء تلك الكليات للمذهب الحنفى فى دمشق وبعض المدن وأخذها نور الدين أيضا من آسيا عن طريق السلطان السلجوقى «ملك شاه» الذى أمر وزيره المشهور «نظام الملك» صديق عمر الخيام بانشاء الكلية النظامية فى بغداد . وإذا كان إدخال تلك المدارس إلى مصر طبيعياً أو ضروريا على يد تلميذه صلاح الدين فانها أحدثت بدورها تطوراً فى شيئين هامين هما الثقافة والعمارة فقد أزال العقائد الفاسدة التى اعتادتها الجماهير وأوجد

الكليات الجديدة التى نمت منها التطورات الفكرية وحلت علاقة جديدة بين القاهرة والعالم الاسلامى

وكان يقوم مقام صلاح الدين أثناء غيابه عن القطر أخوه أو ابنه تحت أشراف مستشاره القاضى الفاضل أحد علماء العرب من عسقلان وكان أستاذا متضلعاً وأديباً فاضلا يتضح من رسائله الغزيرة المادة آراءه السليمة و بفضله زار مدارس القاهرة عدد كبير من الطلبة الأجانب الذين وفدوا عليها من مدن فارس والهند والأندلس . ونبغ بين رجال السيف فى ذلك العصر من كانوا من حملة الأقلام وكانوا يترددون على المجامع العلمية و يتبادلون آراء الثقافة والشرع وكانت مجالس نور الدين لا تخلو من العلماء والشعراء والأدباء المقربين الى بلاطه . كما أن صلاح الدين لم تخل مجالسه من مناقشات الدين والتشريع والقانون . وقال عنه الحكيم عبد اللطيف البغدادى أن المقرب منه يستطيع أن يشعر بحبه ذلك الحب الممزوج بالهيبة كان مثقفا وديعا ونبيلا فى أفكاره . . . رأيته تحوطه العلماء الذين يبحثون فنون العلوم وكان يصغى إليهم منشرحا كلما جاذبهم الحديث »

كان عصر الأيوبيين فى مصر ممتازا بعناصر جديدة فى فن العمارة العسكرية وابتكار طراز المدرسة وشيوع استعمال الأحجار المنحوتة فى المبانى وادخال التلويح بالرخام فى المحراب (كما نشاهده فى جامع السلطان الصالح أيوب) وتطور زخرفة الستوكو واستخدام الزجاج الملون . . . الخ

ولننظر الآن الى القاهرة فى عصر صلاح الدين أو الذين خلفوه فى الحكم مباشرة . . هلا تجدهم بجانب مقدرتهم فى الحكم والسياسة رجالا ممتازين فى الاصلاح ومهندسين تعهدوا البلاد بالانشاء والتجديد وعلى الاخص فى القاهرة وتخيل أيها القارىء الوزير قراقوش فى ديوانه وأمامه مجموعة من اللوح والرسوم والتصميمات يقدمها اليه المهندسون الذين انتدبهم للقيام بشئون التعمير . هذا هو المهندس المسئول عن تصميم سور القاهرة الشرقى وهذا لأبراجه وذاك للسور الغربى وفتحاته وهذا الأبواب السور الجنوبى . . وآخر للقلاع . . وها هو مهندس آخر يراجع تصميم جسر الجيزة أو يقوم بعملية حسابية لعقوده الهائلة . . ثم نصور البنائين والمعمارين والنجارين وأفواج الفعلة بمعاولهم وفؤوسهم وقصعاتهم يصعدون بسقالات البناء المرتفعة ليضعوا حجرا فوق حجر

لقد كان عصر صلاح الدين فترة لثقافة جديدة وعمارة خالدة واحياء للدين عقب ما أصيب به على يد الفاطميين وكانت القاهرة اذ ذاك نبراسا يضىء الشرق بنوره

قاهرة المماليك البحرية

رأينا فى الفصل السابق كيف جعل صلاح الدين مدينة القاهرة عاصمة جديرة بدولة عظيمة وحصنها بأعماله الدفاعية و بمنشئاته الدينية نزعمت ثقافة العالم الاسلامى وأضاف بأعماله مسئوليات جسيمة على عاتق حكام مصر الذين تولوا الحكم من بعده . وليست من سيرة القاهرة المحروسة أن نحكى فتوحات أخ صلاح الدين العادل سيف الدين صديق «ريشارد قلب الأسد» . فقد تولى العرش عام (٥٩٦ هـ) بعد وفاة الملك العزيز بن يوسف ثم الملك المنصور بن العزيز . وقد أخضع لسلطانه جميع من بقى من الحكام الأيوبيين فى الأمارات الصغيرة وخدم صلاح الدين باخلاص مدة ربع قرن وفى أثناء ربع قرن آخر تولى أمور الامبراطورية الأيوبية التى حاول أقاربه العديدون تقسيمها و إفنائها . واتفق مع الفرنجة على الصلح بشرط التنازل لهم عن ثغرين فى فلسطين وانسحابهم من مصر لكنهم لم ينقطعوا عن محاربته فى سوريا ومع كل هذه المعارك التى خسرها لم تقلل شيئا من هيبته . وقد وصفه أحد مؤرخيه بأنه كان رجلا ذا تجارب ودراية و بعد نظر عالى الهمة قوى البنية يلتهم رأساً من الضأن فى وجبة واحدة كما انه كان محبوبا من الناس

لكن لسوء حظه لم تنقذه درايته من النكبة التى حلت بمصر فى السنة التالية من حكمه فقد ابتليت مصر بانخفاض النيل و بالطاعون والمجاعة فى عامين متواليين . وقد وصف حوادث السنتين الرحالة عبد اللطيف البغدادى الذى كان يزور مصر فى ذلك الحين لحضور الدروس فى الأزهر فقال : «يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار وأقحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع وتحول أهل القرى إلى أمهات البلاد واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم قعدوا على ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك ورأيت صغيرا مشويا فى قفة وقد أحضر إلى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر باحراقهما ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفروا معها بصغير مشوى تأكل

منـه وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شـئونهم ولم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ورأيت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشويا وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه

وأحرق بمصر فى أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة فرأيت امرأة قد أحضرت إلى الوالى وفى عنقها طفل مشوى فضربت أكثر من مائتى سوط على أن تقر فلا تحير جوابا بل نجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت

وكنت ترى أينما سرت جثث الموتى ملقاة فى الطرقات أو البيوت بدون دفن . فانتشر الطاعون وكان متوسط موتاه فى الاسكندرية لايقل عن سبعمائة نفس يوميا وكنت تشاهد الذئاب والضباع والنسـور تحوم فوق الجثث وتلتهمها على مرأى من المـارة فى المدينة وخارجها وفى طرق القوافل فلما نقص عدد السكان انخفض إيجار البيوت إلى سبع ثمنها الأصلى »

وجاء « جون دى بريان » على رأس سبعين ألف فارس و ٤٠٠ ألف راجل وخيموا تجاه دمياط فى البر الغربى وظلوا فى مناوشاتهم مع المصريين ثلاث سنوات (١٢١٨ — ١٢٢١ م)، ومن حسن حظ العادل أنه مات فى بدء غارتهـم نخلفه حاكم قادر هو ابنه الملك الـكامل (٦١٥ — ٦٣٥ هـ = ١٢١٨ — ١٢٣٨ م) الذى قاوم الصليبيين مدة وكانوا فى ذاك الوقت قد شددوا الحصار على دمياط براً و بحراً وكانت سنة ليست أشدمنها وطأة على المسلمين . وفى يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سـنة ٦١٦ هجم الصليبيون على دمياط فاسـتولوا عليها وكانت مدة الحصار ١٦ شهرا و٢٢ يوما فـدخلوها . فلما اتصل ذلك بالسلطان الملك الـكامل رحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل أمام طلخا ليمنع الصليبيين من السير الى داخل القطر . أما الفرنجة فحصنوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وواصلوا سيرهم إلى المنصورة فى نحو مائتى ألف من المشاة وعشرة آلاف فارس فأمر الـكامل أن ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر أنحاء القطر فاجتمع أناس لايقع عليهم حصر كما أتته النجدات من الشام يتقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل والملك المعظم عيسى فتلقاهم الملك الكامل وأنزلهم بالمنصورة وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدد جيوش المسلمين نحو أربعين ألف فارس فحاربوا الصليبيين برا وبحرا حتى ضعضعت قوانهم فخابرهم الملك الـكامل بأمر الصلح ليخرجهم من بلاد.وعرض عليهم مناطق كبيرة فى فلسطين و بعـد مفاوضات طويلة عقبت رفضهم للمعاهدة التى وضعها الكامل قبلوا الانسحاب من القطر المصرى بدون مقابل فسار الصليبيون إلى دمياط

وسلموها الى المسلمين فى ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان يوم دخوله اليها يوم احتفال عظيم . ثم قصد المنصورة حيث بقى ليلة كانت من أحسن الليالى التى مرت لملك من الملوك . ثم عاد الى مقر ملكه فى القاهرة وانتقل من دار الوزارة التى كانت إلى ذلك العهد منزلا للخلفاء وسكن فى قلعة الجبل واليه يرجع فضل اتمام بنائها وأنشأ بها الدور السلطانية

وأهم أعماله العظيمة التى بقيت مدة طويلة دار الحديث الكاملية التى أنشأها فى سنة ٦٢٢ هـ بين القصرين وهى ثانى دار عملت للحديث . فان أول من بنى دارا كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق . وكان أول من ولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن ثم أخوه عمرو ومابرحت بيد أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ٨٠٦ فتلاشت كما تلاشى غيرها وكان الكامل يحضر مناقشات العلماء فى كل مساء من أيام الثلاثاء

ولقد كان بجانب النظام الجديد الذى أدخله الأيوبيون وخلفاؤهم من انشاء دولة ثابتة واعادة الدين الاسلامى إلى تعاليمه الأولى أنهم ابتكروا طريقة الحكم الاقطاعية التى سادت مصر مدة ستمائة سنة فأثرت حيويا على أحوالها الاجتماعية وفنونها وآدابها وطلعة القاهرة المادية . ويمكن القول بأن عصر المماليك ابتدأ من أيام صلاح الدين .... حقيقة انه وجد قبله مماليك من العبيد البيض وصل كثير منهم إلى الحكم . وابن طولون أو على الأقل والده كان مملوكا وكثير من حكام مصر الذين جاءوا بعده كانوا من العبيد المعتقين سواء أكانوا من الاتراك أو الروم أو من تركستان أم من آسيا الصغرى . وفى عصر الخلفاء الفاطميين وصل هؤلاء العبيد إلى أعلى مناصب الدولة . فان جوهر مشيد القاهرة كان روميا أو صقليا وأصبح الأرمنى العبد بدر الجمالى فى يوم من الأيام سيد مصر

ونمت طريقة الحكم الاقطاعى فى مصر منذ وصل صلاح الدين مصر مع جنوده الأتراك حتى محمد على باشا فى القرن التاسع عشر وقد اتخذت مركزا ساميا لها فى القاهرة لما ابتاع الملك الصالح بن الملك العادل نحو ألف مملوك وجعل منهم أمراء دولته وخاصة بطانته وبنى لهم قصورا عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب فى جزيرة الروضة قرب المقياس أمام مصر . وقد زادها مركزها الطبيعى مناعة وجمالا لأن النيل يتفرع هناك إلى فرعين وكان يدعى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم انساعه فسمى هؤلاء بالمماليك البحرية ومنها اسم دولتهم تمييزا لها من دولة المماليك الشراكسة

ومن ذلك الوقت حكموا مصر مدة قرن ونصف . وبالرغم من ظلمهم وعسفهم ومكائدهم وقسوتهم كان حكم المماليك البحرية صفحة زاهرة فى تاريخ القاهرة إذ تجد منهم ميلا غريبا للفنون يحق لأى ذى عرش أن يفخر به على أقرانه - ولقد أظهر هؤلاء المماليك فى لباسهم وفراشهم ومسكنهم وعمائرهم ذوقا سليما ورفاهية بالغة يصعب على أوربا الآن فى عصرها المحب للجمال والتأنق أن تدانيهم فيه

أنظر إلى ما في القاهرة الآن من المساجد الكبيرة التى تناطح مآذنها السحاب تجد أنها بنيت فى عصر المماليك . أنظر إلى جوامع قلاوون والناصر والناصر بن قلاوون والسلطان حسن وبرقوق والمؤيد والأشرف وقايتباى وكذلك انظر إلى قباب قبور المماليك بالصحراء تر من جلال البناء وبديع العمارة ترأنها لاتدانى وكل ما بنى فى العصر الأخير من القرن التاسع عشر إنما هو تقليد وتشبيه بهاتيك العمائر التى تفخر بها القاهرة على مدن العالم

ولما مات الملك الصالح (٦٧٣ — ٦٤٧ ﻫ) أثناء محاربته للصليبيين كانت احدى جواريه (وبعضهم يقولون زوجته) واسمها شجرة الدر قد تواطأت مع أحد الأمراء ورئيس الخصيان على مبايعة ابنها وكتمت أمر موت زوجها ووقفت فى جمهور الأمراء والأعيان قائلة « ان السلطان يأمركم أن تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الأمير فخر الدين أتابكا لادارة الأحكام » فبايعه جميع الامراء وأدارت هى دفة الحكومة وأشرفت على تنظيم الجيش وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام وساست البلاد بكفاءة عجيبة

وكان الصليبيون يتقدمون قاصدين المنصورة فلما بلغوها حاربوها محاربة قوية واستمر القتال بين الطرفين مدة طويلة وكادت الدائرة تدور على المسلمين تحت قيادة الأمير فخر الدين لولا مماليك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعا شديداً وانتهت المعركة بتقهقر الصليبيين فتعقبهم المصريون حتي أدركوهم غربى فارسكور فاستلحموهم واثخنوا فى قتلهم وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وكبار جيشه

وانتهت الحملة الصليبية السابعة بموت السلطان الملك المعظم آخر ملوك الأسرة الأيوبية وبوفاته انقضت دولتهم وقامت دولة المماليك الأولى

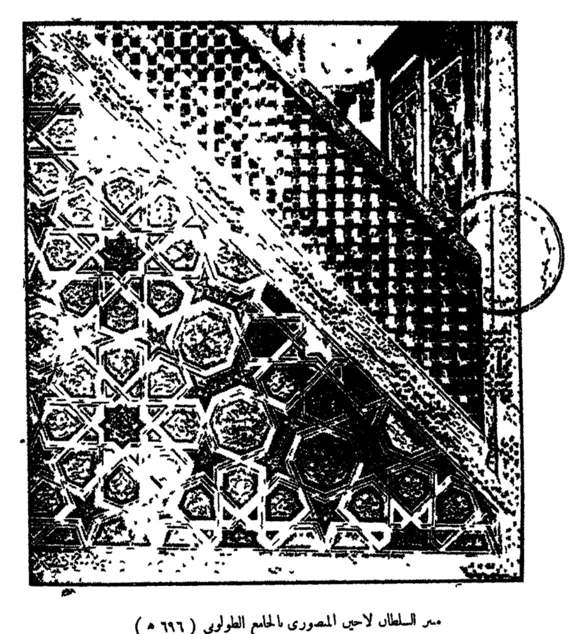
وتمكنت شجرة الدر بطريقة غريبة أن تقبض على زمام الأحكام وذلك بتواطئها مع «أيبك عز الدين» وكان من أعظم الأمراء المماليك وأقواهم نفوذاً . وبهذا التواطؤ لقبت بعصمة الدين أم خليل فى ١٠ صفر ٦٤٨ ﻫ ولو أن خليلا هذا كان ميتا ونقشت اسمها

على النقود بما هو « المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين » . وعينت عز الدين أتابكا لتدبير المملكة وأخذت تتقرب إلى أرباب الدولة ووجهائها إلا أن مساعيها لم تأت بفائدة . وأنفذ السوريون إلى الخليفة العباسى فى بغداد يستفتونه فى أمر هذه الملكة فكتب إليهم يقول : « من بغداد لأمراء مصر أعلمونا إن كان مابقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »

ولما استمسك مماليك مصر بهذه الفتوى خلعوا طاعة شجرة الدر ونشأ خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل إلى وقائع حربية تمكن أثناءها عز الدين أيبك من الاستقلال عن صديقته وأكره الأمراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . ثم بويع عزالدين أيبك على مصر سنة ٦٤٨ هـ ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركمانى الصالحى وتزوج بشجرة الدر ولم يكن يدرى أن شجرة الدر لا تزال واقفة له بالمرصاد فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها وفى الواقع كانت هى المدبرة الحقيقية لشئون الدولة . وأخيراً اشتعلت حسدا لما علمت أن زوجها ساع فى التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصول وخافت أن تحل هذه الزوجة الثانية محلها فوافقت على الكيد به بعد أن تزوج من تلك الأميرة

وفى ذات يوم ضايقته فنزل من القلعة وهو غاضب فبعثت تتلطف به حتى عاد إلى القلعة فلاقته وقامت إليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد أضمرت له السوء فندبت له خمسة من الخدم الخصيان الروم وقالت لهم « إذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع إلى القلعة اصطلح مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه أولئك الخدم وبأيديهم السيوف فقام أيبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم أتركوه فأغلظ عليها بعض الخدم فى القول وقال لها « إن تركناه فلا يبقى عليك ولا علينا » فقتلوه فى الحمام خنقا ولم تجسر شجرة الدر على مزاولة الأحكام بنفسها خوفا من الايقاع بها فعرضت زمام الأحكام على أميرين فأبيا . وتولى من بعده ابنه نورالدين وكان سنه ١٥ عاما . وقد شاد « أيبك » فى خلال حكمه بنايات عظيمة وفى جملتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة إليه بناها على ضفة النيل فى مصر القديمة وربط لها دخلا مخصوصا للنفقة عليها وكان أعدل من أقام من ملوك المماليك بقلعة الجبل

أما المنصور فكان أول عمل أقدم عليه أن قبض على قاتلة أبيه بعد ثلاثة أيام من توليه وعهد بها إلى نساء بيته فأماتوها فى البرج الأحمر بالقلعة ضربا بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها فى خندق بالقلعة وكان ذلك على مرأى من « ضرتها » فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقى فى مدفن قرب السيدة نفيسة . أما المنصور نور الدين فلم يحكم إلا مدة سنتين وفى أيامه هجم « هولاكو » التترى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم



منبر السلطان لاجين المنصورى بالجامع الطولونى (٦٩٦ هـ)

بالله وخرب عاصمته . فلما رأى رجال الدولة هـذه الحال قرروا أن الأمور يجب توليتها لرجل حازم فعزلوا نور الدين وولوا مكانه سيف الدين قطز نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر ولما تولى السلطنه لقب بالملك المظفر

وهنا يبدىء حكم المماليك البحريه باستثناء واحد من بيت صلاح الدين . ومن المدهش أن تتولى حكم مصر بين سنتى ٦٥٥ هـ و ٧٨٣ هـ (١٢٥٧ — ١٣٨١م) بعد «أيبك»

ثلاثة وعشرون سلطاناً من المماليك البحرية الأتراك الذين جاءوا من كبشاك . ولكن بين هذا العدد أربعة فقط حكموا مددا طويلة مجموعها أكثر من نصف مدد حكم الباقين وهؤلاء هم بيبرس وقلاوون والناصر وحسن . ولم يكن السلطان أكثر من زعيم للماليك ينتخبه زملاؤه ويفهمونه أنهم زملاؤه . ولما انتخب لاشين للسلطنة بعد مؤامرة دبرها الأمراء تقدموا إلى ركابه مقدمين له الولاء والاخلاص وأحلفوه مرتين ليبقى واحدا مثلهم ولكي يعمل بنصحهم ولا يفضل أبدا عليهم مماليكه ولما حنث بقسمه قتلوه . وكان من الشجاعة النادرة بقاء أحدهم سلطاناً لمدة طويلة كبيبرس مثلا وكان ذلك راجعا لهيبته وفتوحاته فى سوريا

ويجب علينا أن نوفى المماليك حقهم مما كانوا عليه من الشجاعة الفائقة فقد قاوموا أشد الغزوات مناعة وصدوها أهمهم غزوات هولاكو ملك المغول خليفة جنكيز خان . وكانوا قد انتشروا فى كل آسيا الشمالية الشرقية وردهم المصريون على أعقابهم أربع مرات . وكان قطز أول من لقى الصدمة منهم وكان هولاكو أرسل رسله للقاهرة ومعهم منشورا مضمونه التسليم فلم يكن من قطز إلا أن قطع رؤوس المندوبين وعلقها على باب زويلة وسار يتقدم جيوشه التى انتصرت على الصليبيين حتى وصل إلى سوريا وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت أبيه منجوخان ملك التتر فاضطر إلى العودة حالا وترك جيشه لمقابلة المصريين فالتقى الجيشان فى عين الجالوت ٦٥٨ ﻫ وانتصر المصريون انتصارا باهرا وغنموا غنائم كبيرة وطهروا البلاد منهم وفى أثناء عوده الملك المظفر « قطز » إلى القاهرة تربص له بعض رجاله وقتلوه

الظاهر بيبرس

وتولى العرش من بعده الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨ — ٦٧٦ ﻫ) الذى قطع الفرات سباحة على رأس جنده وهزم المغول فى بيره عام (٦٧١ ﻫ) وفى أثناء عودته قصد الكرك فقتل سبعة آلاف من أعدائه واستولى على العرش السلجوقى . وجاء قلاوون من بعده (٦٧٨ — ٦٨٩ ﻫ) فغزا المغول مرة أخرى عام ٦٧٩ ﻫ وكان قد جمع لجيشه ألوف المماليك من رجال حرسه والتركمان والبدو وعرب الفرات والحجاز وقد انضم اليه فى تلك الحملة صاحب حماة وكان يحكمها أحد أفراد أسرة صلاح الدين وانتصر على أعدائه فى موقعة حمص وبذلك حرر سوريا مرة أخرى من شر المغول لكنهم عادوا اليها مرة

ثانيـة أثناء حكم ابنه الناصر فجرّد اليهم عام (٧٠٠هـ) جيشاً جرارا وأسرع ليلقاهم فى حمص فتقهقر الناصر ثم جمع رجاله ودارت الحرب بين الفريقين فغلب المصريون بادىء الأمر ثم ارتدوا على صفوف الأعداء كالسيل بعزم شديد ففرقوا جموعهم وتطهرت الشام منهم وعرفت هذه المعركة بمرج الصفر وكان من بين الأمراء الذين أظهروا بسالة فائقة فى تلك المعركة بيبرس الجاشنكير الذى أصبح فيما بعد سلطانا . ثم عاد الملك الناصر إلى القاهرة ظافرا ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم وقد سبقه الرسل يحملون أنباء انتصاراته وتنافس الأمراء فى اقامة الزينات الفخمة والاستراحات الثمينة على جانبى طريقه وحرم أهل الصناعات من عمل أى شىء خلا ماتعلق منها بحفلات النصر وكانت الغرفة تؤجر فى اليوم بجنيهين إلى أربعة للقاهريين الذين يرغبون مشاهدة السلطان فى موكبه الظافر وفرشت الطرقات بالسجاجيد الحريرية فلما وصل السلطان أظهر سروره بما قام به الأمراء وعرض أسرى المغول فى سلاسلهم وباختصار أقيمت الأفراح ومعالم الزينة فى كل مكان

ولم يكن المغول هم وحدهم الذين ذاقوا ألم السيف المصرى فلقد أعلن بيبرس الحرب المقدسة لمدة عشر سنوات فى فلسطين حيث تحالف الفرنجة مع المغول فاستولى على قيصرية وعرصوف عام ٦٤٣ هـ (١٢٦٥م) وأذل مدافعيها من المسيحيين الجابهم معه إلى القاهرة حيث عرضهم بأعلامهم المنكسة وصلبانهم المهشمة وكان لايزال للصليبيين بعض البلاد الصغيرة على السواحل السورية وان كان بيت المقدس أصبح فى أيدى المسلمين منذ عشرين سنة فصمم بيبرس على قطع علاقة الصليبيين بتلك البلاد نهائيا فاستولى على يافا عام ٦٦٦ هـ وسلمت بلفورت وانطاكيا عاصمة سوريا الشمالية التى أحرقت عن آخرها وبالتدريج استولى على حصون الصليبيين وقلاعهم فى بقراس وصافيتا . . . الخ ثم قصد مكة مارا بحلب وزار قبر ابراهيم الخليل وبيت المقدس ثم عاد إلى مصر وقد أتم عمله العسكرى والدينى معا . واستولى الاسطول المصرى على قبرص

وقبل وفاة بيبرس كانت أوامره تصدر وتطاع من بيراموس والفرات إلى جنوب بلاد العرب حتى شلال النيل الرابع وكانت المدن المقدسة مكة والمدينة وبيت المقدس فى قبضته كما وضع يده على سواكن وايدهاب على البحر الأحمر — وخضع له عرب الصحراء وبرابرة الشمال ومغول الفولجا وأصبح خانهم حليفا له وأرسل ابنته للزواج منه وتبادل مفوضيه مع الامبراطورية الشرقية وبنى مسجدا فى الاستانة واتصلت تجارة المصريين بصقلية وأسبانيا وفرنسا . ومن أعماله اعادته الخلافة العباسية التى قضى عليها

المغول عام ١٢٥٨ م فانه استقدم الامام أحمد بن الخليفة الظاهر من ذرية بنى العباس فى موكب عظيم وأعلنه خليفة للسلمين وأسكنه قصرا عظيما بالقلعة وظل الخليفة العباسى فى ظل سلطان مصر حتى استولى العثمانيون على البلاد و وضعوا يدهم على الخلافة عام ١٥٣٨

ومن أخلد المماليك البحرية أثرا الظاهر بيبرس فقد كان بيبرس قائدا ماهراوسياسيا ذكيا ومصلحا بعيد النظر واداريا عادلا . كان يشرف على أمور البلاد بنشاط و يراقب عماله بدون أن يشعروا به وقد قضى أكثر سنى حكمه فى ميادين القتال خارج مصر وكان يمضى أشهر الشتاء فى القاهرة مع جنوده . وكان ينتهز فرصة وجوده فى مصر فيعمل على اصلاحها وتحسين عاصمتها . فبنى عام ٦٦١ ﻫ دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها لعرض العساكر فى كل اثنين وخميس وكان ينظر فى أمر المتظلمين بنفسه فاذا كان لأحد مظلمة أتى رأسا وشكا للسلطان وهو يأمر بصرفها . وقد عمر المدارس وأصلح الجوامع و بنى مسجده العظيم المعروف بجامع الظاهر وحفر خليج الأسكندرية القديم وباشره بنفسه وجدد الجامع الأزهر وأعاد اليه الخطبة و بنى القصر الأبلق فى دمشق ومن آثاره أيضا قناطر السباع التى أنشأها قرب ميدان الجبل والبرج الكبير فى القلعة. وحفر الترع وأنشأ الطرق وحصن الاسكندرية وحمى مصب النيل ضد الغزوات الخارجية وأعاد للاسطول المصرى سابق أيامه فبنى أربعين سفينة حربية واحتفظ بجيش منظم عدده ١٢٫٠٠٠ جنديا وكانت حكومته محترمة عادلة واستطاع التغلب على مجاعة سنة ٦٦٣ ﻫ فى الحال بقوانين أصدرها وكلف أمراءه بتنفيذها بحذافيرها ومنع شرب الخمر وتدخين الحشيش فى جميع أنحاء الدولة ونهض بأحوال البلاد الصحية ومنع الحانات و بيوت الدعارة وكان محبا لركوب الخيل ورمى النبال يقضى نهاره فيها وليله فى العمل الرسمى . وأنشأ ميدانا دعاه ميدان القبق أو الميدان الاسود للعب وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمى النشاب وغير ذلك من الألعاب الحربية وكان يقوم بنفقات جميع هذه الأعمال بدون أن يسلب الأهالى . ولاغرو فانه كان محبوبا من رعيته ومعبودا لهم بعد أن رأوا منه الحاكم العادل والقائد الشجاع والملك المحبوب ولانزال نذكره بآثاره كما تعرفه العامة بقصته المشهورة

ويعتبر بيبرس المؤسس الحقيقى لقوة المماليك والمنظم لسياستهم فى ادارة الحكومة . ومنذ اليوم الذى قاد فيه بيبرس مماليكه البحرية فى معركة المنصورة وتغلبه على «لويس» ملك فرنسا سمت مكانته وتقرب إلى السلطان الذى منحه حق الاشراف على الجيش

وتعبئة الجند كما ساعده فى وضع نظام لتوزيع السلطة بين الأمراء . واتبع خلفاؤه نفس السياسة الخارجية التى كانت لمصر فى عهده كما أن بلاطه كان مثالا ناطقا للنظام وحسن الرونق لمن تولوا العرش بعده . فقد جمع السلطان فى حاشيته كبار ضباطه و رجال دولته وموظفى حاشيته — ومن أصحاب تلك الوظائف نذكر الوالى — وأتابك العساكر (قائد الجيش) وقائد الحرس وأمير السلاح وأمير الجياد وحامل الكأس وأمير الخزانة وأمير الصيد وأمير الصولجان وأمراء الطبول وكان يتبع هؤلاء أربعون من الجند لهم فرقة موسيقى مؤلفة من ستة عشر عازفا . وكانت الحاشية تجمع عددا وفيرا من الخصيان والياوران والامناء والكتاب وأطباء القصر والقضاة والفقهاء وغيرهم . وكان السلطان يوزع على هؤلاء الأمراء اقطاعات واسعة و يمنحهم الهبات العظيمة والمرتبات الضخمة . فكان أمير الطبول مثلا يتناول مرتبا سنويا مقداره ١٦٫٠٠٠ جنيه ويمكن تقدير مصروفات بيت الملك بما كان يصرفه يوميا . فقد كان يستهلك يوميا مالا يقل عن ٢٠٫٠٠٠ رطل من أنواع الأطعمة . و بلغت تكاليف الخضر واللحم فى أيام الناصر من ثمانمائة إلى مائتى وألف من الجنيهات فى كل يوم

وكان لكبار رجال القصر وضباط الجيش المقام الأول فى الدولة وهم الذين يجىء ذكرهم بعد السلطان لذلك كان كل واحد منهم يعتقد أنه أحق بالسلطنة بعد وفاته . فالأمير العظيم سواء كان من رجال الحاشية أم من الحرس وموظف البلاط والنبيل الصغير كل منهم كان يرى فى نفسه سلطانا مصغرا وكان لكل أمير حرسه الخاص وعبيده ومماليكه يحرسونه ويتبعونه فى حله وترحاله يعملون باشارته و يتحركون بأوامره.... يهجمون على حمامات العامة أو أسواق المدينة أو قصور منافسيهم أو على أحد الأحياء باشارة من سيدهم فينهبونها و يخطفون حريمها ونفائسها واذا ناداهم أميرهم للدفاع عنه وجدهم تحت طوعه يقودهم إلى حيث يريد فكان أولئك السادة وأتباعهم شبحا أمام السلطان — ارادتهم يجب أن تكون ارادته و رغباتهم هى التى يجب تحقيقها قبل كل شىء وقد امتاز عصرهم فى مصر وعلى الأخص فى القاهرة بالمشاغبات والمذابح والمعارك الدموية التى كانت تنشب فى كل حى من أحياء المدينة

أما حوادث السلب والنهب فكانت تسلية القوم يلجأون اليها كضرب من ضروب الألعاب الرياضية المسلية . يصوبون سهامهم وحرابهم من نوافذ مشربياتهم على أعدائهم فى المنازل المقابلة أو على السائرين فى الطرقات فتبتدىء المعركه وتسمع حوافر خيلهم و وقع

أسلحتهم وأنين جرحاهم فيسرع أصحاب المتاجر إلى اغلاق أبواب حوانيتهم والهرب بحياتهم خلف أبوابها الضخمة

كذلك كانت حياة القاهرة أثناء حكم طائفة المماليك



مقرنص فى رباط أحمد بن سليمان (٦٩٠ هـ)

ولم يعرف المماليك طريقة الحكم الوراثى فتمد تولى خليل سلطنة مصر بعد موت أبيه المنصور قلاوون (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) وتبعه الملك الأشرف محمد الملقب بالملك الناصر للمرة الأولى عام ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) ثم للمرة الثانية فى عام ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) بعد موت الملك القاهر ولم يلبث أن خلعه المصريون فترك القاهرة متظاهراً بالحج وسار مع بطانته إلى الكرك فاستولى

عليها وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطانى إلى المماليك بتنازله ومفوضاً لهم تولية من أرادوا . فبايعوا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ) فى ٢٥ رمضان ولقبوه بالملك المظفر . وفى عهده قدم الصليبيون لغزو دمياط بحرا ومن ملوكهم أيضا ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ)

ومن آثاره فى القاهرة جامعه المعروف بجامع جاشنكير بالجماليه وقد بنى على طراز جامع السلطان حسن

وكان الملك الناصر قد ندم على تنازله عن كرسى السلطنة فجعل يترقب فرصة لاستعادة حقه وكان قد أرسل إلى بعض زعماء المماليك ليدبروا مؤامرة لقلب جاشنكير فنجحوا فى عملهم فتنازل بيبرس وخرج إلى مصر العليا طامعاً فى الاستيلاء عليها وفى غد خروجه من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم (٧٠٩—٧٤١هـ) (١٣٠١—١٣٤١م) للمرة الثالثة . وكان ذلك فى يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع بالسلطنة وبايعه الأمراء فى الايوان الأشرفى . وقد تولى حكم البلاد واحداً وثلاثين عاما وكان خلفاؤه على ضعف شديد فلم يديروا الحكم إلا إسمياً فقط وقد رأينا أن بيت قلاوون حكم مصر منذ عام ٦٧٨ هـ إلى عام ٧٨٤ هـ (١٢٧٩ — ١٣٨٢ م) باستثناء ست أو سبع سنوات تخللت تلك المدة الطويلة . وكان مؤسس ذلك البيت السلطان قلاوون حاكما شجاعا وسياسياً حازما ومشجعا كبيراً للتجارة وكانت البضائع المصرية فى أيامه تصل إلى الهند والصين وقد عمل كل مافى وسعه لتنمية التجارة فى داخلية القطر وكان على مثال أبناء جنسه المماليك محبا للبناء . وقد يكون غريباً حقاً أن نرى رجال الحروب بينما يسود جوهم تلك الدسائس والمؤامرات التى يجيدها رجال بطانتهم يهتمون اهتماما عجيباً باحياء فن العمارة فى عصورهم . فالملكة شجرة الدر وهى التى افتتحت الحكم المملوكى شيدت عام (١٢٥٠ م) ذلك المسجد الذى كان مدفنا لزوجها صالح الذى كان يشغل القصر الفاطمى القديم فى بين القصرين وأسس بيبرس كليته عام ١٢٦٢ على جزء من أجزاء القصر المسمى بقاعة الفسطاط كما بنى جامعا خارج باب الفتوح عام (١٢٦٧ - ١٢٦٩ م) وهو الجامع المعروف اليوم بجامع الظاهر . وجاء قلاوون فبنى المستشفى الشهير بالبيمارستان المنصورى بخط بين القصرين (شارع النحاسين) وقد بناه خارج جامعه ومقبرته ولا تزال تلك الأبنية قويه تتجلى فيها العظمة والمقدرة . وكان يحيط بناء البيمارستان قاعات للدرس ومكتبة وحمامات وصيدلية . . الخ وكانت هناك فرقة موسيقية لتسلية المرضى وكان يقرأ القرآن الكريم لطمأنينة المؤمنين وكانت المعالجة فى المستشفى مجانية سواء للغنى أو للفقير وكان



[تصوير الأستاذ حسن أفندي عبد الوهاب]

مدخل حمام بشناك (قبل ٧٤٢ هـ — ١٣٤١م)

يربى اليتامى من أولاد الفقراء مجانا فى المدرسة المجاورة للمستشفى ولايزال الناس إلى يومنا يزورون قبر هذا السلطان الصالح وقبر ابنه الناصر يلتمسون شفاءهم ويدعون اليهما بالخير وحسن الثواب

ويعتبر عصر السلطان الناصر من العصور الذهبية فى مصر من الناحية المعمارية . وكان على صفات خلقية ممتازة قوى الارادة مستبدا يسيطر وحده على حكم البلاد ولايشترك معه أحد من وزرائه أو رجال دولته . وكان قبيح الطلعة صغير الجسم أعرج وفى إحدى عينيه مرض لكن أخلاقه القوية وثقافته المهذبة وتفكيره السامى ونشاطه الدائم وذوقه الجميل — كل هذه المزايا جعلت عصره من العصور الساكنة التى تمتعت بها مصر . وقد ارتقت حاشيته ومجلس بلاطه عن أيام أسلافه وبالاختصار يمكن أن نعتبر الملك الناصر من الشخصيات البارزة أثناء القرون الوسطى . وحكمه صورة جلية لما كانت عليه مصر من الثقافة والحضارة . فقد سار على منوال بيبرس وقلاوون واحتفظ بتحالف التتر وتزوج من ابنة أزبك خان (السيدة طلبية) سنة ٧٢٠ ﻫ ولاتزال مقبرتها مع احدى زوجاته إلى الآن فى القرافة الشرقية وكانت حدود امبراطوريته تمتد من بيراموس والفرات إلى سواكن وأسوان وارتبط بعلاقات سياسية لم تحددها تحالفات رسمية مع امبراطور دولة الروم الشرقية وملك بلغاريا وملوك الحبشة وبلاد العرب . وقد زوج بناته الاحدى عشر من أبناء أمراء الدولة وكانت حفلة العرس الواحدة تكلف نصف مليون جنيه ولم يكن الناصر سياسيا فقط بل كان فلاحا ومدربا ورياضيا أيضاً فكان يدفع للجواد الواحد أربعمائة ألف جنيه وكان ملما بتاريخ كل جياده وأثمانها وأعمارها وخصالها ومزاياها . . الخ وكان فى مزرعته ثلاثون ألف من رؤوس الغنم وكان محبا للصيد وقد شاهده الرحالة ابن بطوطة عام ١٣٢٦ م فوصفه بقوله « خلق نبيل وفضائل سامية » وكان محبا لخير الحجاج يجلس مرتين فى الأسبوع لينظر بنفسه شكوى الناس الذين يتقدمون اليه بشكاويهم . ونمت ثروة البلاد فى أيامه وأزال الضرائب الزائدة عن الحاجة وأمر بمسح الأراضى الزراعية كما كان يعاقب أصحاب مطاحن الغلال وتجار الخبز إذا تجاوزوا فى أسعارهم وقد عامل الأقباط بعدل وافر لم يروا مثله منذ أيام الفاطميين وذلك بالرغم من سلسلة سوء التفاهم التى حدثت بين المسلمين والمسيحيين فى عهد الأيوبيين وأوائل سلاطين المماليك . وكان للمدارس التى أنشأها صلاح الدين وخلفاؤه أثر كبير في تهذيب الروح الدينية بل وتقويتها ضد المسيحيين وكان نفوذ هذه المدارس يزداد بفضل علمائها وأساتذتها . وقد حدث فى عام ١٣٢١م

سلسلة من حوادث الاضطهادات ضد المسيحيين وكان منشأها أن بعض رجال الناصر كانوا يعملون فى حفر بركة اسمها « بركة الناصر » بالقرب من قنطرة السبع (غرب حى باب اللوق) فتحولوا قليلا بمعاولهم وخربوا جزءاً من كنيسة الزهرى وكان الناصر قد أمرهم باحترامها . فاندفع الناس نحو الكنيسة بدون علم رجال الحكومة وخربوها بتمامها ثم قصدوا كنيسة « سنت مينا » بالحمراء ونهبوها ثم قاموا بنفس العمل بكنيسة العذارى (بالقرب من السبع سقايات) وطردوا منها الراهبات وغنموا ما وصلت اليه أيديهم ثم أحرقوا كل شىء . فلما وصل إلى مسامع السلطان ماحدث أمر جنوده فى الحال لكبح جماح الغوغاء . ولكن وصلته أخبار أخرى بتدمير كنيستين فى حى زويلة وحى الروم بينما كانت الجموع الغفيرة من العامة تهاجم كنيسة المعلقة فى قلعة باب اليون و بينما كان هؤلاء يبدءون أعمالهم فاجأتهم جند السلطان فى الوقت المناسب وحموا الكنيسة وكانت عواطف المسلمين على وشك الالتهاب وانتهز بعض المتعصبين هذه الحال فبثوا دعوتهم ضد المسيحيين وانتقلت الدعوة سريعاً من القاهرة إلى الأسكندرية فدمشق وأحرقت كنائس عديدة

لم يمض شهر على تلك الحركة حتى ابتليت القاهرة بحرائق متوالية فكان حادث الحريق يتلو الآخر فى كل حى من أحيائها وصعد الناس مآذن المساجد يسألون الله عز وجل المعونة . وبذلت الجهود الجبارة لكبح جماح النيران فى أماكنها واستخدم لذلك جميع السقائين تحت إمرة أربعة وعشرين من كبار الأمراء فكانوا ينقلون المياه من الآبار والصهاريج والحمامات لمنع انتقال النار وكنت ترى الشارع الموصل من حى الديلم إلى باب زويلة كأنه نهر يفيض بمياهه المتدفقة . وكان لايمر يوم إلاوتصحبه حريق يأكل مئات البيوت والحوانيت . وقد لوحظ أن أكثر هذه الحرائق موجهة إلى الجوامع ودلت القرائن على أنها نتيجة فعل فاعل وذلك من قطع الأقمشة المبتلة بالزيت والقطران والنفط التى عثر عليها وقبض على مسيحى فى جامع الظاهر وفى يده كميات من النفط والقطران يحاول إشعالها وقد اعترف بأن تلك الحرائق مدبرة وهي من عمل المسيحيين واعترف راهبان بذلك أيضا انتقاما لما فعله المسلمون بتخريب كنائسهم . ولما استدعى بطريق الأقباط لاعلان رأيه استهجن أفعال طائفته ونهاهم عنها فأعيد إلى بيته معززا مكرما بين صفين من رجال حرس السلطان ولولا الجند لانتقم منه الجمهور الهائج الذى تعجب كيف أن بطريق الأقباط يعود فى مثل هذا الموكب العظيم

واضطر السلطان أن يقاوم روح جمهور القاهرة و يكبح جماح عاطفته الهائجة فأرسل

(٨)

جنوده و بيتهم فى جميع أنحاء القاهرة لتشتيت شمل جماعاتهم بكل الوسـائل وقبض فى يوم واحد على مائتين من المشاغبين بالقرب من النيل وأحضروا أمام السلطان نخيرهم بين قطع أيديهم أو شنقهم . وعبثا حاول الأمراء أن يتوسطوا لهم لتخفيف حكمه فـكان يرفض إجابة مطلبهم لكي يكونوا عبرة لغـيرهم فنصبت المشانق على جانبى الطريق المؤدى من باب زو يلة إلى ميدان الرميلة وعلق الكثيرون من المسلمين من أيديهم ليكونوا عبرة لغيرهم . وفى الوقت الذى خربت فيه الكنائس كنت ترى المساجد تعلو مآذنها نحو السماء و يزداد عـددها بسرعة عجيبة

ولم يسبق أن تمتع البناء أو المعمار بموسم ناجح موفق كالفترة التى جاءت أثناء حكم الناصر وكان السلطان قدوة لرعيته وعلى ذوق لطيف وثقافة عالية يرعى العلماء كما كان صديقا حميما للمؤرخ العلامة أبى الفداء الذى أعاد اليه أمارة حماة والتى كانت وقفا على أفراد أسرته منذ حكم أخو صـلاح الدين ـ وامتاز عهده بالانتاج الفنى السامى وتدل المبالغ العطيمة التى صرفها السلطان وأمراؤه على المبانى والأعمال الأثرية على ما كانت عليه مصر وقتذاك من الغنى والثروة وقد احتفظ ببعض قطع أثاث الناصر منها مائدتان مطعمتان بالفضة فى دار الآثار العربيـة . وأهم مبانيه العطيمة الأخرى مدرسـة فى بين القصرين (١٣٠٤م) المجاورة للمـارستان المشهورة ببابها الغوطى الذى جلبه معه أخوه خليـل من عكاء . وكذلك الجامع العتيق بالقلعة (١٣١٨م) وكلا الأثرين يدلان على جمال ذوقه ولو أنهما لايمان الآن على ما كانا عليه من بهاء وورنق فى وقت ما . فان القبة العظيمة التى اعتلت جامع القلعة سقطت واختفت قطع القاشانى الرشيقة التى كانت تتحلى بها القبـلة كما اندثر السور النحاسى الذى أحاط بمصلى السلطان « مقصورته » ولايزال إلى الآن بعض المناور السماوية التى تحيط به على جدران الجامع إنما ذهب زجاجها الملون البـديع . وتبين بقايا الأعمدة الجرابيتية العشرة وقطع الفسيفساء الملصوقة على حائط الجامع القبلى وقليل من الآثار الأخرى على مجده السالف وأهم مايلفت النظر فى هـذا المسجد مأذنته المغطاة بالبلاط الأخضر التترى مما يدل على تأثير زوجته التترية ومما يؤسف له أن ذلك الجامع الجميل شـغلته مخازن الاحتلال واستخدم سجنا بعض السنين ولولا عناية أحد الضباط الانجليز لأصبح اليوم بين المبانى التى لانعرف مقرها وكان فى القلعة فى يوم من الأيام بهو الأعمدة أحد أجزاء القصر الأبلق الذى من أعمال الناصر الزاهية ولقد سمى القصر بهذا الاسم لأن حجارته التى بنى منها كان صف منها أبيض اللون وآخر أسود وكانت بقية من ذلك القصر لاتزال حتى أوائل القرن التاسع

عشر . وفى أيام الناصر زيدت أجزاء كثيرة فى القلعة كما أن مجرى العيون التى كانت تصل المياه من النيل إلى القلعة من أعمال الناصر وبعضها من أعمال الأيوبيين . وقد شيد الناصر جامعا بجانب مشهد السيدة نفيسة وكذلك قبة النصر بالقرب من التل الأحمر وزوايا أخرى . والناس فى كل عصر على دين ملوكهم فكان الأمراء يتبعون سنة سلاطينهم فى بناء الجوامع والمدارس والمقابر ولقد رأى الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى زار القاهرة عام ١٣٢٦ كيف كان تنافس أمراء مصر فيما بينهم على تخليد أسمائهم فشيدوا الخوانق والتكايا العظيمة ومنها خانقاه بيبرس الجاشنكير التى لاتزال باقية وهو يقول انه ليتعذر على الانسان أن يحصى المدارس أو يصف عظمة بيمارستان قلاوون بآلاتها العجيبة وصيدليتها المجهزة بالعقاقير الوفيرة أو يتصور المبلغ الضخم الذى يصرف يومياً والذى قدره الرحالة بألف دينار . و بلغ عدد المساجد والمدارس التى شيدت فيما بين عامي (١٣٢٠ و ١٣٦٠ م) اربعين . وهذا العدد أكثر من ربع ماشيد منها منذ فتح العرب مصر حتى أيام المقريزى (القرن الخامس عشر) ولايزال الكثير منها باقياً إلى اليوم وهو يبين ما كان عليه المماليك من مجد وأبهة . ومن هذه الجوامع ـ جامع الأمير حسين (٧١٩هـ ـ ١٣١٩ م) وجامع ألماس (٧٣٠ هـ) وقوسون (٧٣٠هـ) و بشتاك (٧٣٦ هـ) وألتنبجا المردانى (٧٤٠ هـ) وأسلام (٧٤٦) وآق سنقر (٧٤٧) وأرغون الاسماعيلى (٧٤٨) ومنجق (٧٥٠) وشيخو (٧٥٠) ومن المدارس ـ مدرسة الملك (٧١٩) وسنجر الجاولى (٧٢٣) وأحمد المهمندار (٧٢٥) وأقبجا (٧٣٤ هـ) وصرغتمش (٧٥٧) ومن الخانقات ـ خانقاة قوسون (٧٣٦) والجاولى (٧٢٣ هـ) وشيخو (٧٥٦) ـ ونكمل هذه القائمة بجامع السلطان حسن المواجه للقلعة (٧٥٧ — ٧٦٠ هـ) وهو أجمل ماتركه المماليك وأفخم مساجدهم القاهرية

ولوصف مساجد العصر الناصرى يجب أن يفرد الانسان له سفرا خاصا . حقيقة أن بعضها قد عمه الخراب إلا أن مخلفاتها تدل على بهائها السابق ـ ويوجد عدد ليس بالقليل جددت عمارته وأعيدت إلى أصلها كجامع آقسنقر والجامع الاسماعيلى فقد جدد الأول إبراهيم أغا سنة ١٦٥٢ كما جدد الآخر أحد أمراء الأسرة الحاكمة . وهذه الجوامع المذكورة تختلف كلها فى تفاصيلها الهندسية وزخرفتها المعمارية وليس من السهل أن يوضع لها وصف شامل واحد . وكل جامع أو مدرسة أو خانقاة مما ذكرتها تستحق وصفا مستقلا ودراسة خاصة . ولكن قد تتفق كلها فى ظاهرة أو ميزة واحدة ذلك أن الجوامع القديمة تكاد تشترك فى بساطتها الخارجية من حيث الزخرفة فجدرانها هادئة .

وفى جوامع المماليك نرى اقتباسا من فن مبانيهم التى شيدوها فى فلسطين وسوريا ـ وهو فن يمتاز بواجهة (facade) رائعة ـ تشمل الأفاريز والفجوات والكرانيش والتيجان . . الخ من مميزات الزخرفة المعمارية ـ والظاهرة الثانية هى تطور المأذنة التى أصبحت أرق مما كانت عليه وأرشق فنجدها شيدت من الحجر المتقن النحت كما أتقن ذوق تصميمها ونراها تتحول من قاعدة مربعة إلى أخرى مثمنة فاسطوانية وتهبها المقرنصات مسحة أخاذة وتزيدها شرفاتها الدائرة حول خصرها فتنة . أما الظاهرة الثالثة فاتخاذ القباب الكبيرة والقبيبات الصغيرة فوق المحراب أو المدخل ـ وهذه ميزة سار على الأخذ بها أكثر مهندسي جوامع العصر الناصرى . ونحن لا ننكر فضل البعض فى تصميمهم القبة أثناء العصر الأيوبى ـ ونلاحظ وجود القبة فى الجامع الشافعى بالقرافة وفى منشئات أيوبية أخرى

وليس من شك فى أن المماليك أجادوا بناء القباب كما اشتملت أيضا أكثر مساجدهم وكلياتهم على مقابر مشيديها ـ وكان القبر فى كثير الأحيان متصلا بالبناء الأصلى كما كانت القبة تعد مظلة فوق الضريح . وبعصر المماليك يبدأ تجميل القاهرة بتلك المنشآت الرائعة الجمال والسامية الحسن التى لا تزال تسود فن العمارة فى العالم . ونطورت القبة البسيطة إلى قبة أخرى تعلوها قبيبة مقسمة إلى شقق (كالبطيخ) ثم الى القبة المزخرفة من الخارج بنقوش عربية أو هندسية متداخلة وكلها منحوتة نحتا على الحجر . وأتقن هذه النقوش المزخرفة تخص مبانى السلاطين الشراكسة فى القرن الخامس عشر . وعلى أى حال فاننا نعتبر القبة من مميزات العمارة الاسلامية فى القرن الرابع عشر وأعود ثانية لأقول انه فى أبنية العصر الناصرى اتخذت الوجهات المتقنة الصنع من حجر النحت غالبا من لونين واستعمل فيها زيادة فى الرونق الرخام الأبيض والأسود وجعلت فيها الوزرات البديعة وفى أعلى الوجهات ابتكر طراز للكتابة ينتهى بافريز تعلوه الشرفات وفى داخل الجوامع ذوات الايوانات استعملت عمد الرخام دون غيرها دعائم وكانت تؤخذ من العمائر القديمة . وأما السقوف فكانت تعمل من الخشب وتنقش العوارض التى تحملها نقشا جميلا محلى بالذهب وتعمل وزرات الجدران من الفسيفساء بارتفاع عدة أمتار وفسيفساء الأرضية يضاهى فى الجمال فسيفساء الجدران والكل منسجم للغاية ويزيد البناء طلاوة . وما قلناه عن الجوامع يصدق على سائر الأبنية التى ليست لدينا منها عمارة كاملة إلا أن الأجزاء الباقية منها تمكننا من تصور تأليف المجموع وتثبت لنا عظم العمارات التى شيدت فى تلك الأيام

وكمثال واضح لطراز المبانى في القرن الرابع عشر لا أجد خيراً من ذلك البناء الرائع ــ جامع السلطان حسن الذى يضم جميع مميزات العمارة فىالعصر الناصرى . وكان السلطان حسن اعتلى العرش للمرة الأولى سنة (٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م) وعزله أمراؤه عام ٧٥٢ هجرية إلا أنه استطاع خلع أخيه الصالح واستعاد عرشه (٧٥٥ ـ ٧٦٢ هـ) (١٣٥٤ ــ ١٣٦١ م) ولم يكن محبوبا أومحترما وعمله الوحيد الطيب الذى تركه بعد موته هو ذلك الجامع العظيم المعروف بجامع السلطان حسن أو بجامع الحسنية وهو أجمل وأتقن جوامع القاهرة اقتضى لبنائه ثلاث سنوات وكان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وأوسع دوره وعمله فى أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل فلا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع . أقيمت العمارة فيه مدة ثلاث سنين بدون عطلة يوم واحد وأرصد لمصروفه كل يوم عشرون ألف درهم (ستمائة جنيه) ولقد قيل إنه صرف على القالب الذى بنى عليه عقد الايوان الكبير مائة الف درهم وذرع هذا الايوان خمس وستون دراعا فى مثلها ويقال انه أكبر من إيوان كسرى الذى بالمدائن فى العراق بخمسة أذرع . وقبته العظيمة لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها وكذلك المنبر الرخامى الذى لا نظير له والبوابة العظيمة . وكان السلطان قد عزم على أن يبني أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث منها إلى أن كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ فسقطت المنارة التى على الباب فهلك تحتها نحو ثلاثمائة نفس من الأيتام فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها . ولما سقطت المنارة المذكورة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على بن محمد السبكي فى سقوطها :

أبشر فسعدك ياسلطان مصر أتى ... بشيره بمقال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة ... لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت ... فالوجد فى الحال أداها إلى الميل

واتفق قتل السلطان بمكيدة من كبار أمرائه بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما ومات قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتمه من بعده الطواشى بشير الجمدار وقد قيل انه بعد إتمام البناء الرئيسى منه أمر السلطان حسن بقطع يد مهندسه حتى لا تقوم يده برسم نظيره فى العالم

وفى الواقع يكون من غبن هذه التحفة الثمينة إذا قورنت بأحد الجوامع الأخرى

جامع السلطان حسن (٧٥٧ - ٧٦٤ هـ = ١٣٥٦ - ١٣٦٣ م)

[تصوير الأستاذ حسن افندى عبد الوهاب]

فكلها أقزام ضئيلة بجانبـه إذ يبلغ ارتفاع جداره ١١٣ قدما وكل هذه الجدران مبنية بالحجارة المنحوتة الكبيرة المأخوذة من أنقاض الأهرام بينما تحلى النوافذ العديدة وجهته الممتدة . وأجمل مظاهر الجامع كورنيشه الفخم المكون من ست وصلات من المقرنصات واحدة تعلو الأخرى والكل يتوجن جدرانه السامية بينما تزين مدخل الجامع تلك النقوش القوية والزخارف الهندسـية والأعمدة الركنية ذوات التيجان المقرنصة مما لا يستطيع وصفه بكل دقة سوى المعمارى المـاهر

وداخل الجامع لا يقل أبهة ورونقا عن خارجه فالكتابات الكوفية والعربية المنقوشة على أعلى الجدران تزينه وتزيده حسنا وجمالا ـ وفى مقصورة القبر كتبت آية الكرسى بالكوفية على الجدران الأربعة على ألواح الخشب الثمين وفى وسط المقصورة قبر منشئه وتعلوها القبة الجديدة وهى ليست بقبة الجامع الأصـلية . فقد تهدمت عام ١٦٦٠م وكان قد وصفها « بيتروديلا فالى » لمـا زار القاهرة عام ١٦١٦ م

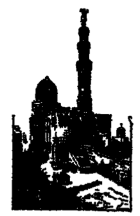
هذا وأكثر مشكاواته النحاسية ومصابيحه الزجاجية المطلية بالميناء لا تزال محفوظة فى دار الآثار العربية ولمـا شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة جامعه بجوار باب زويلة اشترى باب الجامع النحاسى ونقله إلى جامعه عام ٨١٩ هـ .

وكان هذا الجامع مقاوما لقلعة الجبل فقلما تكون فتنة بين أهل الدولة إلا ويصعد إلى أعلاه عدة من الأمراء وغيرهم ويبـدأ الرمى منه على القلعة فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر فهدم الدرج الذى كان يصعد منه إلى المنارتين ويتوصل من هذا الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج الذى كان بجانبي هذه البسطة الواقع أمام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود اليه وسد من وراء الباب النحاس وفتح شـباك من شـبابيك أحد مدارس هذا الجامع الأربعـة ليتوصل منه إلى داخل الجامع كما امتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين وبقى الآذان على درج هذا الباب . ومع ذلك فقد استمر الجامع مركزا للناوشات وتبادل الطلقات حتى أيام المغفورله محمد على الكبير. ولا تزال آثار بعض الجلل باقية عليه للآن . وقد ذكر مستر «ستانلى لين بول» أن إحدى مأذنتى الجامع كانت تصل بسور القلعة بحبل كان يلعب عليه « بهلوان أوروبى » ! تسلية للجماهير التى كانت تفد اليه لمشاهدة مخاطراته .

ومع كل مامر بهذا الجامع الخـالد من الحوادث والذكريات والسـنين والأيام فانه لم يزده إلا عظمة ووقارا بالرغم عمـا ظهر على وجهه من ملامح الشيخوخة وهو لا يزال أثمن وأفخر أثر إسـلامى خلفه لنا أبناء القرن الرابع عشر .

قاهرة المماليك الجراكسة

أنظر إلى بركة الفيل التي اكتنفت بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هي والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر


مسجد قايتباى فى القرافة الشرقية

جاء بعد الناصر أبناؤه الضعفاء محمد بن حاجى (الملك المنصور الخامس) وشعبان بن حسن الأشرف وعلى بن شعبان وأخيرا جاء حاجى بن شعبان وكانوا جميعهم ألاعيب يحركها الأمراء الأقوياء وظهر من هؤلاء الأمراء قوسون وشيخو وصرغتمش وآخرهم برقوق الذى خلع السلطان حاجى بن شعبان عام ٧٨٤هـ (١٣٨٢ م) وتولى العرش مكانه ولقب نفسه بالملك الظاهر وهو لقب أعظم من حكم مصر من دولة المماليك البحرية وهو ركن الدين بيبرس البندقدارى . وبتوليته العرش زال مبدأ الوراثة الذى لم يعد حتى جاء القرن التاسع عشر

وهذه السلالة الجديدة هى التى عرفت فى التاريخ باسم المماليك البرجيـة أو مماليك الحصن لأنهم كانوا فى الأصل يتبعون فرقة من الجند اتخذت القلعة مركزا لحاميتها منذ قرن ويسمونهم أحيانا المماليك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينهم فأنهم من الشعب الشركسى نشأوا من سيبريا ثم هاجروا الى غربى بحر قزوين ولو أن بعضهم كانوا من الأتراك واثنين من الروم . وكان سلاطين هذه السلالة الجديدة تحت رحمة أمرائهم أكثر من سلاطين المماليك البحرية وكان حرس كل أمير مملوك يعد نفسه مستقلا عن شؤون الدولة فيطلقون على فئتهم الأشرفية والمؤيدية والناصرية نسبة الى أميرهم أو ملكهم . وقد عدوا أنفسهم أحزابا مستقلة فى السياسة بعد موت أميرهم أو خلعه ويساهمون كما يريدون فى المعارك الدموية وحوادث السلب والنهب . ولم يستطع السلاطين أن يكبحوا جماح روح مماليكهم الطبيعية وأصبحوا عاجزين فى الواقع عن ادارة شئون البلاد بدونهم . ومن عجيب ما نراه أن ستة من ثلاثة وعشرين سلطانا منهم حكموا

١٠٣ سنة من ١٣٤ سنة وهى مدة حكم أسرتهم على عرش مصر فيتضح أنه فى مدة ثلاثة وعشرين عاما حكم منهم ١٧ سلطانا !

وكانت أخلاق الحكام الجدد على مثال من سبقهم إنما بمقياس أصغر ولم يكن من بين سلاطينهم أمثال بيبرس وقلاوون وغيرهما من القواد الفاتحين الا من ندر ولم يكن الشراكسة جنودا بمعني الكلمة انما كانوا رجال فكر لا يعتمدون على الشجاعة بل على المؤامرة والمكيدة فمثلا السلطان الرومى «خوش قدم» اشتهر بحلمه وحبه لرعيته فكان يجبي الضرائب ويصرفها لصالحهم وقد يكون أفضل سلاطين مصر. وفى أثناء حكم غيره كانت المناصب تباع وتشترى كما انتشرت الرشوة بين كبار الموظفين

وفى عصر الشراكسة لم تعرف العاصمة أمنا ولا سكينة وكان المنافسون من الأمراء يعلنون القتال فيتبادلون الأسلحة من القلعة وجامع السلطان حسن وباختصار فقد كانت القاهرة كأنها فى حالة حرب دائم

وبالرغم عن القلاقل الداخلية فقد استطاع مماليك الشراكسة الى حد ما أن يحافظوا على سمعة مصر بين الممالك المجاورة وبوسعوا ممتلكاتهم وينشروا تجارتهم فقد قاوم برقوق تيمورلنك الفاتح التترى الشهير وكان قد ملأ الأرض بفتوحاته حتى سمع دويها فى سوريا اذ جاء يهدد حدودها فنهض اليه برقوق وأوقفه عند حده عام ١٣٩٩ م ولكنه قبل أخيرا شروطه وعاد تيمورلنك من حيث أتى

وقام سلاطين الجراكسة بعدة معارك على أرض آسيا الصغرى فأخضعوا قرمان وقيصرية وأيقوبيوم ولاريندا وغزوا قبرص التى اتخذها قرصان البحر وكرا لأعمالهم وكثيرا ما كانوا يهاجمون الأسطول المصرى فجهز لهم عام ١٤٢٦ م الملك أشرف برسباى أسطولا بناه في بولاق فأخضع الجزيرة وحمل الملك «جان لوسينيان الثالث» على الاعتراف بسلطانه وأداء الجزية وكان هذا الملك وقع أسيرا فى أيدى المصريين فى معركة « شيروكتيا » وأحضروه مكبلا الي مصر وأخذوه فى موكب الى القلعة وجعلوه يقبل الأرض أمام السلطان برسباى ودفع فديته قنصل البندقيــة والتجار الأجانب ثم ركب فى موكب حافل وساروا به بين الشوارع والأسواق بعد أن جعله واليا من قبله وعقد برسباى مع ملوك الصليبيين وسلطان آل عثمان أذذاك مراد بن محمد معاهدات سلمية دلت على عظم شوكته وباختصار كانت مصر فى أيامه سعيدة وقال بعض المؤرخين عنه أن برسباى أجدر ملوك الشراكسة بالمدح لأنه كان أعلاهم همة وأشدهم عزيمة وأكثرهم دراية بشئون الحكم وقد وصلت الحدود المصرية فى عهده الى بيراموس والفرات

ولا نجد بين عجائب الشذوذ فى التاريخ الشرقى أغرب من هؤلاء المماليك فى الجمع بين المتناقضات التى لا تجمع فى طبقة من الأمراء فى أى زمان أو مكان . فبينما نجدهم عصبة من الأفاقين ابتيعوا بيع السلع ونشأوا أرقاء وربوا سفاكين للدماء ظالمين للعباد مخربين للبلاد نجد منهم ميلا غريبا للفنون والعلوم والأدب والدين مما يحق لأى ذى عرش أن يفخر به . ولقد أظهر هؤلاء المماليك فى لباسهم وحياتهم وعماراتهم ذوقا سليما ورفاهية بالغة يصعب على أوربا الآن فى عصرها المحب للجمال أن تدانيهم فيه . فكان برقوق والمؤيد وجقمق وقايتباى مولعين بمجالس العلماء والأدباء وكان برسباى على قلة علمه باللغة العربية يصغى إلي تاريخ العثمانيين الذى كان يقرأه له « العينى » وكان « الظاهر تمربغا » الرومى عالما بأصول اللغات والتاريخ والتصوف وكانوا مسلمين يؤدون فرائض الدين كاملة لا يشربون الخمر ويحجون إلى بيت الله شيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات والمنشئات الدينية . وكان المؤيد بالرغم عن ضعف نفوذه مسلما عالما وموسيقيا بارعا وشاعراً وخطيبا بسيط الملبس والمعيشة يختلط بالشعب كأنه منهم . شيد بنايات جميلة منها جامع المؤيد بالقرب من باب زويلة ولم يبق من بنائه القديم إلا ايوان القبلة وشيد أيضا المارستان المؤيدى (١٤١٨ م) بالقرب من القلعة . وبنى برسباى جامعه الكبير المعروف بالأشرفية (١٤٢٣ م) بالقرب من الموسكى عند منعطف الغورية . وبنى برقوق (١٣٨٦ م) المدرسة الظاهرية بين القصرين والتى جددها المهندس القدير « هيرز بك » وشيد جامعا فيه مقبرته وله قبتان وقد مات ولم يكمله فأتمه ابنه فرج عام ١٤١٠ وهذا الجامع يعد فى مجموعة الجوامع النفيسة الموجودة فى القرافة الشرقية ولكن درة المجموعة مسجد ومقام قايتباى (٨٧٩ هـ) وهو مثال جليل لما وصل اليه فن المماليك . فان القبة تسمو بنقوشها العربية ومأذنته البديعة التى تناطح السحاب تتحول من مربع فمثمن فدائرة وتختفى زواياها بالمقرنصات كذلك إيوانه المرصع بالرخام .. كل هذه النفائس مجتمعة تزيد هذا المقام قدرا واعتبارا بالرغم عما أصابه من الاهمال والخراب

قايتباى

تولى السلطان قايتباى العرش فمكث على سرير السلطنة ٢٨ عاما (٨٧٢ — ٩٠١هـ) وهذه ظاهرة لا نراها فى غيره من السلاطين الشراكسة وكان قايتباى مملوكا اشتراه برسباى بمبلغ خمسة وعشرين جنيها

وتحول من سيد لسيد وصار يترقى من رتبة لرتبة حتى أصبح « أتابك الجيش » للظاهر

«تمر بغا الرومى» وكان الجيش المصرى اذ ذاك يكلف الدولة ٣٠٠٠٠٠ جنيه فى السنة وليس من شك فى أن هذه الميزانية تعد شيئا كثيراً فى القرن الخامس عشر . وقد ساد قايتباى بأخلاقه كل المماليك وكان يضرب بنفسه كبار موظفيه فى مجلس البلاط معتمدا على قوة ساعديه ليصل اليه المال الذى يطلبه وكان فى أشد الحاجة اليه لمعاركه المتعددة وقد زاد الضرائب لأجلها . وكان يعصر أغنياء اليهود والمسيحيين عصراً لاستخراج أموالهم واستعمل أنواع القسوة فى سبيل حصوله على ما يكفيه من المال حتى قيل إنه أعمى الصيدلى « على بن المرشوشى » وحرمه من لسانه أيضا لأنه عجز عن تحويل صدأ المعادن الى ذهب !

ولقد وصم قايتباى بشحه انما الواقع لا يفر رهذا الوصف فقد اشتهرت آثاره الخالدة من بعده فى سوريا و بلاد العرب وجميع أنحاء مصر مما يدل على أنه صرف مالا كثيراً في تشييد مثل تلك الآثار النفيسة التي ستعلمها الآن . فقد شيد جامعين أحدهما ضمن مقابر الخلفاء (١٤٦٢ م) والآخر بالقرب من جامع ابن طولون (١٤٧٥م) ووكالاته أو خاناته تعتبر من أجمل الأمثلة لفن الزخرفة العربية التى لازمت العمارة الاسلامية وجدد مجموعة كبيرة من آثار أسلافه أهمها الكتابات المنقوشة فى المساجد والمدارس وما أضافه من المشيدات فى القلعة وغير ذلك من الأسبلة والقصور . وكان محبا للسياحة فقد رحل الى سوريا والفرات ومصر السفلى والعليا و زار مكة والبيت المقدس وتجده أينما رحل ترك خلفه أثرا يتحدث عن مكانته فمن طرق الى قناطر الى مساجد الى مدارس الى قلاع منيعة الى مبانى دينية متعددة . ولا يمتاز أى عصر من عصور سلاطين المماليك على عصر قايتباى من حيث الانتاج المعمارى اذا استثنينا عصر الناصر بن قلاوون

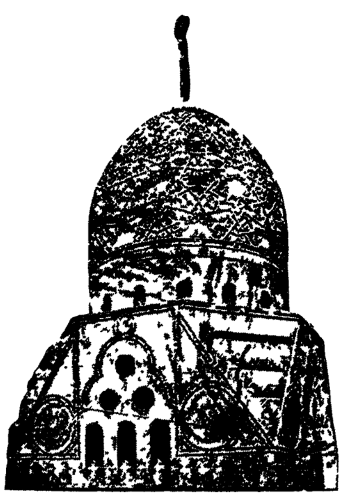
وفى أيام المماليك الشراكسة وعلى الأخص فى عصر قايتباى أدخلت على فن البناء تعديلات عظيمة فقد توسعوا فى استعمال الحجر المنحوت و بنوا به الجدران الداخلية وزخرفوها بنقوش لطيفة وفى داخل الجوامع وفى وجهاتها كانوا يدخلون النقوش العربية والزخارف ومع ان الخط الكوفى كان استبدل من زمن بعيد بالخط النسخ الا أنهم كانوا يرجعون اليه لموافقته فى الزخرفة . وشيدت القصور العظيمة وصرف فى زخرفتها جميع أفانين الصناعة الدقيقة واتخذت فيها لاستقبال الزائرين مقاعد ذات عقود تطل على أفنية واسعة ثم خصصت من بين غرف الدور القاعات الواسعة بعناية خاصة فكسيت جدرانها بالفسيفساء وموه سقفها بالذهب وركبت فيها المشربيات وكانت

مقيلا مقبولا من هجير الصيف

وكان المهندسون يعنون على الأخص بالقبور فلم يجعلوها فى ركن غير ظاهر من المساجد كما كان الحال فى عهد المماليك البحرية بل صارت الجزء المهم من الجامع

ولم تكن الزخرفة الخارجية قبل دولة الشراكسة تتناول من أشهر الآثار غير الباب والمأذنة و بعض المرافق الأخرى حيث تكون سائر العمارة فى غاية البساطة والتجرد من التأنق ولكن فى عهد سلاطين الشراكسة راق المهندسون أن يجعلوا أبنيتهم شائقة فى كل جهاتها الخارجية ولذلك امتازت الآثار التى كثرت فى مصر فى ذلك العهد بالاتقان جملة وتفصيلا

وشاع فى عصر الشراكسة عمل الزخرفة نقشاً على الحجارة نفسها بدلا من عملها بواسطة الجبس أو الملاط كما اتبع مهندسو الفاطميين ومن جاءوا بعدهم . والمنبر الحجرى ذو النقش البديع الذى أقامه قايتباى (١٤٨٤ م) فى مقام برقوق يعد فى طليعة الأمثلة الفنية النفيسة التى تفتخر بها القاهرة من ذلك النوع والحجارة فيه تقوم مقام الخشب وهى عبارة عن ألواح حجارية أجيد نحتها ونقشها وتركيبها فأصبحت كقطعة واحدة أخرجت من قالب دقيق الصناعة أو كقطعة من النتنلة أخرجتها يد آنسة رشيقة . وكثير من أمثال هذه النقوش الجميلة تغطى جدران السلم وضريح هذا المقام الجليل



قبة قايتباى بالصحراء (٨٧٧—٨٧٩هـ)

وكان قايتباى مدققاً فى أعماله وامتاز على جميع زملائه ذوقا وهندسة كما اشتهر بشدة عنايته بالدقائق كعنايته بالتفصيلات . ودراسة آثاره كلها تدعو الى الاعجاب والدهشة ونستطيع التحقق من ثروة نقوشه البديعة فى جامعه بمصر بالقرب من

جامع ابن طولون وفيه نرى العقد الكبير مصنوعا من ثلاثة وعشرين قطعة من الحجر وفى كل ناحية من ناحيتيه قطعة حمراء وأخرى بيضاء وعلى هذا النحو يتبادل اللونان بتآلف جميل بينما تسترها النقوش العربية وعلى العقد نفسه نقش اسم السلطان وبجانبه شارة الملك وعبارة فيها الدعاء له ولحكمه – وليس من شك فى أن هذه المجموعة تترك فى النفس أثراً لطيفاً لما تحتويه من أدلة الذوق السليم . ولم يكن قايتباى أقل عناية فى مبانيه الثانوية كالوكالات والحامات التى اشتملت هى الأخرى بدورها على محصول نفيس فى الرسوم المتنوعة وتثبت له وكالته بالقرب من الأزهر هذه الشهادة بالرغم عما أصابها من الاهمال والخراب وتستحق وجهها التى احتفظ ببقائها دراسة الذين يرغبون فهم جمال الزخرفة العربية الهندسية . وقد استطاع بعض مهندسو الأجانب استخراج طبقات من هذه الحليات المنقوشة ووضعوها فى متحف «كنسنجتون الجنوبى» ولاشك أن البناء الأصلى لتلك الوكالة كان فى أيامه نموذجا لفن العمارة النبيلة التى تعتبر مرجعاً صادقا للدراسة

ويمكن اعتبار فترة حكم قايتباى صورة طبق الأصل لعصر الناصر من حيث تشييد المبانى العظيمة . ولاتزال مساجد الشراكسة تجذب اليها المعماريين والمصورين والزائرين من نواحى العالم . فصخامتها الباهرة ومآذنها الدقيقة وقبابها المزركشة ومقرنصاتها الكثيرة على الداخل وكرانيشها المصطفة وزواياها المحلاة وفسيفساتها الرخامية وقبلاتها الزاهية . كل ذلك كمال فى الذوق والموضع

وأذكر من أشهر مبانى عصر قايتباى ماشيده الأمراء . فقد شيد أزبك اليوسفى جامعه (١٤٩٥ م) وخير بك (١٥٠٢ م) كما شيد أمير آخور خانى بك أيضاً . وجوامعهم عنوان للفن الجميل – كذلك تلك الدرة الصغيرة مدرسة القاضى أبو بكر بن مظهر (١٤٨٠ م) التى أعادت تجديد بنائها لجنة حفظ الآثار العربية باشراف مهندسها المعمارى «هرز بك» الذى أرجع اليها رونقها السالف وألوانها الأصلية – وكذلك مسجد الأمير كجمز الاسحاقى الذى جددته اللجنة أيضا

هذا وقد تطور بناء المدارس أثناء القرن الخامس عشر فحدث تعديل فى تصميمها من حيث اتخاذ الشكل المصلب وابتدأت المدرسة تحل محل الجامع كمكان تقام فيه صلاة الجمعة بالنسبة إلى قلة ما كان يشيد من المساجد فى ذلك الحين – وأشهرها مدارس المؤيد وبرسباى وأزبك . وحدث أيضاً تطور فى تصميم المساجد لكى تسير مع تصميم المدارس وأوضح هذا التغيير نراه فى مدرسة « كجمز »

الغورى

وأخيرا نرى القوة تتحول عن سـلاطين الشراكسة حتى يستدعى لعرش السلطنة السلطان الغورى (٩٠٦ هـ) بعد الناصر محمد والظاهر قنصوة والأشرف جنبلاط والعادل طومان باى وكانت حركة البناء فى عهد هؤلاء فاترة جداً ولاأذكر من مشيداتهم العظيمة سوى قصر ماماى (بيت القاضى الحالى) (٩٠٠ هـ) ومقبرة قنصوة (٩٠٤ هـ) ومقبرة العادل طومان باى (٩٠٦ هـ) . وكان الغورى قوى الارادة دائم النشاط . . أعاد الأمن إلى نصابه وقضى على العسف الذى فشى فى القاهرة ثم زاد الضرائب دفعة واحدة فكان يجبيها من أصحاب عربات المياه والسفن والجمال واليهود والمسيحيين والخدم ليكتنز المـال فى الخزائن . فلما أصلح مالية الدولة بدأ يصرفها فى تشييد المبانى العامة الكبيرة ـ فمن شق ترع إلى فتح طرق إلى إقامة حصون السواحل إلى تقوية القلعة . ثم أصلح طريق الحجاج إلى مكة وشيد مدرسته عام (٩٠٨ هـ) ومقبرته التى لم يدفن فيها وهى دار المكتبة الزكية اليوم وهما مواجهان بعضهما فى شارع الغورية الذى تغيرت ملامحه كثيراً أثناء الخمسين سنة الأخيرة . وأقام الغورى أيضا مأذنة الجامع الأزهر وشيد جامع المقياس فى جزيرة الروضة وسبيل المؤمنين فى الرميلة وطواحين الهواء فى مصر العتيقة كما جدد بناء عيون المياه الموصـلة للقلعة . وكان الغورى مبجلا فى مجلسـه كريما للشعراء ميالا للموسيقيين وكان محباً للمـال يبحث عنه فى كل مكان . وأشهر مايخلد للغورى على صفحات التاريخ مناوأته لأسطول البرتغاليين فى البحر الأحمر وهزيمتـه لهم عام ٩١٣ هـ . لـكن فارقه حظه السعيد لمـا خرج بجيشه المصرى وهوفى طليعته لكى يصد جيوش العثمانيين الذين توغلوا فى البلاد السورية فسقط فى معركة «مرج دابق» شهيدا وهرسته أرجل الخيل فقـام المتولى بالأمور الأشرف طومان باى (٩٢٢ هـ) والتحم بالعثمانيـين بالقرب من هليوبوليس شمالى القاهرة لكن دارت الدائرة عليه وهزم المماليـك شر هزيمة وحاول «طومان باى» فيما بعد أن يجمع قواه لمقاومة الفاتحين بالقرب من باب النصر ففاجأه سليم بهجمة عنيفة فى جانبه جعلته يرتد داخل المدينة ودار القتال فى شوارعها بين المصريين والعثمانيين حتى استولى السلطان سليم على القلعة فقبض على «طومان باى» وأمر بشنقه على باب زويلة وأصـبحت مصر منذ ذلك الحين ولاية عثمانية تدفع الجزية لسلاطين آل عثمان

قاهرة المقريزى

لعمرك مامصر بمصر وانما هى الجنة العليا لمن يتذكر
وأولادها الولدان من نسل آدم وروضتها الفردوس والنيل كوثر

[ابن سلار]

وقاهرة هذا العصر صورة لتلك المدينة التى يتتبع وصفها القارىء فى ألف ليلة وليلة . فى الفصلين الأخيرين قرأنا وصف قاهرة السلاطين وانما ليست العاصمة صورة لآثار سلاطينها وحكامها فللقاهرة حياتها القوية الأخرى ـ تلك الحياة النشيطة التى قاومت المستبدين جيلا بعد جيل. فليست القاهرة وقفا على مساجد ومدارس ومقابر ووكالات الحكام من سلاطين وأمراء .إذ هى فى كل عصر قلب الديار ومركز تجارتها ومتعة أهلها الاجتماعية ومبعث ثقافتها الأدبية ومنارة دينها القوى

القلعة

لقد أصبحت الآن القاهرة تلك التى عرفها المقريزى والتى عاش تحت سمائها ولم تكن ذلك المعقل المحدود الذى اشتمل على القصور الفاطمية بأسوارها العالية فقد امتدت من جميع نواحيها إلا من ناحيتها الشرقية وتعدت عمارتها بوابتيها الشماليتين وتكونت ضاحية جديدة عرفت بالحسينية كثرت فيها المساجد والزوايا والدور وانتشرت مبانيها إلى الغرب حيث كان الفضاء بين سور القاهرة الفاطمى والنيل وانحسر النهر وتقلص ماؤه عن سور القاهرة فسمح لقطعة من الأرض للظهور فنشأت ميناء جديدة عرفت باسم بولاق و بنيت مجموعة من المنازل مكان مجرى النيل القديم (١٣١٣ م) وجد الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة فى البناء وصارت بولاق حينئذ تجاه بولاق التكرور يزرع القصب والقلقاس على ساقية تنقل الماء من النيل وتفاخر الأهالى فى إنشاء القصور والمناظر وغرسوا حولها البساتين العظيمة وانتظمت العمارة فى الطول على حافة النيل من منية السيرج إلى موردة الحلفاء بجوار الجامع الجديد خارج مصر وعمر فى العرض على حافة النيل الغربية من تجاه الخندق شمالى القاهرة إلى منشاة المهرانى و بقيت هذه

المسافة العظيمة كلها بساتين وأحكاراً عامرة بالدور والأسواق والحمامات والمساجد والجوامع وغيرها . وكان موضع جزيرة الفيل (١٢٠٠ م) غامراً بالماء فى الدولة الفاطمية فلما كان بعد ذلك انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل وترك فى مكانه فربا عليه الرمل وصار الماء يمر من جوانبها وصارت هذه الجزيرة فى وسط النيل ومابرحت تتسع إلى أن زرعت فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فوقفها على المدرسة التى أنشأها بالقرافة بجوار قبر الشافعى رضى الله عنه وكثرت أطيانها بانحسار النيل عنها تدريجياً فى كل عام . فلما كانت أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد عودته إلى قلعة الجبل من الكرك انحسر النيل عن جانب المقس الغربى وصار ماهنالك رمالا متصلة من بحريها بجزيرة النيل ومن قبلها بأراضى اللوق وافتتح الناس باب العمارة بالقاهرة ومصر فعمروا فى تلك الرمال المواضع التى تعرف اليوم ببولاق خارج المقس واستجد ابن المغربى الطبيب بستانا اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى بنحو المائة ألف درهم وتتابع الناس فى إنشاء البساتين حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة بعد أن كانت فضاء يلعب على أرضه فرسان المماليك ألعابهم . واستمرت بساتين الجزيرة عجباً من العجائب من حسن المنظر وكثرة المتحصل من خيراتها إلى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فتلاشت وخرب كثير منها وتعطل معظم سوقها وهجرت رباعها وحماماتها

وهكذا كان نمو المدينة من ناحيتها الغربية أما من ناحيتها القبلية فكانت المساحة الممتدة بين الأسوار الفاطمية والقلعة وجامع ابن طولون حتى أيام السلطان صلاح الدين تشتمل على البساتين والبيوت الصيفية (الفيلات) والبركة التى يفيض عليها مياه النيل اثناء الصيف ـ اصبحت الآن تشغلها المنازل والمساجد بقبابها ومآذنها التى أقام معظمها المماليك

تطور القاهرة

وامتداد القاهرة من هذه الناحية يمكن أن يرجع اليه القارىء الراغب فى الاطلاع بالتفصيل فى الخطط المقريزية فهى المرجع الوحيد الوافى فى هذه الناحية . فمن الجوامع التى شيدت جامع يوسس (٧١٩ هـ) وجامع ابن الطباخ (٧٤٦ هـ) فى حى اللوق حيث كان يلتقى النيل فى ذلك الزمان وجامع ابن غازى (٧٤١ هـ) وجامع الطواشى (٧٤٥ هـ) الذى كان فى غربى باب البحر القديم وزاوية أبى السعود (٧٢٤ هـ) خارج

باب القنطرة وأرض تلك الناحية لم تكن فى يوم من الأيام مغمورة بالمياه . وأذكر من جوامع بولاق جامع ابن سارم والباسطى (٨١٧ هـ)

أرض الطبالة

وفى شرق بولاق أو خلفها (العباسية الآن) عمرت منطقة جديدة من الأراضى عرفت بأرض الطبالة انحصرت بين الخليج الناصرى والمقس وكانت من أحسن منتزهات القاهرة يمر النيل من غربيها عند مايندفع من ساحل المقس حيث كان جامعها الى أن ينتهى الى الموضع الذى عرف بالجرف على جانب الخليج الناصرى بالقرب من بركة الرطلى وكان منظر هذه المنطقة أيام الربيع خلابا جميلا وفيها قال الشاعر المصرى سيف الدين على :

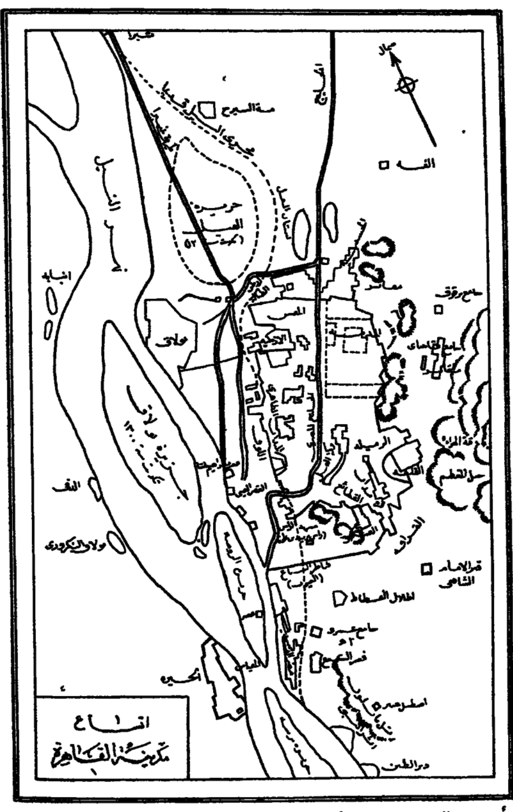
الى طبالة يعزون أرضا لها من سندس الريحان بسط
رياض كالعرائس حين تجلى يزين وجهها تاج وقرط

وسبب تسميتها بذلك هو أن الأمير أبا الحارث أرسلان البساسيرى لما غاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسى وخرج من بغداد يريد الانتماء الى الدولة الفاطمية بالقاهرة أمده الخليفة المستنصر بالله حتى استولى على بغداد وأخذ قصر الخلافة وأزال دولة بنى العباس منها وأقام الدولة الفاطمية وأرسل كل تحفه الثمينة وغنائمه النفيسة الى القاهرة فسر الخليفة المستنصر سروراً عظيما وزينت القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة فوقفت « نسب » طبالة المستنصر وأنشدت وهى واقفة تحت القصر وحولها طائفتها :

يابنى العباس ردوا ملك الأمر معد
ملككم ملك معار والعوارى تسترد

فأعجب المستنصر ذلك منها وقال لها « تمنى » فسألت أن تقطع الأرض المجاورة للمقس فأقطعها هذه الأرض وقيل لها أرض الطبالة وأنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى عرفت بتربة نسب . وقد حكرت هذه الأراضى وبنيت بها دورا وبيوتا وكانت من ملح القاهرة وبهجتها وقد خربت فى سنة ست وتسعين وستمائة عند حدوث الغلاء والوباء فى سلطنة الملك العادل كتبغا حتى لم يبق فيها انسان يلوح وبقيت خرابا الى مابعد سنة ٧١١ هـ فشرع الناس فى سكناها قليلا قليلا فلما حفر الملك الناصر محمد ابن قلاوون الخليج الناصرى سنة ٧٢٥ هـ كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب فمازال المهندسين حتى مروا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوابين التى عرفت فيما

بعـد بيركة الحاجب وبركة الرطلى فروا به من هناك حتى صب فى الخليج الـكبير فعمر الأمير المذكور هناك القنطرة التى عرفت بقنطرة الحاجب على الخليج الناصرى



و بذلك أعيدت العمارة ثانية الى أرض الطبالة وصارت بها عدة حارات منها حارة العرب والأكراد و . . . الخ إلى أن حدث غلاء سنة ٧٧٧ ﻫ أيام الأشرف شعبان بن حسين فخرب كثير من حارات أرض الطبالة و بقيت منها بقية الى أن دثرت منذ سنة ٨٠٦ ﻫ

وصارت أكواما . وكان من أشهر جوامع الطبالة جامع الكيقتى الذى شيد على الخليج الكبير عام ٧٩٠ هـ وجامع سروجه (٧٤٠ هـ) بالقرب من بركة الرطلى . واذا بعدنا نحو الشرق قليلا لوجدنا مساجد أخرى قد شيد منها جامع الملك (٧٣٢ هـ) وابن الفلك فى حى الحسينية وجامع عكوش وابن المغربى خارج القنال وخان يونس والجبجا (٧٥٠هـ) وابن غراب (٧٩٨ هـ) وزاوية الجبرى (٦٨٧ هـ) والقلندرية (٧٢٢ هـ) والخلاطى (٧٣٧ هـ) خارج باب النصر ومن هذه المساجد نستطيع أن نعرف تاريخ نمو مدينة القاهرة من ناحية الشمال

وكانت القاهرة إذ ذاك تشغل نفس المساحة التى كانت تشغلها حتى أوائل القرن الماضى قبل أن تتسع القاهرة وتوجد ضواحيها الحالية التى أنشئت منذ نصف قرن أو أكثر بقليل . واعتقد أنه لم يكن هناك فرق يذكر بين حال القاهرة أثناء القرن الخامس عشر وتلك القاهرة التى أجاد وصفها فوج من مشاهير الرحالة والمستشرقين الأوربيين وفى طليعتهم ويلكنسون وبورخاردت ولين وجون فلبس وهاى ـ هؤلاء الذين أجادوا وصفها أو تصويرها فى مؤلفاتهم أو لوحاتهم الخالدة أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر والذين يدققون النظر فى لوحات هؤلاء يتصورون بسهولة القاهرة التى كانت الى عهد قريب تحمل طابعها المصرى طابع القرون الوسطى

وكيف يكون منظر القاهرة مختلفا لذلك الزائر الجديد عندما يصل الى الاسكندرية فيقصد إحدى السفن لتنقله على ترعة المحمودية وبعد أيام يرى نفسه فى ميناء بولاق ومنها يستأجر مطية ليصل إلى باب الحديد على بعد ميل تقريباً فيدخل القاهرة من ناحيتها الشمالية الغربية من المدينة

وكان يوجد طريقان رئيسيان طولها واحد يؤديان من بولاق إلى القاهرة ـ أولهما الشمالى غير منظم ولكنه الممر الهام للتجارة وثانيهما الجنوبى يجبر الزائر من عبور قناتين لكى يصل الجنب الغربى من حديقة الازبكية . وإذ ذاك يمر بجامع أبى العلا الذى يقع على يمينه . وفى أثناء الاحتلال الفرنسى للبلاد المصرية رفع الفرنسيون مستوى هذا الطريق لكي لايعرقله الفيضان وحاولوا أن يصلوا به الى القلعة بطريق مستقيم وواسع وهذا المشروع وان لم ينجح أثناء حكم الفرنسيين الا أنه تم فيما بعد باسم شارع فؤاد الأول

وقد لعبت القاهرة دورا عظيما فى التجارة فكانت ملتقى تجارات الشرق بالغرب وعادت على أهلها وتجارها بالأرباح الطائلة التى نقرأ عنها فى كتاب ألف ليلة وليلة وكان لابد

لهذا النشاط التجارى من أسواق ووكالات وخانات وفنادق فكانت القاهرة مزدحمة بهـذا النوع من المنشآت التى ترمى كلها الى غرض واحد . فهى عبارة عن مجموعـة من البيوت التجارية أو الحوانيت التى تحيط بساحـة أو فناء وأمام هـذه الحوانيت باكيات مسـقوفة يضع فيها التجار اصنافهم الزائدة عن حاجة العرض كما يستعملونها سـكنا لهم الى انتهاء مهمتهم ومكانا يسـتخدمونه أيضا لراحـة حيواناتهم .
وأشهر هذه الخانات الباقية إلى يومنا خان الخليلى وكان موضعه تربة القصر التى فيها قبور الخلفاء الفاطميين وقد أنشأه الأمير جهاركس الخليلى أمير أخور (أمير الخيل) الملك الظاهر برقوق وأخرج منها عظام الأموات وألقاها بكيمان البرقية (١٤٠٠) وخان الحمزاوى أوسوق القماش ووكالتا قايتباى ووجهتاهما يعتبران مثلين بديعين لزخرفة النقش فى تلك الأيام والأولى بالقرب من جامع الأزهر والثانية بالقرب من السروجية ولقد كان فى القاهرة عند ما وصفها « مستر لين بول » عام ١٨٣٥ مائتا وكالة لا تزال بقية منها نشاهدها الى اليوم

خانات القاهرة وفنادقها

وفى أثناء القرن الخامس عشر صارت خانات القاهرة أسواقا للتجار الذين ازدحمت بمتاجرهم وكان أمراء المماليك يدركون مايعود عليهم من بناء الوكالات فكان يفخر الأمير اذا شيد وكالة نخمة تعطيه كل غرفة من غرفاتها إيجارا شهريا يناسبها . وكان من بين أشهر تلك الخانات التى ازدحمت بها القاهرة خان مسرور وهما اثنان أحدهما الكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة الى الحريرين وكان يحتوى على مائة غرفة والصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة الى الجامع الأزهر وكان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة الكاملية هو سوق الرقيق وكان مسرور هذا من خدام القصر واختص بالسلطان صلاح الدين . وقد أدرك المؤرخ المقريزى دلك الخان وهوفى غاية العمارة وكانت تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم وكان من أجل الخانات وأعظمها فلما كثرت المحن بخراب بلاد الشام منذ سنة تيمورلنك وتلاشت أحوال مصر قل التجار وضألت مكانته وتهدمت عدة أماكن منه
ومن أسواق القاهرة أيضا قيسـارية جهاركس التى بناها ابن عبد الله فخر الدين أبو المنصور الناصرى الصلاحى وقد رأى المقريزى جماعة من التجار الذين طافوا البلاد

يقولون . «لم نر شيئا من البلاد مثلها فى حسنها وعظمها وأحكام بنائها » و بنى بأعلاها مسجدا كبيرا ور بعا معلقا

وفندق بلال المغيثى الذى أنشأه الأمير الطواشى حسام الدين بلال المغيثى أحد خدام الصالح وكان معظما إلى الغاية يجلس فوق جميع أمراء الدولة وكان الملك المنصور قلاوون اذا رآه يقول « رحم الله استاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب أنا كنت أحمل خف هذا الطواشى حسام الدين كلما دخل الى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده فأقدمها له » . وكان الفندق المذكور يقع فيما بين خط حمام خشيبة وحارة العدوية

وقال المقريزى عنه : « لقد كنت أدخل فيه فاذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير فلا يبقى من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة مايجل وصفه » وقد تلاشى أمر هذا الفندق حتى أنشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل الفندق بالقرب منه وأنشأ الأمير قلمطاى فندق الزجاجين وأخذ الأمير «يلبغا السالمى» أموال الناس فى موقعة تيمورلنك فى سنة ٨٠٣ هـ

وخان السبيل الذى بناه خارج باب الفتوح الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش خادم أسد الدين شيركوه ووزير صلاح الدين وعتيقه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة وبه بئر ساقية وحوض . ووكالة قوصون وكان موضعها فيما بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء وقد بناها الأمير قوصون بعد أن هدم دار سعيد وجعلها فندقا كبيراً للتجار وبدائره عدة مخازن واشترط أن لا يؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة وقد دهش المقريزى لما زارها لكثرة مافيها من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها ثم تلاشى أمرها منذ خربت الشام فى سنة ٨٠٣ هـ على يد تيمورلنك وكان يعلوها رباع تشمل على ثلمائة وستين بيتاً أدركها المقريزى لما كانت عامرة كلها وقد سكنها نحو أربعة آلاف نفس فلما كانت سنة ٨٠٦ خرب كثير من هذه البيوت . وفندق دار التفاح وكان تجاه باب زويلة ويرد اليه الفواكه على اختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الوارد من البلاد الشامية إنما يباع فى وكالة قوصون إذا قدم ومنها ينقل إلى سائر أسواق القاهرة وقد أنشأ هذا الفندق الأمير «طفوزدمر» بعد سنة أربعين وسبعمائة ووقفها على خانقاه بالقرافة . وكان بالقرب من الفندق عدة حوانيت لبيع الفاكهة تأنق الباعة فى تنضيدها وتجميلها بالرياحين والأزهار وكان ما بين الحوانيت مسقوفا حتى لايصل إلى الفواكه حر الشمس واستمر هذا المكان غصاً طريا حتى اختل منذ

سنة ٨٠٦ هـ . وخلا ماذكرته من الخانات والفنادق كان يوجد خان منكورش (بالقرب من الجامع الأزهر) وكان أحد مماليك السلطان صلاح الدين وفندق ابن قريش ووكالة باب الجوانية وفندق طارنطاى (خارج باب البحر ظاهر المقس) وكان ينزل فيه تجارالزيت الواردون من الشام وكان فيه ستة عشر عموداً من الرخام ويعلوه ربع كبير...

وكان فى القاهرة الشيء الكثير من أمثال هذه المبانى العظيمة ولقد كتب تاريخها المؤرخ العلامة المقريزى فأفاض فى وصف خطط القاهرة القديمة وتطورات المدينة الجغرافية والعمرانية وإحيائها وآثارها ومساجدها ومدارسها وقصورها و بساتينها وميادينها وحماماتها وشوارعها وأسواقها . وصف كل ذلك بأسلوب يغرى الانسان على قراءته بسهولة و بصورة ممتعة بعيدة عن الخيال المنمق . لقد كانت القاهرة المقريزية مدينة رائعة الجمال فخمة البناء جميلة العمارة متجانسة في كل شيء وكانت قصور المماليك القدماء والتى لازال آثار بعض منها نراه لليوم - كبقايا قصر بشتاك وبوابة دار «يزبك» الفتانة الملاصق لجامع السلطان حسن و بعض ممتلكات قايتباى وقصر الأمير ماماى الذى بقيت منه تلك الشرفة الرائعة التى نعرفها اليوم ببيت القاضى - كل هذه المنشآت كانت فى كامل مجدها حينذاك . وكان يقع قصر بشتاك فى أيام المقريزى تجاه الدار البيسرية (وهذه كانت أعدت فى أيام الفاطميين لفصاد الافرنج بخط بين القصرين) وكان يقصد اليه من باب البحر الذى عرف بباب قصر بشتاك تجاه المدرسة الكاملية وما زال إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى المعروف بأمير سلاح وصار ينزل اليه هو والأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الحضرة السلطانية بقلعة الجبل فى موكب عظيم ويدخل كل منهما إلى داره

وقد وصف مؤلف الخطط هذه الدور وصفا متقنا فذكر منها عددا وفيرا نأتى هنا على أهمها . دار الأحمدى ودار قراسنقر ودار أمير مسعود ودار نائب الكرك ودار بيبرس الحاجب ودار الدوادار ودار الذهب وادر نكتمر ودار الجاولى ودار طولباى ودار البقر ودار طاز ودار صرغتمش ودار بهادر المقدم . . الخ . وكان وصفه لها فيما لا يقل عن الأربعين صفحة

أخطاط القاهرة

وكانت أخطاط القاهرة نفصلها عن بعضها تلك البوابات الخشبية الضخمة التى كانت توصد على سكان الخى عند غروب الشمس وأهم الخطط التى ذكرها المؤرخ العلامة المقريزى

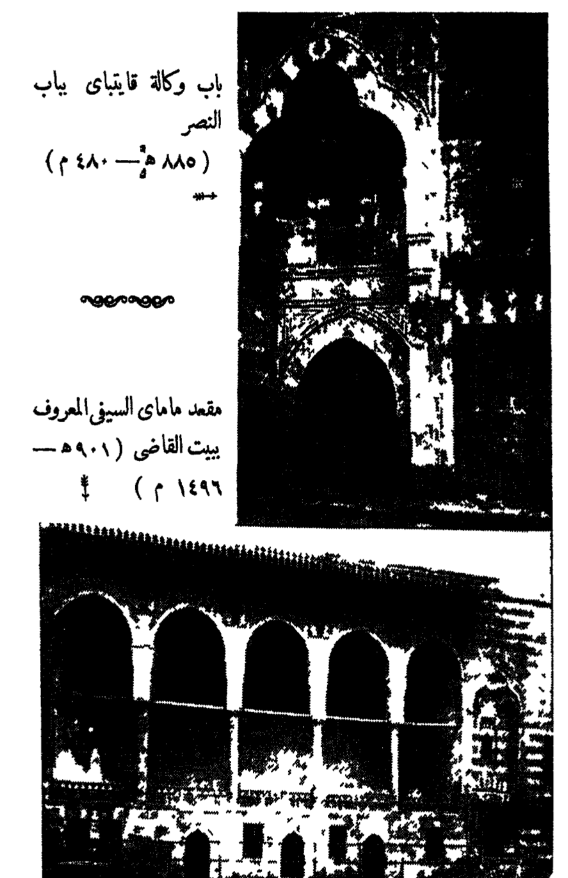
خط خان الورافة وخط باب القنطرة وخط بين السورين وكان يمتد من باب الكافورى فى الغرب الى باب سقارة وكانت بهذا الخط مناظر اللؤلؤة ومناظر دار الذهب ومنظرة الغزالة وهى بجوار قنطرة الموسكى ـ وخط الكافورى وكان بستانا قبل بناء القاهرة ـ وخط الخرشتف وكان فيما بين حارة برجوان والكافورى ويتوصل اليه من بين القصرين وخط باب سر المارستان وخط بين القصرين وقد كان من أعمر اخطاط القاهرة وأنزهها وكان فى عصر الدولة الفاطمية فضاء كبيرا يقف فيه عشرة آلاف من الجند المشاة والخيالة ولما حكمت الدولة الأيوبية صار هذا الموضع سوقا مبتذلا ثم متنزها تمر فيه أعيان الناس وكانت نعقد فيه عدة حلق لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار والتفنن فى أنواع اللعب واللهو ولما حدثت محن سنة ٨٠٦ هـ تلاشى أمر بين القصرين وذهب ماهنالك من بهجة وهناء .

ومن الخطط أيضا خط الخشيبة وخط سقيفة العداس وخط البندقانيين وخط دار الديباج وسمى بهذا الاسم لأن دار الوزير يعقوب بن كلس التى من جملتها المدرسة الصالحية ودرب الحريرى والمدرسة السيفية كانت عملت دارا ينسج فيها الديباج والحرير برسم خلفاء الفاطميين وصارت تعرف بدار الديباج فنسب اليها الخط الى أن سكن هناك الوزير صفى الدين عبد الله فصار يعرف بخط سويقة الصاحب ـ وخط الملحيين وخط المسطاح وخط قصر أمير سلاح الذى كان تجاه حمام البيسرى بين القصرين . وكان أمير سلاح هذا بكتاش الفخرى الأمير بدر الدين أمير سلاح الصالحى النجمى وكان بهذا الخط عدة دور جليلة ـ وخط باب الزهومة وخط الزراكشة العتيق وخط السبع خوخ العتيق وخط اسطبل الطارمة وخط الأكفانيين وخط المناخ وخط سويقة أمير الجيوش وخط دكة الحسبة وخط الفهادين وخط خزانة البنود وخط خان السبيل

أسواق القاهرة

وكان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الاسواق شىء كثير جدا باد أكثرها والدليل على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق الى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقا أدرك بعضها المقريزى

واحتوت السوق على الستين حانوتا . وكانت الأسواق تسقف بالحصير أو الخشب وكانت النوافذ والمشربيات تطل على شوارع السوق بشكل جذاب يلفت النظر



باب وكالة قايتباى بباب النصر
(٨٨٥ هـ — ٤٨٠ م)

مقعد ماماى السيفى المعروف ببيت القاضى (٩٠١ هـ — ١٤٩٦ م)

ومن أشهر الأسواق التى ذكرها المقريزى فى خططه القصبة وكانت أعظم أسواق مصر احتوت على اثنى عشر ألف حانوت وامتدت من أول الحسبنية إلى المشهد النفيسى ولقد أدرك المقريزى هذه المسافة الممتدة بأسرها ورآها عامرة بالحوانيت عاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة التى تبهج رؤيتها وتعجب الناظر هيئتها وقد تفرع من هذه السوق أسواق صغيرة أخرى أهمها سوق باب الفتوح وسوق المرحلين وسوق حارة برجوان وسوق الشماعين وسوق الدجاجين ومن الأسواق أيضا سوق بين القصرين واعتبر من أعظم أسواق الدنيا ثم سوق السلاح الذى كان يمتد فيما بين المدرسة الظاهرية بيبرس وبين باب قصر بشتاك وقد استجد بعد الدولة الفاطمية وجعل لبيع النشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح وسوق باب الزهومة وسوق اللحميين وسوق الجوخيين وسوق الحلاويين وسويقة أمير الجيوش وسوق الصنادقيين والحريريين والعنبريين والخراطين والقرابيين وغير ذلك من السويقات العديدة

وقد وصف المقريزى فى كتابه الخالد ٣٧ حارة أوحيا وثلاثين خطا و٦٥ شارعا أو دربا و٢١ زقاقا وخوخة و٤٩ رحبة أو ميدانا و٥٠ سوقا و٢٣ قيساريه و١١ خانا أو فندقا أووكالة و٥٥ قصرا ودارا و٤٤ حماما عاما و٢٨ بستانا و١١ ميدانا للسباق وغير ذلك من المناظر الجميلة

فمن تلك الحارات ذكر حارة بهاء الدين وبرجوان وزويلة والمحمودية والجودرية والوزيريه والباطلية والروم والديلم والأتراك والصالحية والبرقية والعطوفية وقائد القواد والأمراء والمنصوريه والهلالبة والحسينية . . الخ ومن الدروب التى ذكرها درب الأتراك وشمس الدولة وتوران شاه ودرب ابن طلائع ودرب أمير حسن وارفطاى ومن الأزقة طريف ومنعم ومن الخوخ خوخة أيدغمش والأزرقى وعسيلة والصالحية وخوخة حسين . . . ومن الرحاب أذكر رحبة باب العبد ورحبة قصر الشوك ورحبة الجامع الأزهر ورحبة البدرى ورحبه أفغا ورحبه مقبل ورحبة المنصورى ورحبة بيبرس وارفطاى ورحبة باب اللوق والناصريه

ميادين القاهرة

وأشهر الميادين التى وردت فى الخطط ميدان ابن طولون الذى كان بناه وأنفق فيه وعمل فيه المناخ وبركه الرئق والقبه الذهبية وميدان الأخشيد وميدان القصر وقد عرف

موضعه فيما بعد بالخرنشف عمل عند بناء القاهرة بجوار البستان الكافوري واستعمل فى أيام الفاطميين حتى زوال ملكهم فتعطل و بقى إلى أن بنى المماليك اسطبلات، ثم حكر و بنى فيه فصار من أخطاط القاهرة . وميدان قراقوش الذى كان خارج باب الفتوح وميدان الملك العزيز وكان موضعه بستانا . والميدان الصالحى الذى كان بأراضى اللوق من شاطىء الخليج الغربى وموضعه كان من جامع الطباخ بباب اللوق إلى قنطرة قدادار التى على الخليج الناصرى — والميدان الظاهرى الذى كان بطرف أراضى اللوق يشرف على النيل الأعظم وميدان بركة الفيل الذى أشرف على بركة الفيل تجاه الكبش وكان أولا اسطبلا لخيول المماليك السلطانية إلى أن جلس الأمير زين الدين كتبغا على تخت الملك وتلقب بالملك العادل بعد خلعه الملك الناصر محمد بن قلاوون فحوله ميدانا عوضا عن ميدان اللوق و بادر الناس من ذلك الحين إلى بناء الدور بجانبه وكان أول من أنشأ هناك الأمير علم الدين سنجر الخازن وتلاه الناس فى العمارة والأمراء وصار السلطان ينزل إلى هذا الميدان من القلعة وصار هذا الميدان باقيا إلى أن عمّر السلطان الملك الناصر قصر الأمير بكتمر الساقى على بركة الفيل فأدخل فيه جميع أرض هذا الميدان

وميدان المهارى بالقرب من قناطر السباع على شاطىء الخليج الغربى وميدان سرياقوس والميدان الناصرى وكان موضعه قديما غامرا بماء النيل ثم عرف ببستان الخشاب فلما كانت سنة ٧١٤ هـ هدم السلطان الملك الناصر الميدان الظاهرى وغرس فيه أشجارا وأنشأ هذا الميدان من أراضى بستان الخشاب

حمامات القاهرة

أما الحمامات العامة فقد بلغ تعدادها أربعة وأربعين وقد ذكر «المسبحى» فى تاريخه أن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله كان أول من بنى الحمامات بالقاهرة وذكر القاضى القضاعى أنه كان فى مصر الفسطاط ألف ومائة وسبعون حماما وقال ابن المتوج إن عدة حمامات مصر فى زمنه بضع وسبعون حماما وذكر ابن عبدالظاهر أن عدة حمامات القاهرة إلى آخر سنة خمس وثمانين وستمائة تقرب من ثمانين حماما

وأهم الحمامات التى ورد ذكرها فى خطط المقريزى حمام السيدة العمة وحمام الساباط وحمام لؤلؤ وحمام تتر وحمام الذهب وحمام السلطان وحمام خوند وحمام الجيوشى وحمام الرومي وحمام كتبغا الأسدى وحمام القاضى وحمام الحسام وحمام الصوفية الخ

خلجان القاهرة

وكان بظاهر القاهرة عدة خلجان أهمها خليج مصر وخليج فم الخور وخليج الذكر والخليج الناصرى وخليج قنطرة الفخر . أما خليج مصر فكان بظاهر مدينة الفسطاط و يمر من غربى القاهرة وهو خليج قديم أهمل عصورا طويلة حتى أعاد حفره عمرو بن العاص باذن الخليفة عمرو بن الخطاب وقيل له خليج أمير المؤمنين

وقد ذكر «الكندى» فى كتابه الجند العربى أن عمرا حفره فى سنة ٢٣ هـ وفرغ منه فى ستة أشهر ومابرح هذا الخليج منتزها لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف بالخليج الناصرى . وذكر المسيحى أن الحاكم بأمر الله منع فى سنة ٤٠١ هـ من الركوب فى القوارب إلى القاهرة فى الخليج وشدد فى المنع وسدت أبواب القاهرة التى يوصل منها إلى الخليج وأبواب الطاقات من الدور التى تشرف على الخليج وكذلك أبواب الدور والخوخ وعن الخليج قال المقريزى :

لاتركبن فى خليج مصر إلا إذا يسدل الظلام
ياسيدى لاتسر اليـه إلا إذا هوّم النيام
والليل ستر على التصابى عليه من فضله لثام

وخليج فم الخور كان يخرج من النيل ويصب فى الخليج الناصرى وقيل إن الذى حفر خليج الذكر هو كافور الاخشيدى وكان على خليج فم الخور قنطرة كما كان على خليج الذكر مثلها وهى قنطرة الدكه التى عرفت أيضا بقنطرة التركمانى

أما الخليج الناصرى فكان يخرج من النيل ويصب فى الخليج الكبير وقد أمر بحفره الملك الناصر محمد بن قلاوون لتمر فيه المراكب إلى ناحية سرياقوس لحمل مايحتاج اليه من الغلال وغيرها لما أنشأ قصوره وخانقاه بتلك الناحية وقد بدىء بحفره سنة ٧٢٥ هـ وجرى الماء فيه بعد شهرين وجرت فيـه السفن بالغلال وغيرها فسر السلطان بذلك واشترت الأهالى عدة أراضى غرسوا فيها الأشجار كما أخذوا فى العمارة على حافتي الخليج فعمر ما بين المقس وساحل النيل ببولاق وكثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط الى حيث يصب فى الخليج الكبير بأرض الطبالة وتنافس الناس فى السكنى هناك وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق وصار هـذا الخليج مواطن

للفرح ومنازل للهو والقصف الى أن منعت المراكب منه

وخليج قنطرة الفخر ابتدأ من بولاق إلى حيث كان يصب فى الخليج الناصرى

وقد كانت على تلك الخلجان عدة قناطر منها أربع عشرة قنطرة على الخليج الكبير الخليج الناصرى خمس قناطر وعلى كل من الخلجان الأخرى قنطرة

قناطر القاهرة

وأهم قناطر الخليج الكبير قنطرة السد وهى التى كان يتوصل بها إلى منشاة المهرانى وغيرها من شاطىء الخليج الغربى وقناطر السباع بجانب خط السبع سقايات من جهة الحمراء القصوى وجانبها الآخر من جهة جنان الزهرى وكان أول من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ونصب عليها سباعا من الحجارة فقيل لها قناطر السباع وكانت عالية مرتفعة وقد محاها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعاد بناءها بشكل آخر لكي تنسب اليه وليست لملك آخر وانتهى منها سنة ٧٣٥ هـ

وقنطرة عمر شاه وكانت على الخليج الكبير يتوصل منها إلى شاطىء الخليج الغربى وحكر قوصون . وقنطرة آق سنقر ويتوصل اليها من خط قبو الكرمانى ومن الحبانية إلى شاطىء الخليج الغربى وقنطرة باب الخرق وكان موضعها ساحلا وموردة للسقائين فى أيام الفاطميين فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين الميدان السلطانى بأرض اللوق وعمر به المناظر فى سنة ٦٣٩ هـ أنشأ هذه القنطرة ليمر عليها للميدان المذكور. وقنطرة الموسكي يتوصل اليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويمر فوقها إلى بر الخليج الغربى أنشأها الأمير عز الدين موسك قريب صلاح الدين الأيوبى . وقنطرة الامير حسين وقنطرة باب القنطرة ويمر فوقها إلى المقس وأرض الطبالة وأول من بناها القائد جوهر. وقنطرة باب الشعرية ويسلك اليها من باب الفتوح ويمشى من فوقها إلى أرض الطبالة وعرفت فيما بعد بقنطرة الخروبى . والقنطرة الجديدة وقناطر الأوز ويتوصل اليها من الحسينية وقناطر بنى وائل التى أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٢٥ هـ وعرفت بهذا الاسم لانه كان يسكن بقربها عرب بنى وائل. وقنطرة الاميريه وهى آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحى القاهرة بالقرب من المطرية وكان منشئها الملك الناصر أيضا

وكانت قنطرة الفخر أول القناطر التى عمرت على الخليج الناصرى بجوار موردة البلاط من أراضى بستان الخشاب وقد أنشأها القاضى فخر الدين ناظر الجيش فى سنة ٧٢٥ هـ عند انتهاء حفر الخليج الناصرى . وقنطرة قدادار ويتوصل اليها من اللوق إلى شاطىء الخليج الناصرى مما يلى الفيل ـ وقنطرة الكتبة بخط بركة قرموط وعرفت بذلك لكثرة من كان يسكن بالقرب منها من الكتاب ومنشئها القاضى شمس الدين ابن أبى السرور ـ وقنطرة باب البحر وتوصل إلى باب اللوق . وقنطرة الحاجب وتوصل لأرض الطبالة . . . الخ وكانت على خليج فم الخور قنطرة المقسى مازال موضعها سدا إلى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين بن الفرج عبد الله المقسى فى أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين فأنشأ بهذا المكان تلك القنطرة فعرفت به

وكانت من أعظم قناطر مصر قناطر بحر أبى المنجا التى لا تزال بعض آثارها لليوم أنشأها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فى سنة ٦٦٥ هـ وتولى عمارتها الامير عز الدين أيبك ـ وقناطر الجيزة التى كانت تعد من الأعمال العجيبة فى الزمان القديم وقد احتوت على نيف وأربعين قنطرة عمرها الأمير قراقوش الأسدى فى زمن السلطان صلاح الدين

برك القاهرة وضواحيها

وكانت بالقاهرة ومصر وضواحيهما عدة برك فى طليعتها بركة الحبش وكانت فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبلها فيما بين الجبل والنيل وقد أحياها وغرسها قصبا أمير مصر قرة بن شريك العبسى فعرفت باسطبل قرة . وقد قال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى من وصفه للبركة : « . . . واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش وافترشنا من زهرها أحسن بساط واستظللنا من روحها بأوفى رواق فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شموساً فى خلع بدور . وجسوم نار فى غلائل نور . إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء »

وقد عاين المقريزى هذه البركة أيام فيض النيل كما زارها أيام التحاريق وفيها قال :

يابركة الحبش التى يومى بها   طول الزمان مبارك وسعيد
حتى كأنك فى البسيطة جنة   وكأن دهرى كله بك عيد
ياليت شعرى هل زمانك عائد   فالشوق فيه مبدىء ومعيد

ومن البرك : بركة الشعيبية وكانت تجاور بركة الحبش من بحريها وانقطع عنها الماء وصارت بساتين ومزارع . وبركة شطا وأصبح موضعها كيمان على يسرة من كان يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر . وبركة قارون وكان موضعها بين جامع ابن طولون وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة وبركة الفيل وهى من أكبرها

وقال عنها ابن سعيد الرحالة : «وأعجبنى فى ظاهر القاهرة بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب »

وبركة الشقاف التى كانت بجوار اللوق وعليها جامع الطباخ وعدة مناظر منها واحدة للأمير جمال الدين موسى بن يغمور . وبركة السباعين ثم بركة الرطلى التى كانت من جملة أرض الطبالة . وكان فى شرقي هذه البركة زاوية بها نخل كثير وفيها شخص كان يصنع الأرطال الحديد التى تزن بها الباعة فسماها الناس ببركة الرطلى

وبركة بطن البقرة التى كانت موجودة فيما بين أرض الطبالة واللوق وكانت تجاه قصر اللؤلؤة ودار الذهب وبركة جناق التى كانت خارج باب الفتوح بالقرب من منظرته وكانت الدور مقامة على حافتها حتى أيام المقريزى - وبركة الحجاج وسميت بذلك الاسم لنزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم - وبركة قرموط التى كانت فيما بين اللوق والمقس وقد ردم جزءاً كبيراً منها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدرك بها المقريزى ديارا جليلة تباهى أربابها فى أحكام بنائها وتحسين سقوفها وبالغوا زخرفتها بالرخام والدهان وغرسوا بها الأشجار وأجروا اليها الماء من الآبار فكانت تعد من المساكن البديعة النزهة ويقول المقريزى عن دورها : « مامررت بها قط إلا وتبين لى من كل دار هناك آثار النعم أما روائح نقالى المطابخ أو عبير بخور العود أو نفحات الخمر أو صوت غناء أودق هاون ونحو ذلك مما يبين ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم ثم هي الآن موحشة خراب قد هدمت تلك المنازل وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة فزالت الطرق وجهلت الأزقة وانكشفت البركة وبقى حولها بساتين خراب »

وبركة قراجا التى كانت خارج الحسينية قريبا من الخندق وعرفت بالأمير زين الدين قراجا التركمانى أحد أمراء مصر أنعم عليه بالأمرة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون

والبركة الناصرية التى كانت من جملة جنان الزهرى فلما خربت الجنان صار موضعها

كوم تراب وقد أعاد اليها رونقها السلطان الناصر على يد الأمير بيبرس الحاجب . فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة فحكر الناس ماحولها و بنوا عليها الدور العظيمة ومابرح خط البركة الناصرية عامرا إلى أن كانت الحوادث من سنة ٨٠٦ هـ فشرع الناس فى هدم ماعليها من الدور

وانك اليوم إذا طفت بشارع الصليبة وجبت شوارع الغورية فالنحاسين فخان الخليلى فباب الشعرية والجمالية وباب الفتوح وعدت إلى سوق السلاح والدرب الأصفر والدرب الأحمر ومايتفرع منه من حارات الدرديرو حوش قدم والدرب المحروق وذهبت إلى الحبانية أوالخرنفش و بقية هذه المناطق العديمة فأنت ترى فيها المدينة التى طالما تغنى بها كتاب الغرب وذكرها سائحوه وسماها شعراؤهم مدينة المآذن والقباب وصورها فنانوه أمثال «كارتر» و«سيمنجتون» و «روبرتهاى» و «باسكال كوست» و «بريس دافنس»...

شوارع ضيقة و بيوت متلاصقة إذامادفعت باب الخوخة منها رأيتها دورالاحواش الفسيحة والرواشن المنمقة والمشارب الجميلة والدواوين والأواوين والمساطب وترى الدار بجوار المسجد بجوار الخانقاه بجوار الدكان والمشرب أشبه بلوحة سحرية أنزلها فنانها منازل السحر والدهشة وألبسها روح الاستهواء والاعجاب ومن هنا فقط كانت القاهرة الساحرة مهوى أفئدة السياح والرواد و يرى فيها المواطن مجالا للحديث والبحث والتمتع بأخبارها الطلية

إنك إذا جعلت للقاهرة يوما من نفسك فمر بها بين مسجدى الرفاعى والسلطان حسن ودر بميدان القلعة على تلك العمائر والمساجد وانعطف لتقف بين جامعى المردانى وأبى حريبة ونستظل بدهاليز باب المتولى تحت عقد باب زويلة فترى أمامك قيسارية « قصبة رضوان » بسقوفها الكتانية وجدرانها الحجرية وحول طرفك محبا بين جامع الوزيرطلائع بن رزيك والجامع الذى يقابله مشرقا وجامع المؤيد يقابله شمالا ومئذنتاها ناشئتان من قرنى البوابة كأنهما أذنا الغزال وعد قليلا فى شارع الغورية مابين مسجد السلطان الغورى وقبته إلى أن تقف بين القصرين فى ميدان قسم الجمالية وأمت شاخص البصر بين آثار السلطان قلاوون و برقوق من مساجد و بيمارستانات وخانقات تسلبك لبك وأنت ترى مظاهرها فاذا مادخلتها جلوت سرا من أسرار القاهرة لايزال ماء الذهب يسطع ببهجة أيامه السابقة

واترك المساجد والمقابر وقصر الخطو عن أبواب القاهرة وسورها وسرح طرفك فى قليل من عمائرها ودورها الباقيـة فانظر دار السحيمي والمسافرخانة ودار خير الدين

ووكالة بازرعة وهى دور أربع متقاربة بحى الجمالية . . . فلسوف تحس الروعة منها وتعطف عليها

لقد أثرت على القاهرة أشياء كثيرة أهمها فقدانها التجارة الهندية وتبعيتها للأتراك وسوء حكم الباشوات و بكوات المماليك . . كل هذه العوامل مهدت خراب مدينة القاهرة بعد أن تمتعت وابتهجت تحت حكم سلاطين البحرية والشراكسة كما بهرت العالم بمدنيتها وثقافتها ومكانتها . و بسبب اضمحلال المدنية اقتصاديا اضمحلت فنونها أيضا

ولا يزال أثر ضئيل من دقة الصناعة النحاسية فى القاهرة وكذلك الصباغة ونسج الحرير . . وللأسف نقول انها بقايا ضئيلة إذا قورنت بصناعات القاهرة فى القرن الخامس عشر وزيارة لدار الآثار العربية تحقق لنا هذا القول

صناعات وفنون القاهرة

وكانت الفنون فى تلك العصور تلازم المساجد التى بلغت كمالها الفنى فى الزخرفة . ولقد اشتملت دار الآثار منذ أول نشأتها على قطع من الزخرفة أو الأثاث التى وجدت فى المساجد . فالصوانى الجميلة النحاسية والمطعمة بالكتابات الفضية المنقوشة والمصابيح والشماعد والمشكاوات وكراسى المصاحف والأوانى والأطباق والكؤوس والصحون جلبت معظمها من المساجد وكلها من صناعات القرن الرابع عشر كذلك الحشوات المنقوشة المطعمة بالسن والأبنوس وتلك الأخشاب الجميلة التى كانت تزين فى يوم من الأيام أبواب ومحارب الجوامع

ويجد زائر دار الآثار العربية فى القاعة التاسعة مجموعة بديعة غنية من صناعات المعادن أهمها عدد من الأبواب المصفحة المصراعين بألواح من نحاس ومثبت فوقها قطع صغيرة مخرمة ومرتبة على شكل رسومات هندسية و بعضها منقوشة بأشكال عربية يتخللها كثير من صور الطيور والحيوان . ومن بين الأوانى يجد الزائر إناءا عليه اسم وألقاب ابن فضل الله رئيس كتاب الانشاء فى زمن السلطان محمد الناصر بن قلاوون و يرى أيضا شمعدانين كبيرين عليهما اسم السلطان قايتباى كان أوقفهما على الحرم النبوى الشريف فى سنة ٨٨٧ هـ و بأحد الدواليب توجد أوانى منزلية كأباريق وطسوت وأهوان وطاسات الخضة التى كانوا يعتقدون أن من يشرب منها يشفى من الأمراض لما هو مكتوب عليها من طلاسم وباحداها نقش رسم عقرب وثعبان وحيوان خيالى ومكتوب عليها جزء من سورة « إذا السماء انشقت » ومعدد بها أنواع الأمراض التى تشفيها

هذا الى القماقم وصناديق المصاحف والعلب والمحابر والموازين وأغلبها مكفت بالذهب والفضة . ومعلق بسقف القاعة عدة ثريات من النحاس الاصفر المخرم الجميل الصنع أحسنها وأكبرها الثرية التى بوسط القاعة وهى على شكل هرم ناقص ذى ثمان زوايا بدائرة خارجة وبهيئة أبراج ومتوجة بهلال وكل ذلك مخرم ومنقوش وتحت الثريا صينية جميلة يقرأ بها اسم السلطان الغورى وعلى أجنابها اسم محمد الماردانى وألقاب بعض الأمراء وأصلها من جامع الغورى

وبمتاحف أوربا وعلى الأخص فى متحف «فكتوريا وألبرت بسوث كينسنجتون» بلندن مجموعة نادرة من نماذج الصناعات المصرية فى القرنين الرابع والخامس عشر وهناك فى بعض متاحف باريز وبرلين وفينا يجد الزائر فى صالاتها مجموعات نفيسة يعجب الانسان كيف انتزعت من مصر وانتقلت إليها ! وأعظم مخلفات هذه الصناعات من آثار المماليك تظهر لنا فى قاعات الخشب المكتوب والخشب المخروط والخشب المزخرف وفى قاعة الخشب المطعم والمكسو بالفسيفساء وكذلك فى قاعة الأسلحة وقاعة الخزف والفخار فى دار الآثار العربية

وهناك قاعتان مخصصتان لمجموعة من المشكاوات المصنوعة من الزجاج المدهون بالمينا يرجع عهد صناعتها من نهاية القرن الثالث عشر الى وسط القرن الخامس عشر الميلاديين ويبلغ الموجود فى دار الآثار قدر الموجود في متاحف العالم أجمع وهى متشابهة الشكل فان الرقبة فى كل واحدة منها على هيئة مخروط ناقص والبدن منتفخ ومنسحب الى أسفل وفيه ثلاثة أوستة آذان وقاعدة أو طيلسان لوضعها على الأرض اذا أريد عدم تعليقها وارتفاعها يختلف بين ٢٥ و ٤٥ سنتيمترا . وكانت تشبك فى الآذان سلاسل من نحاس أصفر أو من فضة تجمع بعضها تحت كرة بيضاوية تتخذ من خشب أو قاشانى أو بيض نعام أو زجاج يدهن بالمينا الجميلة مثل المشكاوات . وأقدم مجموعة المشكاوات مشكاة من زجاج غير ملون على عنقها زخارف وعلى البدن كتابة حمراء نصها « مما عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية الصلاحية تغمد الله صاحبها بالرحمة والرضوان » ويؤخذ من هذه الالقاب أنها عملت برسم تربة السلطان خليل بن قلاوون الذى قتل فى سنة ٦٩٣ ﻫ

وتوجد أيضاً مشكاوات من عهد برقوق والسلطان حسن والأمير آق سنقر وغيرهم

وقد وجدت صناعة الحفر على الخشب فرصا ثمينة للظهور فى المحاريب وكراسى القرآن وأبواب الجوامع الداخلية والدواليب ومن بين النماذج القديمة ملوجد منها فى جامعى ابن طولون والحاكم ويمكن مشاهدتها فى قاعات دار الآثار العربية ويستدل

من نقش حشواتها أنها بيزنطية الأصل وهى كثيرة الشبه ببعض الحشوات التى قد يرجع عهدها إلى القرون الأولى من الهجرة وقد عثر عليها بعين الصيرة جنوب القاهرة . وبدأ تصميم النقش منذ القرن الثالث عشر يتحول فبدلا عن الحشوات المجمعة على أشكال نباتية نرى رسومات دقيقة اندمجت فيها الهندسة والذوق بشكل متناسق جميل ونرى هذا التحول ظاهرا فى تابوت الأمير شيخو ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ويوجد جنب من أجنابه الأربعة فى متحف « سوث كنسنجتون » بلندن والأجزاء الثلاثة الأخرى فى دار الآثار . كذلك نرى التحول نفسه فى غطاء مقبرة الصالح أيوب (١٢٤٩ م) وفى محراب أصله من مشهد السيدة رقية وهو تحفة فنية فريدة فى بابها ووجهته عبارة عن حشوات مجمعة على شكل نجوم ورسومات هندسية وجانباه وظهره مكونة من حشوات كبيرة يتخللها جميعها زخارف متناسقة وأوراق بها حليات دقيقة تتفرع من آنية زهر

ولقد بلغت صناعة حفر الخشب مجدها فى عصر سلاطين المماليك وعلى الأخص أيام حكم السلطان الناصر ثم وجدت طريقة أخرى لتزيين الخشب وهى التطعيم بالعاج والأبنوس وقد استعمل العرب العاج اماحشوات كاملة وفى هذه الحالة قد يكون منقوشاً أو أملساً واما استعملوه فى التطعيم . وترى أمثلة نفيسة جداً من هذه الصناعة فى الجوامع والكنائس القبطية فى بابليون ويحتمل أن صناع العرب اقتبسوا منها فنهم وزائر متحف فكتوريا وألبرت بلندن يستطيع أن يشاهد الشىء الكثير منها ضمن معروضاته كقطعة من المحراب الذى أقامه لاشين فى جامع ابن طولون عام ١٢٩٦ م ونفائس أخرى أخذت من جامع الماردانى (١٣٣٩ م) وأخرى من محراب جامع قوصون والمحراب الجميل الكامل الذى يحمل اسم « قايتباى » ولا يعلم من أى جامع تسرب هذا الأثر النفيس ! ويخرج الفاحص لهذه الآثار الفريدة أن تلك الصناعة بلغت فائق حدها فى آثار الماردانى عقب حكم الناصر مباشرة لأن محراب « شيخو » (١٣٥٨ م) لا يعد شيئاً يذكر بجانب ماتراه بين مخلفات الماردانى وكان محراب السلطان حسن من الحجر كذلك محراب المؤيد (١٤٢٠م) حتى قايتباى الذى نعتبره سيد منشىء القاهرة لم تكن صناعة عهده كما عرفناها أثناء القرن الرابع عشر . وكان منتصف ذلك القرن مفترق الطرق اذ بدأت الأحجار تأخذ مكانا جديدا وحلت محل الأخشاب . وكانت ضربة قاصمة على محترفيها الذين لم يستطيعوا أن يلقوا بآلاتهم مرة واحدة بل أخذوا يعملون لتطور صناعتهم لكى تسير بجانب صناعة نحت الأحجار

وأقدم باب استعمل، فيه السن تطعيما للخشب هو الذى وجد بتربة السلطان قلاوون المبنية فى سنة ٦٨٤ هـ والموجود بدار الآثار العربية .

واذا كانت صناعة حفر الخشب قد اندثرت بعد منتصف القرن الرابع عشر فان صناعة جديدة حلت محلها وهى الخرط وهى صناعة عريقة فى القدم لكنها تنوعت وأجيدت فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين ومنها نماذج حسنة فى جامع المارداني ومنبر جامع المؤيد . وأقدم مثل منها فى دار الآثار العربية الشماع الكائن بالقاعة السابعة من عهد الدولة الأيوبية . وكانت المشربية من المظاهر الخارجية للبيت القاهرى ووجودها يساعد على إيجاد النور اللطيف الهادىء وعلى دخول النسيم العليل وعلى رؤية من بالخارج بدون أن يستطيع المار الذى لا يتقى الله أن يرى من فى الداخل . وليست المشربيات التى نرى بقية منها فى بعض الجوامع القديمة مثلا ساميا لتلك الصناعة بل بالعكس فهى ترينا صورة ساذجة كما نراها فى تربة قلاوون بعيدة عن الروح الفنية وإن كنا نرى نموذجا لا بأس به فى محراب لاشين بجامع ابن طولون (١١٩٦ م) حيث الشبكة ضيقة والدقة الفنية موجودة . وأول ما نراه من صناعة المشربيات ذات الرسوم الدقيقة والتصميم البديع فى حاجز (ستار) تربة المارداني . ويعطى لنا هذا الحاجز فكرة واضحة عن تطور صناعة نقش الخشب ونلاحظ تطور الخرط أيضا فى محراب المؤيد أما فى عصر قايتباى فقد وصلت شأوا مجيدا يمكننا أن نستدل عليه من مشاهدة محراب أبى بكر بن مطهر . إذ أن أكثر مشربيات بيوت القاهرة القديمة حديثة الصناعة لا يرجع أكثرها الى القرن الثانى عشر الهجرى

ومما يؤسف له كل الأسف أنها على وشك الفناء وهى فى طريقة الاندثار سنة بعد أخرى ولولا عناية رجال لجنة حفظ الآثار العربية بتلك البيوت لما كنا نراها اليوم فى قاهرتنا العزيزة بغض النظر عما كانت تسببه من تسهيل انتقال النيران اذا شبت فى بيت من البيوت وانتقال الضرر الى البيوت المجاورة فى الحال

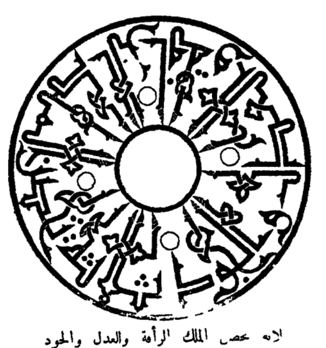
وليس من السهل فى هذا الكتاب أن نتكلم بإيضاح عن صناعات القاهرة التى نمت فى عصر العلامة المؤرخ المقريزى « قاهرة القرون الوسطى » فان كل صناعة جديرة بأن تبحث فى مؤلفات خاصة يقوم بها الاخصائيون الفنيون وأستطيع القول بأن القاهرة كانت لها فى يوم من الأيام عمارة خاصة ذات طابع ممتاز كما انفردت بين بلدان العالم فى صناعات الأخشاب المختلفة وفى صناعة الحجارة والمعادن والزجاج والمنسوجات الخ... كانت لها عمارة قاهرية وفنا قاهريا وصناعة قاهرية وروحا قاهرية وثقافة قاهرية فأين ذهب كل ذلك الآن ؟ لم يكن العرب أهل . ن انما تعلموا الفن من كل بلد نزلوا فيه وأخضعوه

لسلطانهم . أخذوا بفن البلاد أينما حلوا وطوّروه كما يتناسب مع البيئة والدين فتعلموا صناعة المعادن من بلاد العجم وسرعان ما كانت صناعتهم وقلدوا صناعة الخشب عن البيزنطيين والأقباط وأضافوا اليها ما زادها جمالا وبهاء حتى أصبحت على أيديهم فنا قائماً ووجدوا صناعة الزجاج فى مصر فنهضوا بها بشغل الطلاء بالميناء وتذهيبها كما عرفوه من الاستانة وأخرجوا للعالم مشكاواتهم وشمعداناتهم العجيبة التى تختلف كل الاختلاف عما كان معروفا ولم يقصر الأمر على تحوير أو تغيير فى التصميم أو الشكل . ليس هذا ما يجعل الاختلاف بل الواقع أننا رأينا اختلافا جامعا يشمل كل فروع الفنون الأسلامية . لم يكونوا ناقلين مقلدين بل وجدناهم نابغين يأخذون بالفكرة ويجعلونها تتطور وترقى كما يرغبون . ومما يلفت النظر أننا نرى الفن يبلغ أوج كماله فى عصور الاستبداد على يد حكام مستبدين ظالمين لا تربطهم صلة جنسية بالبلاد فعصر سلاطين المماليك فى مصر يعد أزهى عصورنا فنا وأدبا . ولا ننسى أن أعظم الأسماء فى الفقه الاسلامى والتشريع والنقد والتاريخ كان أصحابها من القضاة والأساتذة الذين اتصلوا اتصالا وثيقا بمساجد ومدارس القاهرة — وان فترة الحكم المملوكى انتجت أو شجعت كثيرين من الكتاب المبرزين أمثال ابن خلدون والنوبرى وابن دقماق والمقريزى وابن حجر والعينى وابن عرشاه وأبو المحاسن والسيوطى وابن إياس . . وغيرهم ممن ولدوا فى مصر أو كأبى الفداء الذى قضى عدة سنوات تحت سماء القاهرة

وباختصار فان القرن الثامن الهجرى يعتبر أزهى عصور مصر الأدبية كما كانت الشام أيضاً أثناء حكم هؤلاء السلاطين العظماء

هذه . . كانت القاهرة . . . قاهرتنا الجميلة التى نحبها ونعزها

عاشت القاهرة لأبنائها ولسيدها مليكها . . .



لانه حص الملك الرأفة والعدل والجود

أهم مراجع القاهرة

أورد فى الثبت الآتى أهم المصادر العربية للجزء الأول من كتاب القاهرة لكى يرجع إليها القارىء :

١ ـ إبراهيم محمد المصرى المعروف بابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ـ لم يظهر منه إلا جزءان الرابع والخامس (القاهرة ١٣١٤ م)

٢ ـ عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ـ جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

٣ ـ عبد اللطيف البغدادى : وصف مصر حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد ـ مطبعة المجلة الجديدة (١٩٣٢ م)

٤ ـ أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ ٣ أجزاء (بولاق سنة ١٣١١ هـ)

٥ ـ أبو العباس أحمد القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ـ ١٤ جزء (القاهرة سنة ١٩١٤)

٦ ـ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بن بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ أربعة أجزاء ـ طبعة دار الكتب المصرية (١٣٤٨-١٣٥٢هـ)

٧ ـ العلامة تقى الدين أحمد بن على المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . أربعة أجزاء . مطبعة النيل (١٣٢٤ هـ) وتوجد طبعة بولاق فى جزئين

٨ ـ على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ـ ٢٠ جزء ـ (بولاق سنة ١٣٠٦ هـ)

٩ ـ جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ـ جزءان (مطبعة الهلال ١٩٢٥)

١٠ ـ المرحوم على بك بهجت ومسيو ألبير جبرييل : حفريات الفسطاط ـ (مطبعة دار الكتب ١٩٢٨)

١١ ـ محمد فريد أبوحديد : صلاح الدين الأيوبى وعصره (دار الكتب ١٩٢٧)
فتح العرب لمصر تأليف الدكتور بتلر (« « ١٩٣٣)

١٢ ـ الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر (« « ١٩٣٣)

١٣ ـ على إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى (مطبعة حجازى ١٩٣٣)
عواصم مصر الاسلامية (مقالات نشرت بالمقطم)

١٤ ـ حسن محمد الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ـ (مطبعة الاعتماد ١٩٢٩)

١٥ ـ أنور زقلمة : المماليك فى مصر (مطبعة المجلة الجديدة ١٩٣٠)

وغير ذلك من المصادر الأخرى التى ورد ذكرها فى الكتاب كمؤلفات ابن بطوطة وابن سعيد والبكرى ومقتبسات الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعيّة

ب ـــ المصادر الأفرنجية

1. Abbate : Les origines du Caire - 1880
2. Casanova : Essai de reconstitution topographique de la ville d' Al Foustat ou Misr. Le Caire 1919
3. Capt. Creswell, K. A. G. : 1 - Chronolgy of Muslim Monuments. B. 1. F. 1917.
   II. The Foundation of Cairo - The Bulletin of the Faculty of Arts. Vol 1. part 11. 1934.
4. Mrs. Devonshire : Rambles in Cairo - 1917.
5. Ebers. G : Egypt. descriptive Leipzig 1878.
6. Fraser, R. : Cairo. Past and Present. London 1892.
7. Kay. H. G : Al-Kahirah and its gates. G. R. A. S. 1882.
8. Lamplough, A. O : Cairo and its environs. London.
9. Margolioth: Cairo, Jerusalem, and Damascus Oxford 1907.
10. Migeon, G : Le Caire, le Nil et Memphis. Paris 1928.
11. Nassiri Khosrau : Sefer Nameh - Relation du Voyage Paris 1881.
12. Poole, S. L : 1 - The Story of Cairo. London 1902.
    2 - Cairo, Sketches of its History. London 1895
13. Poole, E. W. L. : Cairo fifty years ago. London 1896.
14. Ravaisse. P : Essai sur l'histoire et sur la topographie du Cairo, d' apres Makrisi. 1887/90
15. Reynolds, Ball : The City of The Caliphs. Boston 189[illegible]
16. Sladen, D. : Things ought to be seen in Cairo
17. M. Van Berchem : Notes d' Archéologie Arabe. Extr du journal Asi atique. 1819.

إصلاح خطأ

وقع أثناء الطبع بعض أغلاط مطبعية نوضحها هنا ليستدركها القارىء فى بعض النسخ التى وقعت فيها ويحسن أن يصححها قبل قراءة الكتاب

ص	س	خطأ	صواب
٥	٣	أدر	أدرى
٦	٥	أكسى	أكسو
٧	٧	أنجار	أنجاز
٩	٣	ضاحيتى	ضاحيتين
١٣	١	ترسل	يرسل
١٤	١	بجعله	يجعله
٣٢	٢٣	الدبر	المدبر
٣٣	٦	سفن	سفنا
٣٤	١٠	يجاورها	يجاوره
٣٥	٥	كان	كانت
٣٥	١٢	كان	كانت
٣٦	٦	فأخذ	فأخذوا
٥٢	٢٨	كان	كانوا
٥٤	١٧	ووالديه	وولديه
٥٧	١٥	أنه	أن
٦٠	١٤	حديث	حديثاً
٦٢	٢١	لهم	. . .
١٠٠	٢٥	بلغت	بلغ
١١٠	٢٦	كان يحيط	كانت تحيط
١١٢	١٩	ألف	ألفاً



الجزء الأول

صحيفة

انتهى الجزء الأول